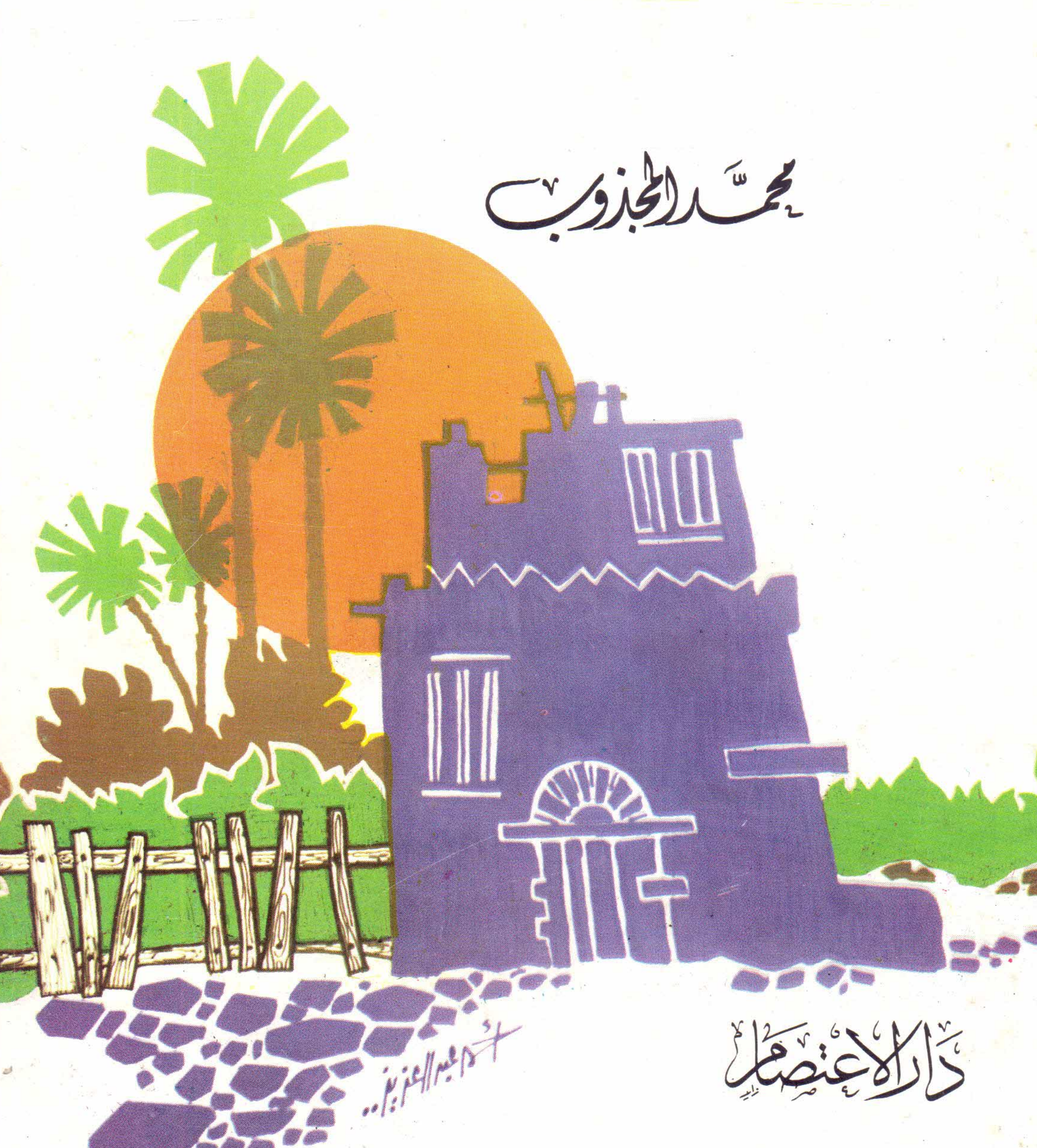
قصص لا تنسى

من مجتمعنا

محمد المجذوب



دار الاعتصام

من الأستاذ ميخائيل نعيمة
إلى مؤلف هذا الكتاب

سلام عليك .. وبعد « فقد وقعت في كتابك على مواهب جديرة بالعناية والتقدير ، فالفكر حي حساس ، والخيال نشيط نفاذ ، والروح إنساني صادق ، والقلم بصير طيع ، والذوق لطيف عفيف .

لقد اخترت أن تكون قاصا فأحسنت الاختيار ، لأنك تملك دقة الملاحظة ، وتملك القدرة على تصوير ماينطبع في وجدانك من مؤثرات البيئة التي تعيش فيها ، وتتحسس مواطن ضعفها وقوتها ، وبواعث أحزانها وأفراحها ... ومن توافرت له هذه الصفات كان طريقه مفتوحاً وواسعاً وآمناً من العثار والغرور ...

ميخائيل نعيمة - في مجلة (الأديب) ١٩٥٨م بيروت

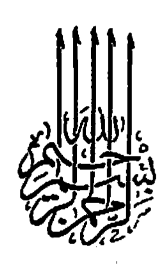
محمد المجذوب

قصص لا تنسى

من مجتمعنا

الطبعة الاولى

دار الاعتصام



دار الإعتصام

٨ شارع حسين حجازى - ت: ٣٥٤٦٠٣١ / ٣٥٥١٧٤٨ ص.ب ١٧٠ القاهرة

للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

هــــــذه الطبعــــــة

لا أريد الكلام عن مضمون هذا الكتاب .. فذلك حق القارىء والناقد ، وإن كنت أعتبره في مقدمة ما ألفته من قصص ، عرضت فيها لدراسة المجتمع ، ولتسجيل بعض الأحداث ذات العلاقة الخاصة بنفسي .

ولكنني أحب أن أعتذر لقارئه عن طبعته الأولى ، التي صدرت بُعَيْدَ مغادرتي سورية إلى المدينة المنورة .. فلم يتح لي أن أكتب لها مقدمة ، ولم يقيض لي أن أصحح أخطاءها المطبعية ،فخرجت إلى الدنياكاليتيم الذي لم يجد من يرحمه أو يعنى به ، حتى لأكاد أنكر صلتي بهذا الكتاب وأعتبره مولوداً غير شرعي ! .. ولا غرابة فإن ما شحنت به تلك الطبعة من الأغاليط ، وما تعرضت له من التشويه ، شيء مؤسف .. بل مفجع .. لا يستطيع تصوره إلا من أصيب عمله الأدبي بمثله .

من أجل ذلك حرصت على إعادة طبع هذا الكتاب ، لأعيد له ما سُلِبَ من حقيقته ، ولأقول لقارئه بكثير من الرضى والارتياح « هذه قصص يسرني أن تطالعها ، وأن تشاركني أحاسيسها ووقائعها ».

والحمد لله الذي يسر لي ذلك ، وهو حسبي وإليه أنيب .

المدينة المنورة «المؤلف»

خطأ في خطأ

كان الناس في جسر الشغور وما حولها ينظرون إلى الشيخ غانم، والأوسطه أحمد على أنهما الحاكمان الفعليان للقضاء... لا يقطع القائمقام التركي خيطاً إلا بمشورتهما، لذلك كانوا يتسابقون لاكرامهما، وقد بات مألوفاً أن يري الإنسان بعض القرويين والبدو يسألون عن دار الشيخ والأوسطه لإيصال مايحملون من الهدايا. وليس ضرورياً أن يكون للقوم بهما أية حاجة، ولكنها العادة التي لا سبيل إلى تغييرها أو تعديلها، مادام في الإمكان أن تحدث لهؤلاء حاجة ما إليهما أو إلى أحدهما ذات يوم..!

وكانت الصلة بين الشيخ والأوسطه ذات وجهين، فهما على وفاق تام في الإخلاص للقائمقام، وإطلاعه على كل مايهمه الإطلاع عليه من شئون الناس.. وقد عرف لهما هذا الأخلاص، فهو يقدر رأيهما، ويأخذ به في كثير من الأحيان وهذا الشيخ غانم قد أصبح بسبب ذلك من أقرب المقربين إليه، يستشيره في الصغيرة والكبيرة، ولا يكاد يفارق مجلسه في دار الحكم طوال ساعات الدوام، إلا أن يحول دونه عائق من مرض أو سفر. وكذلك الشأن بالنسبة إلى خادمه الأوسطه أحمد، فهو يعامله كالأخ البر، يحوطه بعطفه. ويفوض إليه الأمر في كل مايتعلق بشئون الدار والاسطبل. وكثيراً مايباسطه ويبادله المزاح، متخلياً بذلك عن كل ماعرف به من تزمت وعبوس عند تصريف أمور الإدارة.. ويكفي دليلاً على ثقته فيه أنه هو الذي اخترع له لقب (الأوسطة) مبالغة في إكرامه..

أما الوجه الثاني من هذه العلاقة فيتجلي في ذلك التنافر الذي تتسم به أحاديثهما الخاصة، ولا سيما في النواحي الدينية، التي لايستطيع الشيخ غانم التخلي عن إثارتها كلما وجد نفسه في خلوة مع أحمد!. وقد أوشك الخلاف بينهما أن ينحصر أخيراً في نقطة ضيقة، ولكنها كما يبدو حساسة لاتفسح المجال لأي تقارب أو تهاون بين الاثنين

فالشيخ غانم يصر على أن الملاك جبريل قد أخطأ في تأدية رسالة الله، فبدلاً من أن يسلمها إلى عليّ كما أمره الله، وجهها إلى محمد!.. لأن كلا منهما كان أشبه بالآخر من التوأم بأخيه..!

وطبيعي ألا يستسيغ الأوسطة أحمد هذا الادعاء، لأنه لايستطيع أن يتصور جبريل، وهو أمين الله على وحيه، معرضاً لمثل هذه الغفلة، التي لم يتعرض هو لمثلها قط في أية مرة حمل فيها رسالة من القائمقام..! ولو أن أحمد هجر عقله ورضي مثل هذا الادعاء الذي لادليل على صحته، فلا بد له أن يسأل نفسه: وكيف رضي الله أن يقع مثل هذا الخطأ، ولماذا لم يحل دونه، ولم لم يصححه فيما بعد، إذا هو قد وقع حقاً.!! ولا شك أن كل تخطئة لجبريل في هذا الموضوع تنطوي على إتهام لله نفسه بالغفلة، أو العجز عن منعها، أو السكوت عليها.. وكل أولئك مما ينوء به دماغ الأوسطة أحمد..!

أما دعوى التشابه بين محمد وعلي.. فما كان لمثله أن يقطع بها، لأن ذلك أمر تاريخي يعرفه العلماء، وقد رجع إلى أحدهم يستفتيه فجاء الجواب مهدماً لكل مزاعم الشيخ غانم، لأن محمداً — حسب كتب التاريخ — بعث في الأربعين، وآمن به علي وهو دون العشر، فالفرق بينهما مما لايتسع لأي خطأ.. ويكفي هذا وحده حجة تسكت كل معاند.. غير أن الشيخ غانم الذي ظل مكانه لايقبل أي تعديل لرأيه، بحجة أن الحقائق الإلهية لاتؤخذ من الكتب، لأنها صورة الظاهر وحده، فلا مندوحة لمعرفتها يقيناً من الرجوع إلى الباطن، وهو موقوف على أهله.. الذين نقلوه عن أمثالهم بطريق المشافهة والتلقين..!

وكان ثمة فرق آخر بين الرجلين .. لابد أنه ترك طابعه في علاقتهما أيضاً ..

فالشيخ غانم ذو مزاج بارد، تغلب عليه الرصانة والصبر، فهو قلما يستسلم إلى اندفاع الحماسة كما يحدث لأحمد. انه يكتفي بإلقاء كلمته في عبارة مثيرة موجزة، صبت في قالب الجزم فلا مساومة، ولا تردد.. وقد أوتي عينين نفاذتين تموجان بالغموض، فإذا واجهتاك لم تعرف ماوراءهما من أسرار. وهو طويل الإطراق، قلَّ أن يرسل كلمة في أمر كهذا قبل أن تخلل أصابعه كل شعرة في لحيته العريضة المفروقة على جانبي صدره.

ولا كذلك أحمد.. فهو مثل صاحبه أقرب إلى النحافة والقصر، ولعله في مثل سنه أيضاً.. ولكنه بعكسه تماماً من حيث المزاج، إذ هو سريع النكتة، خفيف الروح، يضع في كلامه أعصابه، كأنه خطيب متحمس، غير أنه مع ذلك مهذب المنطق، لاتعرف اللفظة النابية طريقاً إلى لسانه،.. يعرض حجته التي اقتنع بها، فإذا وجد في محدثه لفاً ودوراناً ومكابرة قابل ذلك بنكتة طريفة مثيرة ثم مضي لسبيله!..

ومن هنا كان تنافر الرجلين..

بيد أن التنافر المستمر ظل في حدوده المعقولة، فلم يجرهما إلى أية خصومة، بل ظلا على وفاق تام في ظاهر أمرهما، تماماً كما يحدث بين حيوانين متعاديين، جمعت بينهما تربية منزلية فأنست كلا منهما غريزة العدوان.. ولو إلى حين..

***

وذات يوم التقى الأوسطة أحمد بالشيخ غانم عقيب صلاة الجمعة، فلم يشاءا أن يفترقا قبل أن يطلا على مجرى العاصي.. وهناك التفت الشيخ إلى صاحبه يقول: ان منظرك لمهيب في هذه الصبغة الجديدة..

وجعل يمسح على لحيته ويقول : لقد كنا صباح اليوم متشابهي الشعر كلانا مخلوط السواد بالبياض سلق بلبن.. فلماذا تعود إلى الصبا، وتتركني وحدي في نطاق الشيخوخة..!

وهذه أول مرة يستعمل فيها غانم أسلوب النكتة مع رفيقه، ولكنها نكتة ظلت في حدود اللفظ، إذ لم تستطع أن تمحو عن وجهه عبوس الجد..!

وأجاب أحمد: وما الذي يمنعك من استرداد شبابك؟..

ــ وكيف؟.. وأين أجد ذلك؟..

ــ في الحمام.. لقد كلفت الحمامي تحضير الخضاب المناسب وعقب الاستحمام قام هو بإجراء الواجب.. فإذا شئت كلفته أن يحضر لك مثل ذلك، ويقوم بأمرك على وجه يسرك..

ــ سأكون شاكراً لك هذا.. ولكن متى ؟

ــ خير البر عاجله.. اليوم إذا أردت..

ــ وما لبثا أن عادا أدراجهما إلى داريهما المتجاورين، بعد أن تواعدا على التلاقي في الحمام بعد صلاة العصر..

ولم يكن ثمة سبب يدعو إلى إخلاف الموعد أو تأخيره، فما ان حان الوقت المقرر حتى كان الرجلان في صحن الحمام..

وجاء صاحب الحمام نفسه يحتفي بالرجلين . وأشار الأوسطة أحمد عليه بمضاعفة الإكرام للشيخ.. ورأى الشيخ غانم صاحبه يهمس في سمع الرجل، فلم يشك في أنه يوصي به خيراً..

ولم يخب ظن الشيخ فقد لزم الحمامي خدمته، فأعد له مقصورة خاصة، ولفه بأنفس الأقمشة، وأقبل عليه يدلكه بقوة وعناية، كأنما يريد أن يكسوه جلداً جديداً.. حتى إذا استوفى غسله، عمد إلى طبق ذُوب فيه ضربٍ من المساحيق، فجعل يلطخ به لحيته ورأسه، في دقة

وتعميم، ثم قدم إليه طبقاً آخر وهو يقول: إذا تكرمتم دهنتم بهذا شعركم السفلي..

وأسدل الحمامى ستار المقصورة، ليفسح للشيخ مجال العمل، فيؤمن لنفسه الخدمة التي ليس من حق غيره أن يقوم بها.

***

كاد القائمقام يتفجر من الغضب، فقد أرسل بطلب الشيخ غانم مرتين، وانتظره طويلاً، وها هو ذا يوشك أن يسمع أذان الظهر قبل أن يري وجهه..! إنه في البيت، لاشك في ذلك.. وقد أخبره الحاجب أنه كلما سأل عنه في الدار جاءه الجواب عن لسانه بأنه لايستطيع مبارحة البيت!.. وما كان الشيخ ليتخلف عن مجلسه إلا لعذر قاهر.. فما هو عذر اليوم؟.. أهو مريض؟.. أم هو متمارض!..

واستدعي الحاجب للمرة الثالثة.. وجعل يضرب النضد، وهو يصيح بلكنته المضحكة: غانم.. يجب حضوره حالاً.. لاتَؤُدْ إلا به.. فهمت؟؟. لاأقبل أُذراً إلا أن يكون مَريداً.. أو ميتاً..

وأحس الحاجب، وهو يستقبل ثورة القائمقام، كأنه يعاقبه على ذنب غيره، لذلك خرج وفي نيته تصميم على أن لايعود إلا بالشيخ أو بخبره. ولكنه ما كاد يتجاوز الباب إلا قليلا حتى عاد وهو ممسك بيد الرجل.. وقال: هاهو ذا ياسيدي.. وستسمعون عذره من فمه..

وألقى الشيخ غانم سلامه على القائمقام في صوت يكاد لايسمع، ودون أن يدنو لمصافحته.. وبدلا من أن يجلس في مقعده المعتاد قريباً منه، وضع نفسه على أول كرسي بجانب الباب، وأطرق جامعاً نظره فيما بين يديه..

على أن الأغرب من هذا كله هو أن لايرى القائمقام من كل وجهه سوي عينيه وأنفه، إذ كان قد تقنع بكوفية بيضاء، أسدلها من فوق عمامته، وأدار أطرافها حول عنقه، وتعمد ألا يبدو منها للناظر سوى هذا الذي أظهره!

وشغل القائمقام عن فتوره وتغيير مجلسه وإغفال مصافحته، بهذا التنكر العجيب.. وراح يسأله في لهجة لم تخل من الدهشة: وَلنْ غانم!.. ماهذا الشكل الغريب؟.. لماذا تغطي وجهك هكذا؟!

ولكن سؤاله بقي دون جواب.. فأعاده بصوت أعلى.. وكرره ثالثاً ممزوجاً بشيء غير قليل من الغضب.. فإذا الشيخ يرفع رأسه، وفي أناة ينزع لثامه وعمامته، دون أن يغير اتجاه عينيه، أو يحرك لسانه بكلمة..!

وفوجيء القائمقام برأس كأنه البطيخة المسلوخة.. قد فقد كل أثر للشعر حتى الحاجبين..! فلم يتمالك همهمة طويلة انفرج عنها فمه الذي ظل فاغراً من الدهشة.. وفي غير وعي امتدت يداه إلى لحيته ورأسه، كأنه يتفقد شعره.. ولم يطق احتمال ذلك المنظر فأشاح عنه، وأشار إليه بإعادة لثامه، وهو يقول: وِلنْ.. ماهذا؟!.. من فألَ بك هذا؟!..

وفي بروده المعتاد أجاب: اسأل أحمد..

ــ الأوسطة أحمد!..ــ نعم الأوسطة أحمد ياحضرة القائمقام..!

ــ أهو الذي فأل هذا؟ ــ أو أمر به

ــ وجن جنون القائمقام؛ ونهض ليذرع أرض الغرفة ذهوباً وجيئة.. وهو يصيح: أحمد.. ينتف لحيتك ورأسك..؟! كيف هدث هذا؟!.. ومتي؟... وأين؟!؟..

ــ هو يخبرك بكل شيء.. إسأله إذا أمرت..

ويفتح القائمقام الباب.. ويصرخ بالحاجب: أحمد.. الأوسطة أحمد.. هالاً.. هالاً.!..

وقبل أن يرد مصراع الباب رأى صديقه الآغا يقبل نحوه مجيباً، ثم يصافحه وهو يقول: لاحاجة إلى إرسال الحاجب.. سآتيك بأحمد..

ودخل القائمقام مع صديقه الذي أغلق الباب وراءه.. والتفت إلى الآغا يسأله: أين هو؟.. أريد أن أراه.. الموت لهذا الوَكِه..

وجعل يحرك قبضته في الهواء كأنه يضارب شبحاً غير منظور..

وجلس الآغا وهو يقول: هدىء أعصابك. وستعمل بأحمد ماتريد ولكن الا تسمح له بالدفاع عن نفسه؟..

— دفاء!.. أي دفاء!.. إذا كان هو الفائل فلابد من الأكوبة.. الأكوبة الكبيرة.. هل تألم ماذا أمِل!..

والتفت إلى الشيخ غانم يقول: اكشف.. اكشف ليري الآغا..

وكشف الشيخ.. ولم يتمالك الآغا ضحكة مدوية، وهو يشير إلى الشيخ بستر نفسه.. ثم قال: فظيع حقاً!.. ومع ذلك فمن العدالة أن تسمع دفاعه عن نفسه..

وقال القائمقام: هسناً.. أهضره لنسمأ دفاءه..

— هل أعده بأنك لن تناله بسوء حتى تسمع كلامه!!

— طبأً.. طبأً.. سنصبر هتى نسمأ هجته كلها.. أفندم...

وغادر الآغا حجرة القائمقام دون أن يغلق بابها.. وما هي إلا دقيقة حتي عاد ومعه الأوسطة أحمد، يمشي وراءه في حالة أقرب إلى الخوف..

والقى أحمد تحيته.. وحاول أن يقبل يد القائمقام.. ولكنه لم يسمع رداً على تحيته.. وسحب القائمقام يده فلم يمكنه من تقبيلها.. ودون أن ينظر إلى وجهه خاطبه في نبرات كأنها فرقعة السوط: «.. إنت نتفت لهية الشيخ غانم ورأسه؟!.. ولماذا؟.. كُلْ هالاً.. لماذا؟!..»

وتكلم أحمد في إصرار: معاذ الله!.. أنا أفعل ذلك!..

ووجه القائمقام كلامه إلى الشيخ: أليس هو؟..

قال الشيخ وهو لايزال مطرقاً: هو الذي أمر بذلك..

ويصيح القائمقام بأحمد: إنت أمرت بذلك..

ــ بالعكس تماماً.. لقد أوصيت به خيراً، ثم حصل الخطأ.. وأي الناس معصوم عن الخطأ!..

وكان لابد من سماع التفاصيل فواصل أحمد كلامه: «.. ولقد أعجب الشيخ بما رآه من خضاب لحيتي ورأسي، وطلب إلى أن أهيىء له مثله، فصحبته إلى الحمام، وكلفت الحمامي أن يصنع له ماصنع لي.. وفي لحظة من الغفلة وقع الخطأ المؤسف، إذ جعل وعاء النتف مكان وعاء الصبغ، وهكذا معط شعره الأعلى، وصبغ شعره الأسفل!.. فكان ماكان!..

ولم يستطع الشيخ إلا أن يفارق رصانته وهو يسمع إلى هذا الدفاع المشبوه، فقال: هذا غير معقول.. غير معقول أن يكون خطأ.. إنه مؤامرة متعمدة، ومتفق عليها!..»

وصاح القائمقام أيضاً: هذا غير ممكن.. مستهيل أن يكاء هذا بتريك الخطأ..

وأصر أحمد على زعمه، وراح يماحك: «وأي غزابة في هذا.. مادام جبريل نفسه يخطيء..؟!» وهنا هب القائمقام واقفاً يصيح: اخرس.. هذا كفر.. جبريل يخطيء؟!

وكأن أحمد قد وجد في الاستنكار فرصته المنشودة فاندفع يقول في حماسة: «.. ليس هذا كلامي. أنه رأي الشيخ غانم نفسه.. إنه يؤكد لي دائماً أن الله قد أرسل جبريل إلى علي ولكنه أخطأ فسلم الرسالة إلى محمد!..»

ويلتفت إلى الشيخ غانم: «أليس هذا كلامك ياسيدي الشيخ؟!..»

وساد الجو صمت ثقيل جائر.. لم يلبث أن قطعه صوت الأوسطة أحمد كرة أخري: «.. إذا صح أن جبريل قد أخطأ في أداء الرسالة، فلماذا لايحق للحمامي أن يخطيء في تعيين الوعاء!..»

والظاهر أن دفاع أحمد كان مقنعاً مفحماً، فلم يجد الشيخ غانم مايقوله.. واعتبر سكوته إقراراً بأن القضية كلها خطأ في خطأ...!

***

اللهم لك الحمد

حدث هذا في أحد الأيام من عام ١٩٢١ وفي مدينة بانياس الساحلية... كنت إذ ذاك في الثالثة عشرة من سني، ومع ذلك لم ير والدي مانعاً يحول دون إرسالي إلى ذلك البلد، الذى كان من أخطر مناطق الأعمال الحربية التى تدور بين الثوار ومرتزقة الفرنسيين... وكانت مهمتي في هذه المغامرة تسقط أخبار جدتي العجوز، التي لزمت مع بعض الأسر في قلعة المرقب مساكنها، على الرغم من الرعب الذى يثيره من حولهم صباح مساء أزيز الطائرات، ودوي القذائف التي لا تكاد تسكت...

كانت جدتي أول الأمر قد تأخرت مع ولديها الفتيين لجني المحصول، ولكن القدر سرعان ما حال بينها وبينهما، إذ سقطا في يد الحملة الفرنسية، بينما كانا في طريقهما إلى إحدى القرى القريبة.. وبذلك لبثت وحدها معرضة لمختلف الأحداث، وهذا ما شغل بال والدتي، وأقلق خواطر الجميع، فلم يكن بد من السعي لا ستنقاذها بأية وسيلة، وقد وقع الاختيار علي لأن صغر سني كفيل بأن يصرف عني الشبهات فيجعلنى في مأمن من مراقبة الفرنسيين الذين لن يمنعوني من التجول بين بانياس والقلعة عندما يتاح لي ذلك...

وأقمت في بانياس أياماً عند أقرباء والدتي، وكثيراً ما دفعني الفضول إلى التغلغل في منطقة الميناء، حيث تفرغ مشحونات الجيش الفرنسي من البواخر والسفن.. ولم أجد صعوبة في التتبع لأخبار جدتي، ومعرفة أوضاعها عن طريق بعض النساء اللواتي يترددن لأمر ما بين

القلعة والمدينة في مختلف أوقات النهار، وكدت أنجح في التسلل مع بعضهن إلى القلعة ذات صباح لولا ذلك الأزيز الهائل الذي فاجأ أسماع الناس في بانياس، منطلقاً من مئات البنادق، وعشرات المدافع، وبعض الطائرات...

وتسرب الهمس في كل مكان: أن الثوار يهاجمون القوى الفرنسية.. وقد بوغت بهم العدو على مشارف البلد...

وما لبثت أن أبصرت إحدى الطوائر تدور على نفسها قادمة من ناحية القلعة، وقد اندفع من أحد جانبيها الأغبرين سيل من الدخان لم يلبث أن استحال ناراً لاهبة.. ثم رأيتها تهوي متأرجحة على بعد غير كبير من طرف المدينة الجنوبي...

وتتابع القذف من هنا وهناك.. وكانت الشوارع قد خلت من المارة.. ورأيت جماعة من الجنود ينطلقون على غير هدى، ويطلقون نيران بنادقهم دون هدف...

ويبدو أن الثوار لم يكونوا مصممين على احتلال البلد، أو على الأصح لم تكن لديهم القوة العددية الكافية للاعتصام بالبلد، لذلك ما لبثوا أن انسحبوا من حيث أتوا، بعد أن أوقعوا في قلوب عدوهم دفقة من الذعر لا ينساها.. وحملوا ما استطاعوا من أسلحته ومؤنه.. وفي مساء ذلك اليوم سمعت عم والدتي الشيخ العجوز يقول لزوجته: هل علمت أن (مصطفى ليلى).. قد سقط أسيراً في أيدي الفرنسيين!! لقد نفدت ذخيرته، ولم يبق في البلد سواه من المجاهدين، وكان على أبواب السجن يريد إطلاق من فيه عندما دهمه العدو وأودعه السجن.. وتمتم الشيخ وزوجته في ضراعة عميقة: اللهم احفظه...

ولقد استغرقني يومئذ شعور حار بالعطف على ذلك الأسير البطل.. وأحسست بلهفة قلقة لمعرفة مصيره، ولم يكن في وسعي أن أصنع شيئاً له سوى الدعاء كل صلاة: اللهم احفظه...

وكان تطور الأحداث أثر ذلك قد قضى على أملي في الاتصال بجدتي العجوز، ولكنني أصبحت مطمئن القلب عليها، إذ علمت أنها انتقلت من القلعة إلى دار ابنتها الثانية في قرية البساتين، وهي القرية التى يحميها من الفرنسيين كونها مقر أسرة آل (أ..) التي عرفت بإخلاصها لهم، وتفانيها في الذود عن مصالحهم منذ وطئت أقدامهم هذه الأرض، ولهذا كان علي أن أغادر بانياس بعد أن استنفد وجودي فيها غرضه، وانتهزت فرصة مرور إحدى السفن الأروادية بميناء بانياس وكان ربانها من أقرباء والدي، فأخذت منها مكاناً إلى طرطوس.. وبذلك فقدت كل أثر لأخبار ذلك الأسير.. ثم درجت الأيام والأعوام على ذا كرتي فلم يخطر ذكره في خلدي قط إلا حين أيقظه حديث صديقي البانياسى بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ...

***

وكان صديقي حي الخيال، دقيق الوصف، تخير لحديثه طريقة العرض القصصي، فردني إلى الجو نفسه الذي عشته تلك الأيام...

قال صديقي البانياسى:

.. كان الفرنسيون قد احتلوا دار جدي ليجعلوا منه مقراً لقيادتهم، وهي مجاورة لدارنا كما تعلم، فأتاح لي ذلك أن أتعرف الكثير من أنبائهم، وأعقد بعض الصلات مع أكثر من واحد من الجنود المغاربة، الذين يقومون على حراسة المقر...

وقد تجرأت يومئذ على سؤال أحد هؤلاء المغاربة عن مصير الأسير (مصطفى.) فهمس في أذني: أنه هنا في إحدى غرف الدار.. أمر القائد الفرنسي بنقله إليها حرصاً على بقائه.. وليتخذ منه وسيلة للضغط على الثوار...

وأخبرني الجندي أنه هو المكلف بحراسته.. والعناية بأمره، ولكي يرضى فضولي راح يؤكد لي أنه يوفر له كل ما يسعه من الرعاية، فقد حل وثاقه، وجعل يشاركه بطعامه، ويقدم إليه الشاي والقهوة والتبغ.. وحتى الماء للوضوء.. ولا ينسى أن يؤكد بضرورة الكتمان لذلك خشية تسرب الخبر إلى القائد.. «الحلوف» كما سماه...

وكان الحاجز بيننا وبين دار القيادة جداراً تجلله فروع الياسمين والنسرين، فلم أستطع منع نفسى من التطلع بين الحين والحين إلى فناء القيادة من خلال تلك الفروع، رغبة في رؤية ذلك الأسير المغوار.. ولكنه كان محجوباً عن عيني في حجرة جانبية أحكم إغلاقها، وسدت نوافذها، فما يتاح لأحد أن يطل على جوفها إلا ذلك الجندي الموكل به...

حتى كانت ذات ليلة... وقد قارب فجرها أن يلوح... فإذا نحن بطلقات رشيش تتعالى من البستان المقابل... تؤازرها طلقات بنادق متقطعة هنا وهناك... ولم أعد أطيق لزوم الفراش فتسللت من خلف والدي إلى فضاء المنزل، ثم أخذت أتابع من خصاص الباب حال الجنود، الذين كانوا في حركة دائبة، يتجمعون ثم يتفرقون... وسمعت أحدهم يهمس إلى آخر: وكيف استطاع الهرب؟...

وهنا أدركت أن الأسير قد فر من محبسه، وأن الجنود يطاردون برصاصهم الفضاء إرهاباً... فشعرت بمزيج غريب من البهجة والحزن والخوف... ثم رحت أتابع حركاتهم في حذر بالغ، وما هو إلا يسير من الزمن حتى بصرت بالجندي المغربي «خليل» في حراسة عدد من مرتزقة الفرنسيين يقتادونه إلى دار القيادة... وقد أمسكوا بيديه، وأحاطوا به من كل جانب...

وتسلقت السلم المسند إلى الجدار في كثير من التؤدة، ودسست رأسي خلال فروع الياسمين... وجعلت أضغط على أنفاسي، فلا تتسرب إلا في أقل ما يمكن.

وفي سرعه كبيرة... أخذ القائد الفرنسي مكانه على مقعد خلف منضدة أحضرت لتوها من داخل البناء، وأوقف الجندي المسكين تجاهه... في وسط نصف دائرة من الجنود الشاكي السلاح...

وارتفع صوت القائد، ثم أعقبه المترجم يقول: بسرعة تكلم... لم أطلقت (الشتا)؟......

وفي نبرة يمزقها اليأس والاستسلام تكلم خليل: لم أطلقه... ولم أنتبه إليه إلا وهو يتسلق الجدار الخارجي... فحركت زناد البندقية لأطلق النار فوق رأسه... ولكن الرصاصة لم تنطلق... وهرعت وراءه وأنا أحرك الزناد... دون جدوى...

وبالطبع لم يكن (الحلوف) راضياً عن هذا الدفاع، فسمعت وقع أضراسه وهو يضغط عليها من الغيظ... ثم أخذ يتكلم... وإذا الترجمان ينقل حكمه إلى الجندي المسكين قائلاً: أن القائد قرر أن تطلق عليك عشر رصاصات من جعبتك نفسها... وسيتضح حينئذ مدي صدقك فيما زعمت...

ولم يمهل القائد فريسته... فإذا هو يقف ليصدر أوامره... وما هي إلا لحظات حتى كان خليل مشدوداً إلى شجرة الأزدرخت المواجهة لي... وعشرة من الجنود يسددون إليه فوهات بنادقهم التي حشيت بعشر من طلقاته...

وكان الفجر قد بدأ يرسل خيوطه الكاشفة على الأفق، فتتلاشى أمامها أكداس الظلمات... ورأيت وجه خليل شاخصاً إلى السماء، وهو يتمتم بالشهادتين... ثم سمعت صوته يتدافع في مثل حشرجة المحتضر ليقول: اللهم رحمتك...

وهنا أحسست أن الجدار يميد بي، وكأن رجلي قد شلتا فلم تمكناني من الهبوط... فأغمضت عيني في ذهول موجع... وتراءى لي أنني في حلم مزعج... ثم خيل إلى أنني أسمع من خلال ذلك الحلم صوت (الحلوف) يهتف في وحشية رهيبة: (أتاش)

وأعقب ذلك دفقة من الصدمات الحديدية الجارحة... إلا أنني لم أسمع قط أي أثر للانفجار...!

ووجدتني أنفض رأسي، لأستوثق مما أرى... ثم أرسلت بصري من خلال الفروع كرة أخرى، أدقق النظر في أجزاء المشهد... وشد ماسعدت عندما رأيت الحلوف يصدر أمره بالإفراج عن خليل... ثم رأيت هذا ينزلق إلى الأرض، وقد عجزت قدماه عن حمله، وأهوى بجبهته ساجداً على التراب، وهو يقول: اللهم لك الحمد...!

.. وكنا مأخوذين بقصة الصديق، فإذا نحن ننسى مابيننا وبين الحادثة من حواجز الزمن، فنردد مع خليل في خشوع فطري حار: «اللهم لك الحمد...»!



أبو أسعد

أدركت أبا أسعد في الثمانين من عمره .. وما أذكر بالضبط السبب الذي كان يجعله يكثر من التردد على حانوتي ، ولكني أرجح أنه يعود إلى الفراغ الذي كان يثقله ، فهو لايجد في بيته الصغير أحداً يقضي معه الوقت سوى امرأته العجوز التي شارفت سنه ، بل بدت كأنها أوغل منه في السنين ، بتلك الانحناءة الحادة التي تجعل من هيكلها شبه زاوية قائمة ... بينما هو لايزال محتفظاً بانتصاب جسمه لم يعتره الانحناء قط ، ولعل مرد ذلك إلى قصره الذي ماكان ليتسع للانثناء .. فهو فيما أذكر لايتجاوز في الامتداد المتر والنصف ... وما أحسب وزنه يزيد على الخمسين كيلا ... وإذا صدقنا ادعاءه كان علينا أن نحكم بأنه كان أكثر امتداداً وأثقل وزناً ، ولكن كبر السن وهموم الدهر — كما يقول — أكلت من طوله وعرضه ولحمه حتى انتهت به إلى هذا الوضع ! ...

ومهما يكن من شيء فإن خفة لحمه ، وقماءة جسمه قد حفظتا له الكثير من الرشاقة والصحة ، فإذا مشى لم يجد مايثقل خطوه من لحم أو عظم ، وكأن ابن الرومي لم يصف غيره عندما قال :

أنا من خف واستدق ، فما يثقل أرضاً ولا يسد فضاء !

وإذا نظرت إلى ذلك الانسجام الماثل في تقاطيع وجهه قطعت بأن الرجل لم يكن رديء المنظر أثناء شبابه .. بل إنك لتتبين في لونه القمحي الصافي ، وفي عينيه السوداوين الصغيرتين إلى حد مقبول ، وفي لحيته المدورة التي لايبرح السواد غالباً على أكثرها ، مايوحي إليك بأن وراء ذلك كله قلباً على شيء غير قليل من الطيبة والبساطة النقية من كل أثر للخبث ...

وقصارى القول : أن النظرة الأولى إلى شكل أبي أسعد في سراويله القصير وكوفيته المشدودة حول رأسه بغير عقال تعرفك أنك تلقاء (عامل منته) من مخلفات الجيل الذي سبق القرن العشرين إذا صح هذا التعبير ... على أن ثمة صفات أخرى تميز أبا أسعد عن أقرانه من العمال ... إنها بقية من آثار الفتوة التي كانت موضع تنافس الشباب في الجيل المنقرض .. الفتوة الخاصة بما قبل القرن العشرين ، أيام كان أكبر مميزات (القبضاي) الإقدام على الضرب والسطو .. وجرأة الليل التي لاتهاب شيئاً ، مضافاً إلى هذا وذاك التفاني في خدمة البيك أو الأغا ...

وكأن أبا أسعد كان يستشعر روح الغربة عن المجتمع الذي انتهى إليه ، فلا يجد مندوحة عن تقديم المسوّغات لبقائه حتى هذا اليوم ، وبأي شيء يتشبث سوى الحديث عن ماضيه في البطولة والقوة والنشاط الخارق ! ... وغالباً ماكان يسمعني حديثه المكرور هذا وهو يضغط على راحتي بكفه الصغيرة التي احتفظت بشيء غير قليل من القوة ، ليقدم من شدة أصابعه دليلاً على صدق مايذهب إليه .. على أنني كنت أسمح لنفسي في بعض الأحيان أن أقابل ضغطه على كفي بضغط مثله أبذل فيه كل ماأملك من قوة شاب في الثامنة عشرة .. فيتمالك ويصابر حتى يخونه الصبر ، فيقطع تبجحه ليقول في ضراعة المغلوب العاجز « دعني .. بالله عليك .. ! وفي هذه الحالة لايجد عذراً للاستمرار في الحديث والبقاء على مدخل حانوتي ، فيحرك عصاه .. ويأخذ طريقه محزوناً إلى البيت أو ناحية المسجد ...

والتنافس بين الأشباه ضرب من قانون التضاد الذي ينهض على أساسه كيان الطبيعة .. فكما أن لكل سالب موجباً من نوعه تتم بهما مهمة الأحياء ، هكذا يعيش الناس في صراع من التنافس لاينتهي ، لأن نهايته نذير بنهاية الطاقات الحية نفسها ...

والفتوة نفسها أحد مجالات التنافس بين أصحابها ، سواء كانوا من أهل القمة ، أو سكان الحضيض .. فلا عجب والحالة هذه أن نجد لأبي أسعد منافساً من طرازه ، ولكن الطّريف في الموضوع أن يتخلف هذا المنافس عن قافلة الماضي ليستمر إلى جانبه ، يجابه كل منهما التبجح من صاحبه بتبجح أكبر ، ويعقب كل حادثة يرويها عن نفسه بتصحيح لها أو تكذيب .. وكثيراً ماكان الناس يتجمعون حول أبي أسعد ومنافسه أبي فريد ، يستمعون إلى مبارياتهما الممتعة في كثير من الرضا ... وقلما تخلو حلقة ممن يحسن إذكاء الفتنة بين المتنافسين ، فيضفي من تعليقاته على الموضوع مايثير أعصابهما معاً ، فإذا هما يتصايحان ، ثم يثب كل منهما متجهاً بعصاه نحو الآخر يريد أن يؤكد تفوقه بالبرهان الذي لايرد .. فيرى الناس بذلك صورة من معارك الديكة ، يزحف فيها الواحد نحو الآخر منتفش العُفرة ، منتصب العرف ، حاد الصوت .. إلا إنهم لايسمحون للرجلين بالوصول إلى التشابك اليدوي ... والشيء الذي يلفت النظر أن أبا أسعد كان في هذه المعارك يمتاز على صاحبه دائماً بحرارة الاندفاع ، ومحاولة الإيذاء الجدي .. بينما يبدو أبو فريد أكثر تحكماً في أعصابه ، يلوح بعصاه عن بعيد دون أن يتقدم خطوة للمعركة ... ! وكان معظم نقاشهما محصوراً في موضوع الرسائل ... فأبو أسعد — مثلاً — يؤكد أنه هو الذي حمل رسالة البيك من طرطوس إلى طرابلس فسلمها إلى المتصرف بيده خلال يوم ونصف فقط ، على الرغم من الأخطار التي كانت تحدق بالمسافرين أثناء ذلك .. ويردُّ أبو فريد بأنه هو صاحب هذه المأثرة ، وأن أبا أسعد أعجز من أن ينهض بتلك المهمة التي لايطيقها إلا ذوو الشهرة من الشجعان .. ثم لاينسى أن يتهم صاحبه بفقدان الذاكرة من أثر الخَرف ، ويتمنى لو أن أحداً من الجيل الماضي قد ظل إلى اليوم ليسمع الناس شهادته في هذه القضية ...

على أن موضوع الخرف بالنسبة إلى أبي أسعد لاأزال أراه محل نظر ... فأنا لم ألحظ عليه قط أي دليل على فقدان الذاكرة ، أو

التخليط ، وإذا كان كمنافسه غير محسن ترتيب أفكاره في معارك الجدل فمرد ذلك إلى نشأة الرجل الذي قضى معظم سنيه في نطاق الأرض ، وحراسة حقول البيك .. وتنفيذ مطالبه .. ثم لم يعرف شيئاً خارج ذلك النطاق إلا بعد انقطاعه — بسبب شيخوخته — عن ذلك المجال ... ولعلك لاتغالى إذا قلت ان أبا أسعد كان محبوساً كل تلك السنين في حدود عمله وبيته ، حتى لايكاد يعلم ماذا يجرى خلف أسوار الساحة العامة من طرطوس ، لولا مايتلقاه سمعه من أخبار الناس هناك على ألسنه العائدين من الساحة ... فكأنهم بنظره عائدون من سياحة في مواطن تغريبة بني هلال ... ولما دخل الساحة لأول مرة بعد تركه العمل لم يستطع التخلص من شعور الدهشة الذي طغا عليه أمام سعتها ، وما يحيط بها من شاهق الأبنية .. ولعله بدافع من هذه الغبطة الرائعة بتلك المناظر أصبح يكثر من التردد على هذه الساحة ، ويقصد مسجدها للصلاة .. التي لم يدعها منذ انقطاعه عن العمل .. وبالطبع لم يخل ذلك من إيلام له ، إذ وجد فيه منافسه أبو فريد مجالاً جديداً لإثارته ، بما راح يشيعه عن لسانه من أ[illegible]ال تسجل إعجابه البالغ بهذه الساحة ... مما يؤكد أنه لم ير طرابلس قط ، ولم يسمع شيئا عن برج الساعة الكبيرة الذي يمتد إلى مقربة من السماء في ساحتها التي تشبه الجنة!...

وطبيعى أن شيئاً من ذلك لاينهض دليلاً على خَرف أبي أسعد .. وكل مايمكن الاستناد إليه في توجيه هذه الصفة عليه هو ادعاؤه صراحة أنه هو مؤلف سورة (الكوثر)... صنعها (من دِهن باله) على غير مثال سابق.. وقد سمعته يؤكد هذا الادعاء مرة بعد أخرى، وأغلب ظني أن الرجل قد بوشر بتحفيظه هذه السورة في أعماق طفولته ثم نسي كيف دخلت ذاكرته ، حتى ظنها من عمل تلك الذاكرة ... وقد أتيح لي أن أصلي بجانبه ، فكنت أسمع منه كلاماً عجيباً لاأفهم منه غير قوله : سبحانك ياديم ... فإذا سألته بعد الصلاة عما يقول أبى إعادته ، وأصر على أن لديه من المعرفة مالا تتسع له عقولنا الصغيرة جداً ! ...

وظاهرة أخرى لاأدري كيف ينبغي أن أحكم عليها : أهي خرف أكيد ... أم هي نتيجة تفكير بعيد ! ...

إنها ظاهرة الثورة بمظاهر المدنية الجديدة التي بدأت تتسرب إلى البلد مع هؤلاء المحتلين من الفرنسيين .

كان يرى أفواج العمال تقوم بهدم الأزقة الضيقة تحت إشراف أحد المهندسين الأجانب ، فيجن جنونه ، ويهاجم بعصاه العمال والمهندسين ورجال الشرطة الذين يحرسونهم ... وعبثاً يحاولون إفهامه أنهم يبتغون بذلك الهدم إيجاد شوارع عريضة مزفتة تجمل المدينة .. وتريحه من الغبار والعثار ... فلا يزداد إلا حماسة لأفكاره ، ويعتبر من واجبه الدفاع عن حقوق أولئك المساكين أصحاب الدور بعد أن جبن الناس عن القيام بهذا الواجب ! ...

وما أن فرغ العمال من الهدم والتعبيد والتزفيت حتى ظهرت تلك العجلات الخبيثة التي تنتقل فوق هذه الشوارع دون دابة أو مساعد خارجي ، فتملأ بدويها الآذان وتشحن برائحتها الكريهة الأنوف .. ورأى الناس والدواب والكلاب يفسحون لها كلما أرسلت زعيقها المزعج بإنذارهم ، فلم يجد لذلك من تفسير سوى أنهم يفرون من مواجهتها خوفاً ورعباً ، لذلك كان عليه أن ينهض وحده بما عجز عنه الجميع ، فإذا هو يهاجم كل سيارة تمر به ، ولا يتهيب أن يثب لمواجهتها وضرب زجاجها بعصاه ... حتى أصبح السائقون يتحاشون جهدهم سلوك الشارع الذي اعتاد المرور فيه ، خشية الفتنة التي لاتعدم وقودها بين الناس ...

ولعل أشد الظواهر الجديدة إثارة لأعصابه مشهدان اثنان .. أحدهما أولئك النساء الأجنبيات ، وهن يقطعن الشارع وفي أيديهن سلاسل الكلاب تزاحم الناس على الطريق ، أو تدخل الحوانت معهن فتداعب بأنوفها النجسة معروضات الباعة من كل ملبوس ومأكول ... فإذا هو يغلي كالمرجل ويندفع لضرب هذه

الكلاب ولشتم هؤلاء النسوة اللواتي لايستحين من إظهار شعورهن المجزوزة على الشكل المقرف الذي يشبه جمة الأطفال ! ...

أما المشهد الثاني فهو تلك (البرانيط) المقببة ، أو المقعرة السطح ، أو المثنية لأعلى ، التي بدأت تطل في بعض هذه الشوارع الجديدة على رءوس هؤلاء الملاعين من الأجانب .. فلا يتمالك أن يحذفها بعصاه عن قرب أو بعد ، وهو يصرخ بأعلى صوته : الله يذلك يافرنسة ! ...

ولكن تيار التغير الاجتماعي مالبث أن غلب أبا أسعد ، فإذا هو يرى بعيني رأسه كثيراً من مظاهر الماضي تتوارى لتحل مكانها أشياء جديدة مامرت قط في وهم واحد من أبناء جيله .. وكان أسرع هذه الأشياء بروزاً ذلك الثوب الفرنجي الذي أخذ يحتل مكان السراويل الواسع ذي الثنيات الكثيرة الأنيقة ، والصدار المخملي ذي العرى الدقيقة ...

وقبل الاحتلال الأجنبى لهذه البلاد لم يكن للثوب الفرنجي من مكان في طرموس إلا على أجسام (الضبطية) من رجال الحكومة، واثنين من أهل البلد ، أحدهما ذلك البيك الذي مر ذات يوم على إحدى مدارس استنبول أو بيروت ، والثاني هو جابي البلدية الذي كثيراً ماتجمع حوله الأطفال يتفرجون بمنظره غير المألوف ، وهم يهمسون باسمه (المنوق) .. ذلك الاسم الغريب الذي اخترعه بعض الساخرين تعبيراً عن نفرتهم من منظره ! ...

وكدأب أبي أسعد لايكاد يلمح ذلك الثوب على إنسان حتى يصرخ به في نغمة موزونة : « يالابس المصران ... الله يهدلك ... »

ولا أزال أذكر تلك اللحظة التي فاجأ بها صديقاً لي ، وقد تهيأ للسفر ، فارتدى ثوبه (الفرنجي) الجديد ، وطوق عنقه بتلك الربطة النفيسة ، التي بذل جهداً كبيراً حتى أحسن عقدها ... فإذا يد حديدية تطبق على الربطة ، وأخرى على مقدمة السترة ، وصوت أبي أسعد يرتل : الله .. الله ياقطيطة .. ماناقصك إلا البرنيطة ... » !

وكان مستحيلاً أن يرفع قبضتيه عن موضعهما إلا بعد عراك ترك في الربطة والسترة تلفاً لايمكن إصلاحه . على أن الشيء الذي من شأنه أن يعزي أبا أسعد هو أن هذه الظواهر التقليدية الغازية قد بقيت محصورة حتى يومه ذاك ضمن نطاق الغرباء من الموظفين في الغالب ، ولم يستجب لها سوى الأقل من تلاميذ المدارس الجديدة . وبعض الرقعاء من أبناء (الكبار) ! ...

فالطربوش بحمد الله لايزال هو غطاء الرأس الذي يميز أهل اليسار من المدينة .. ويبقى للآخرين من العمال وأهل القرى تلك الأغطية البلدية الأخرى من اللبادة ، والكوفية عليها العقال أو الكوفية وحدها . وبذلك ظلت (البرنيطة) حتى أيام أبي أسعد وبنظره شعار الكفار من أهل الغرب الذين ليس أبغض إلى قلبه من رؤيتهم ...

ولا حاجة للتفصيل في شأن المرأة .. فهي حتى ذلك اليوم لاتزال في خدرها لاتغادر بيتها إلا لضرورة قاهرة ، وفي جلباب فضفاض لايدع للعين الفاجرة أن تتبين فيها موضعاً أو شكلاً ... وهي إلى ذلك في بحبوحة من الحياء يجعلها تنسل إذا مرت كالطيف كي لايشعر بها أحد فلا حس ولا صوت ولا لغو ... يستوي في ذلك المرأة المسلمة وغير المسلمة ... وحسب المرء أن يرى امرأة تشذ عن هذه الحشمة حتى يدرك أنها وافدة من وراء البحر .. حيث لايقام لهذه الفضائل المقدسة من وزن !

ومن هنا كان أبو أسعد صورة متحجرة من المفاهيم القديمة لايقبل أي تبديل أو تعديل .. بل كأنه مسئول عن حماية هذه المفاهيم فهو لايطيق صبراً على رؤية مايعارضها .. ويعتبر كل مظهر شاذ عنها عدواناً على رجولته لايتمالك بإزائه إلا أن يهيج كالثور عندما يلوّح له المصارع بالخرقة الحمراء ..

* * *

وتكاثرت اعتداءات أبي أسعد على البرانيط وزجاج السيارات ، وكلاب الأجنبيات ، وحدثت أكثر من فتنة صغيرة بسبب ذلك .. فقد حاول بعض السائقين الانتقام بانتزاع عصاه وتكسيرها ، ولكنهم فوجئوا ببعض أقربائه يحمون تصرفاته بكل ماأوتوا من قوة ... لأن كل تقيد لحريته بنظرهم اعتداء صارخ على أهل قرباه جميعاً ... وحاول بعض المتبرنطين الدفاع عن حقهم في المرور من منطقته فلم يكن حظهم أقل سوءاً .. وطبيعي أن تصرفاً كهذا لايمكن أن يرضي جميع الناس ، فكان ثمة ناقمون يريدون أن يحدّوا من هذا الشذوذ لولا خشيتهم أن تتطور الأمور إلى أسوأ من ذلك .. فسكتوا مكرهين واكتفوا بأن يستعدوا عليه السلطة فهي وحدها القادرة على حمايتهم من عصا أبي أسعد .. ومَن وراءه ...

وانتهى الأمر بالفعل إلى القضاء ... ووجد (حاكم الصلح) نفسه تلقاء ثلاث من الدعاوي ضد أبي أسعد ، اثنتان منها قدمهما سائقان كسر أبو أسعد لكل منهما زجاج سيارته الفورد ، والثالثة من طبيب القضاء الذي يتهمه بأنه ضرب قبعته بعصاه دون سبب فأطارها عن رأسه في الشارع العام ، وأصاب جبهته بجرح ، ولولا حسن الحظ لأحدث في عينه مالا تحمد عقباه ! ...

وفي جهد جهيد ، وبعد كثير من التحايل استطاع اثنان من الشرطة أن يأخذوا بصمة إبهامه على مذكرات التبليغ ...

وجددت المذكرات كرة بعد أخرى ... وغاب أبو أسعد عن جميع الجلسات حتى أصبح لزاماً إحضاره إلى المحكمة بقوة الشرطة .. وهناك حدثت المعضلة التي لم تحل إلا بعد شياط ومياط .. فلقد دُعي أبو أسعد لمرافقتهم بالسيارة فأبى .. وهاجمهم بعصاه ، وهو يرتجز بعض أغاني أبي زيد .. وازدحم النظارة يشهدون المعركة في انطباعات مختلفة ، ولم يكن يمكن إدخاله السيارة إلا بعد انتزاع عصاه ، وحمله بالقوة ... ثم لم يكن داخل السيارة أقل ثورة

منه خارجها .. إذ كانت المرة الأولى التي يطأ فيها عجلة تتحرك بغير دابة أو دافع خارجي ، فكان من الطبيعى أن تركبه الأوهام ، وتتنازعه أسوأ التصورات ... وهكذا لم ينته إلى فناء المحكمة إلا بعد العناء الكثير ...

وتلقى سؤال القاضي عن اسم أمه بعاصفة من الزعيق ، والدعاء على فرنسه وأتباعها. ولم ينتظهر بقية الأسئلة إذ رأى غريمه طبيب القضاء يقف إلى الجانب المقابل وعلى رأسه قبعة جديدة لم تكن أقل إثارة له من سابقتها ، فإذا هو يلتفت إليه .. ويخاطب القبعة في تنغيم : الله يذلك يابرنيطة .. » ثم يختم أنشودته ببصقة غير صغيرة يحاول أن يلصقها بها .. ولكن قوته الدافعة كانت أضعف من ذلك ، فاذا هي تسقط في الطريق ، فتستقر على سترة الطبيب الشاكي في موضع العروة تماماً ! ...

وضجت القاعة بالضحك تنفجر عنه حلوق النظارة ، الذين ضاقت بهم جوانب القاعة ، فانتشروا في باحة السراي يشرئبون باعناقهم للاستمتاع بهذه الدعوى الفريدة !

وبات متعذراً الاستمرار في المحاكمة إلى أبعد من ذلك ... فإذا القاضي يقرر المذاكرة فتخلو القاعة بسرعة .. وما هي سوى دقائق حتى يعود المجلس ، ويعلن القاضي حكمه بعدم مسئوليته بالنظر لحالته العقلية ...

وعاد يومئذ أبو أسعد إلى بيته شامخ الأنف يلاحظ الجمهور الذي يحيط به في اعتزاز المنتصر .. وهو ينشد بين الحين والآخر : الله يذلك يافرنسا .. ويذل معك البرنيطة ... »

★ ★ ★

الحــــاج فتـــحي

كان واحداً من أترابي في مكتب الشيخ مصطفى، نتلقي معاً مباديء القراءة ... ولا أزال أتذكر جيداً مدى التفاوت بينه وبين أكثرهم من الناحية الخلقية ... كان هؤلاء خليطاً من أنواع شتى، فيهم أبناء الأوساط الذين يعلمون أبناءهم إعداداً لهم، لمعاونتهم في أعمالهم التجارية أو الزراعية أو الصناعية. وفيهم أبناء (الذوات) الذين يرسلون إلى الكتاب للترفيه ولتخليص المنزل من إزعاجهم ... ومن هنا كان الفرق واسعاً بين هؤلاء وأولئك في مجال الإجتهاد والنجاح ... إذ قلما تجد واحداً من هؤلاء المدللين فد ذكر بين المتفوقين ... لأنهم واثقون من كونهم غير مسئولين عن أي تقدم أو تأخر ...

ولم يكن فتحي ليختلف عن أقرانه أبناء (الذوات) في شيء، اللهم إلا تلك الخلال النظيفة التي تجعله كالزهرة في الصحراء ... إنه بالغ الرقة، مسرف الحياء حتى لتخاله بنتاً في ثوب صبي ... لايؤذيه شيء مثل تلك الألفاظ الوقحة التي يتقاذفها من حوله أولئك السفهاء من الصغار. وكأن تهذيبه وحياؤه قد أطمعا به الخبثاء منهم، فهم أبداً يحوكون له المقالب وينصبون له الأشراك، فلا يتورعون عن أن يختلسوا بعض أدواته، ويشهدوا عليه عند الشيخ ببعض ما يسيء لكي يتمتعوا برؤيته معلق الرجلين في الفلقة ... هذه الفلقة اللعينة التي قلما تنال غير أرجل الأبرياء، الذين فوض آباؤهم الشيخ بعقوبتهم كما يشاء: فهو يتخذ من تعذيبهم ذريعة لإرهاب الجميع، مستنداً إلى ذلك القانون الذي بايعوه عليه حين أسلموا أولادهم إليه، وهم يقولون: اللحم لك والعظم لنا.

وكان فتحي موقناً ألا سبيل إلي أي إعتراض علي هذا الوضع،لأن أباه يريد له الخير، ولا مطمع بهذا الخير إلا عن هذا الطريق، طريق الفلقة والعصا التي توشك أن تأكل قدميه... ومما يزيد في ألمه واستخذائه هذا البطء الذي يعانيه في فهم الدروس... فهو لايكاد يفقه شيئاً مما يسمع، بل انه ليقرأ السورة القصيرة في متابعة الشيخ، فإذا حاول إعادتها تعثر لسانه، واختلطت عليه الحروف، فما يفرق بين متشابهاتها إلا بشق النفس، وبعد كثير من قرع القضيب... ولذع التأنيب...

ولقد حاول التخلص من هذا الجو أكثر من مرة، وذلك بالهروب إلى القرية، حيث عمال أبيه الزراعيون، ولكن ذلك لم يجد عليه سوى مضاعفة العقوبة، إذ سرعان ما يحمل مكرهاً إلى هذا الكتاب فيحاسب على الدرس والغياب... على أن الفرج قد جاءه أخيراً علي يد والدته التي أشفقت عليه من هذا العذاب وأوعزت إلى الشيخ أن يخفف من شدته عليه، واعتبرت وجوده في هذا الكتاب فترة للراحة لايكلف فيها عملاً فوق طاقته... ومن عجب أن ذلك قد عاد عليه ببعض الذي لم يكن متوقعاً، إذ أصبح يأتي إلى الكتاب بنفسه ودون أي حراسة وبات أسرع فهماً لدروسه، وأكثر عناية بأشيائه... حتى إذا شارفنا مفارقة عهد الكتاب كان له من مباديء القراءة ما يمكنه من فك الخط، وتذكر مقدار غير يسير من القرآن!...

ومرت سنون قطعت ما بيننا من وشائج الطفولة، ثم طلعنا على الحياة من خلال المراهقة، وكان هو قد سبقني إليها... وانتهى بصحبة بعض المغررين إلى وضع مؤلم لايأتلف مع تلك الأخلاق التي عرفتها به..

لقد جرفه وباء الشباب الفارغ فأقبل على الخمر يعبها... ويسرف في عبها حتى صارت به إلى إدمان شديد يهدد حياته بالخطر... وقطع عنه أبواه الخرج الضئيل الذي كانا يمدانه به، رجاء صرفه عن هذه المفسدة، فكان ذلك مدعاة إلى أن يسقط في أشراك

سماسرة الشر، الذين مالبثوا أن راحوا يدربونه علي سرقة محاصيل أبيه ليوفروا له بثمنها حاجته من الخمر ومستلزماتها...

على أن فتحي الذي فقد بهذا الانحراف صحته ووعيه... لايزال يحتفظ بالكثير من خصائصة النظيفة الأولى، فهدوؤه القديم، وبراءته النفسية، وبساطته المميزة التي صاحبت طفولته في الكتاب، هي نفسها التى ساعدت علي دفعه إلى هذا المصير...

إن أسعد لحظات حياته هي تلك التي يخلو فيها بعدد من صعاليك الكأس، حول مائدة مشحونة بمتطلباتها، فيشرب ويشرب إلى ساعة متأخرة من الليل، وتراه خلال ذلك يستمع إلى صخب رفاقه يضجون باللغو أو الخصومة أو الضحك، وهو شاخص إليهم، أو مطرق إلى الأرض لايكاد ينبس بنبت شفة... وكثيراً مايخرج من هذا الصمت إلي البكاء، فيطلق لدموعه العنان، ويرتفع خلال ذلك نشيجه... ثم لايزال كذلك حتي ينعقد لسانه، ثم يغلبه النوم... وهنا تنتهي حفلته ثم ينقل إلى مكان ما ليقضي بقية ليله في غطيط كثيف... فكأنه لايشرب رغبة في اللذة، أو غراماً بالخمر، وإنما يشرب ليقتل شعوراً يعذبه فلا يزال به حتي يغيب عن وجوده...

ومات أبوه... وحاولت أمه تغيير حاله المؤسفة هذه، فعرضت عليه أن يصحبها إلى الحج، فلم يرفض بل لم يكن لديه من الإرادة مايستطيع استعماله في رفض أو رضى، فرافقها إلى الحجاز، ووجد نفسه فجأة معزولاً عن كل مغريات الأمس، فصبر على مضض... وانساق في تيار الحجيج يصلي صلاتهم، ويلبي تلبيتهم، ويطوف طوافهم، ولم يفته أن يدعو لنفسه بالخير والمغفرة، ولكنه لم يستطع مع ذلك أن يطرد من خياله تلك الأطياف التي تذكره بنداماه... وصخبهم، ولغوهم... فيشعر بحاجة لاترد إلي استئناف تلك الأمسيات...

وبعود فتحي وقد ربح لقب الحاج بيد أنه لم يكن يحس له بأي معنى... فما هو إلا أن لقي أصحابه من أولئك الصعاليك حتى انحاز

إليهم يستأنف معهم ماانقطع من حياته الماضية...

***

وكانت صبيحة ثقيلة مزعجة... تلك التي ملأت البلد بأخبار أسوأ الجرائم... ولا شك أن لفظاعة هذه الجريمة أثراً كبيراً فى انتشار أخبارها بسرعة عجيبة على كل لسان...

لقد سمع الناس يومئذ أن أحد السكان قد وجد مذبوحاً في دورة المياة من داره... وأن القاتل أو القاتلين قد نفذوا جريمتهم هناك بكل هدوء، إذ كفئوا ضحيتهم علي حافة المرحاض، فلم يسل قطرة من دمه خارجه... وهذا يعني أنهم كانوا من المحترفين للقتل، لايخافون ولا يضطربون...

وكدأب الناس في مثل هذه الحالة إذ يدعون ظواهر الجريمة إلى البحث عن أسبابها، وتقدير عواملها وبواعثها، فراحوا يستنتجون ويختلقون ويقيسون ويحاولون تذكر ماكان وما عسى أن يكون. وعلى الرغم من أنهم لم يقطعوا بشيء فقد أجمعوا على ربط الجريمة بالناحية الخلقية وحدها...

ولقد سُمع بعضهم يومئذ يهمس إلى بعض: لقد كان المسكين زير نساء، وهو ذو مغامرات كثيرة لابد أن يكون لاحداها صلة بهذه النهاية...

وقال آخرون: ولقد كان شديد القسوة علي زوجته التي هجرها في سبيل مغامراته تلك...

وهنا قال غيرهم: فلماذا لاتكون زوجته وأولادها هم القاتلين إذن !!!

ولكن هؤلاء ما كانوا ليعملوا عقولهم في ما يقولون، ولو فعلوا لذكروا أن أولاد القتيل لايزال أكبرهم في العاشرة... ويستحيل علي امرأته أن تفكر بالقتل، وهي التي عرفها جيرانها كالحمل الوديع...

ولكن المفاجأة الكبري جاءت عصر ذلك اليوم... عندما شاع في البلد أن القاتل قد كشف وأنه هو الحاج فتحي نفسه... مع رجل من عمالهم الزراعيين !!

ولم يكن لدى الناس ما يدفعهم لإنكار هذا الخبر... ذلك لأن الحاج فتحي رجل سكير... وهو ذو قرابة بتلك المرأة التي قيل الكثير عن علاقتها بالقتيل، فما يمنع أن تدفع النخوة بذلك الفتى إلي الثأر لكرامته فيقضي على غريمه!...

ولا حاجة إلى التردد في قبول الخبر... فقد اعترف الحاج فتحي وعامله بالجريمة، وقد قاما بتمثيل دورهما فيها أمام المحققين... وأمام الكثير من المتفرجين...

على أن الموقف لم يخل من بعض الشذوذ، فقد وجد من الناس من يدعو إلي التريث في الحكم علي الحادثة... لأن دركياً قد أسر إليه أن التعذيب الذي صب على الحاج فتحي وعامله جدير بأن يدفع أي بريء لإتهام نفسه بأكبر الجرائم... ويزعم هذا الدركي أنه رأى بعينيه كلاً من الرجلين يخالف الآخر في طريق تمثيله للجريمة أمام المحققين!...

ومهما يكن من أمر، فقد كان في ذكر النخوة والثأر والكرامة، ثم الاعتراف بالجريمة ما يحيط القضية بعناصر مغرية، تجعلها مقبولة في خيال الناس، وإن كانوا كلهم يعرفون حق المعرفة أن الحاج فتحي من الوداعة والغيبوبة في وضع لا يسمح له بالاعتداء علي بعوضة...

ولبث الناس أياماً ينتظرون إحالة القاتلين إلى المحكمة... وتطاولت أعناقهم لمتابعة وقائعها التي يأملون أن تكشف الستار عن الكثير من الأسرار...

وكانت الشوائع قد شرعت تتسرب من دائرة المحقق... فيتلقفها الناس في لهفة، ويأخذون في معالجتها بالمقارنة والتحليل والاستنباط...

ولم تخل هذه الشوائع من بعض الحقيقة، إذ كان المحقق لايزال قلقاً لفقدان بعض الحلقات من سلسلة القضية، وأهمها عباءة القتيل

والساعة والمحفظة التي رئيت معه ليلة الحادثة محشوة بالأوراق ذات القيمة الكبيرة ...

وعبثاً حاول التحقيق إقناع الحاج فتحي ورفيقه بالإرشاد إلى هذه المفقودات، فكل منهما يصر على نفي علمه بها، إلا حين يعرضان للتعذيب فيعترفان ولكنهما لا ينتهيان بالمحقق إلى أي أثر عملي...

***

وذات مساء، وبينما كان المحقق خالياً لنفسه في دائرته يقلب نظره في بعض هذه الأوراق المشحونة بضبوط الدرك، واعترافات المتهمين والشهود...! تفجر جرس الهاتف برنين قطع تأملاته، فتريث ريثما أتم قراءة بعض العبارات، ثم تناول السماعة، وجاء صوت بعيد يقول:

هنا مخفر الشيخ بدر .. رئيس المخفر يتكلم .. ألقينا القبض علي قرويين كانا يقتتلان على أموال وثياب وساعة ...

ولم يستطع المحقق انتظار بقية المحادثة فقاطعه يقول: أبينها عباءة بنية من وبر الجمل؟! موجودة! حسن جداً... أحضر الموقوفين حالاً مع الموجودات في حراسة شديدة...

وفي ساعة متأخرة من الليل صدر الأمر بالإفراج عن الحاج فتحي ورفيقه... إذ وضعت العدالة يدها علي القاتلين الثلاثة، الذين كان على رأسهم رجل من حرس المستشار، هو الذي كلف بتعذيبهما حتى انتزع منهما ذلك الإقرار الكاذب!...

ومنذ ذلك اليوم بدأ الحاج فتحي مرحلة أخري جديدة... ألم يكن على حافة الموت فأنقذته عناية الله!.

إذن فحياته منذ اليوم يجب أن تكون في طاعة الله...

وصحت توبة الرجل... وثبت على العهد حتى ذبالة ذلك الجسد، الذي لم يستطع البقاء طويلاً، بعد أن هدمته الخمرة، وأجهز عليه التعذيب...

فـــؤاد بـــك

كان فؤاد واقفا على زاوية الشارع ذي المفارق الأربعة، وقد ضم ذراعه اليمني إلي صدره، وأسند ذقنه إلي راحته اليسري، وانسرب بصره في ذهول ناحية العمال الذين تجمعوا وسط الساحة ينتظرون من يدعوهم إلي العمل... وكان مشتت الذهن لا يستطيع تركيز نظره علي شيء، ولا حبس فكره فى أمر واحد... حتي لايكاد يعي مكانه ولا غرضه من الوقوف هنا، في هذه الساعة المبكرة...

وفجأة جذب انتباهه الشارد وجه رجل يمر علي مقربة منه... فوجد نفسه يتابعه بنظره، وهو يجتاز الرصيف نفسه. فلما بلغ مكان فؤاد حانت منه التفاتة إليه فالتقت أعينهما... وابتسم فؤاد للرجل، وألقي إليه تحية الصباح... ولكن هذا لم يبد أي اهتمام، وكأنه لم يسمع تحيته فواصل طريقه... وظل فؤاد يلاحقه بنظره حتي رآه يقطع عرض الطريق إلي الناحية المقابلة بعد أن قذف الرصيف ببصقة ذات صوت...

وهنا بدأت ذاكرة فؤاد تتركز... وتتفتق، وأخذت مشاهد الماضي تنتشر أمام عينيه هنا وهناك.. ولم يتمالك زفرة طويلة تدفقت من صدره في مثل حشرجة النزع، ووجد نفسه مضطراً إلي التدخين فراح يلتهم بعينيه أرض الشارع حتي استقرتا علي عقب لايزال يحترق، فدلف نحوه حتى وقف فوقه، ولما أمن أنظار الناس أهوى يلتقطه بسرعة وعاد به إلي مكانه من الرصيف يعب دخانه في شره حاد...

لقد شعر فؤاد أن كل شيء هنا ينظر إليه باحتقار... حتى هذه الزاوية التي تقابله من الرصيف والتي طالما تعثر بها فشتم خالقها وهو سكران يخيل إليه أنها تحدق إليه الآن في اشمئزاز مهين... وأنها تبصق

لرؤيته كما فعل ذلك الصديق القديم الذي أبى أن يرد له تحيته، واستنكف أن يثبت نظره بوجهه ...!

ياللجحود!... لقد تناسى هذا الصديق أكداس المال التي أتلفها فؤاد عليه وعلى أمثاله من رفاق الأمس... الأمس الذي لايسمح لنفسه حتي الساعة بالتنكر له على الرغم من نتائجه التي تغمره اليوم في شقوتها، وكيف يتنكر له وهو لم يذق لذة إلا في لياليه الصاخبة، التي كانت أشبه بمتعة متصلة!... ولعله لو أتيح له العودة إلي مثل تلك الليالي لما آثر عليها شيئاً... وفي نظره ليس هناك أكذب من أولئك الذين يتظاهرون بالندم لانغماسهم في مثل ذلك النعيم بعد فواته وفقدان الوسيلة إليه... ولو هم صدقوا أنفسهم لاعترفوا بأنهم لاينقمون من الحياة إلا فراغها من تلك الفرص الشهية!...

أجل... لقد بعثر ثروته الموروثة كلها في أمثال تلك الحفلات المترفة، التي طالما أعدها لكبار الموظفين وذوي النفوذ من مقيم وعابر...وهو لاينسى أنه كثيراً ما كان يعمد إلي قضاء الأيام المتتابعة في لهو متصل مع أولئك الندامى من رفاق الكئوس، فلا يعود إلى زوجته وأولاده الثلاثة إلا بعد أن تفرغ يداه من المال، فهو إنما يعود ليؤمن منه الزاد الذي يكفي لاستئناف تلك اللذائذ...

ولا جرم أنه يتأذى بل يحترق لنسيان هؤلاء وأولئك قديم صحبته حتى لايجد منهم من يتنازل للنظر إليه .. ولكن ألم ينل كفايته من تقديرهم وتبجيلهم أيام ذاك؟

ألم يكونوا يتسابقون إلى مرضاته وإبهاجه ؟! فماذا عليه إذا هم تناسوه اليوم بعد أن انقطع مابينهم من تلك الروابط !...

إنها طبيعة الحياة... وهي لاتعترف بأية صلة إلا على أساس من المنافع المتبادلة... فليقبل هذه القوانين على علاتها، فذلك خير له وأجدى عليه...

ونحن هل لمثل هذا التفكير أن ينسيه واقعه المخيف... واقع الجوع

الذي سيعانيه وأسرته منذ اليوم!!!...

ولقد استهلكت أرغفة اليوم الخمسة آخر ربع ليرة لديه، من ثمن البلاط الذي اقتلعه من أرض الغرفة... وقبل ذلك باع قضبان النافذتين بعد أن استنفد ثمن الغرف التي باعها واحدة إثر أخري... وبذلك خلت يده من كل وسيلة للحياة، ونفض يده من كل أمل بالحصول على طعام إلا عن طريق العمل الذي مازال يترقبه هنا منذ ساعة...

وضغط براحته على بطنه... وتذكر أنه تردد طويلاً قبل أن يقبل رأي زوجته بالبحث عن العمل، وهو ما كان ليستجيب لها لو بقي أي مجال للرفض أمامه...

ولقد بدأ فؤاد يثق بأن زوجته كانت علي بعض الحق في محاولاتها تلك، ولولا إصراره علي التسليم المطلق لما حدث لكان جديراً أن يندم كثيراً... ولا سيما بعد أن فقد كل عطفٍ ومودةٍ من الناس، فلم يبق له سوى قلب تلك المرأة الذي لم ينفد بعد صبره عليه... ولكن المشكلة لم تحل بمجرد قبوله فكرة العمل، فأين يجد العمل، وما السبيل إليه!... وأين الرجل الذي يختاره للعمل عنده، وهو يري هذا العدد الضخم من العمال الذين لكل واحد منهم من الطاقة وقوة الأحتمال مالا يتوافر لخمسة مثله!.. ثم أي عمل هذا الذي سيصلح له وهو الذي لم يجرب عملا جديا قط!! وها هو ذا يري العمال أمامه يتراكضون كلما مرَّ بهم ذو حاجة إلي عامل، يحاول كل منهم أن يكون هو صاحب الحظ... فهل يستطيع أن ينافسهم فيعرض نفسه في مثل هذا الزحام؟!...

واستيقظ فؤاد من تأملاته الحائرة علي صوت يوجه إليه: ياشاب! أنت... أنت... هل لك في عمل؟ والتفت إلى الرجل الذي يمتطي حماراً، ويجر وراءه ثوراً... فأدرك من عقاله وسَوْقائِهِ أنه مزارع خارج إلي حقله فلم يشك في أن القدر قد ساقه إليه... ولم يتردد فتقدم من الرجل وهو يقول نعم... إذا شئت

تعال إذن فسق هذا الثور واتبعني...

وقدم فؤاد إلى الثور يمسح على مؤخرته، ويدفعه بلطف دون أن يسأل المزارع عن نوع عمله، لأنه صمم على قبوله كيفما كان...

وفي الطريق بعد تجاوز البلد سأل المزارع فؤاداً عن اسمه فأجاب فؤاد بك!...

وشعر أنه استعجل في اعطاء اللقب... غير أنه لم يندم إذ توقع أن يكون له بعض المنفعة في عمله الذي يرجو ألا يكون ثقيلاً...

وعلي ثغرة الحقل ترجل المزارع، وأشار إلي فؤاد أن يربط مقود الثور إلي أحد الوتدين المضروبين هناك، ثم دفع إليه بالخرج ليصب منه أمام الدابتين علفهما، ثم استخرج من مخلاةٍ صرة فتحها وناول منها فؤاد رغيفاً وقطعة من (السوركة) مع رأس من البصل وثمرة من البندورة وهو يقول: لابد أنك مثلي لم تفطر بعد...

وشد ماسر هذا التلطف قلب فؤاد!... فاقبل علي الطعام في شغف، وخيل إليه أنه لم يذق طعاماً بمثل لذته، وتوقع أن يكون حظه طيباً في صحبة هذا الرجل، وقد وطَّن نفسه علي أن يبذل قصارى جهده لإرضائه...

وسمع صوت المزارع يقول له: لقد نسيت أن أقول لك أن اسمي أبو سعيد... والآن لنبدأ عملنا... أترى إلى شجرة الكمثري الوحيدة التي في الجانب الغربي!... إيتيني من تحتها بالمحراث...

واندفع فؤاد لتنفيذ الطلب بنشاط، وما لبث أن عاد بالمحراث على كتفيه ليضعه بين يدي الرجل...

وأشار هذا نحو الثور الذي كان قد استنفد علفه، فجاء به وهنا أخذ يربط المحراث إلي عنقه، حتي إذا فرغا من ذلك قال المزارع لفؤاد: سيكون عملك خفيفاً يافؤاد بك... انك ستسند المحراث من الناحية الأخرى. فقط من أجل التوازن...

ولم يفهم مراده أول الأمر حتي سمع الرجل يقول له: هنا من فضلك... هنا علي شمال الثور.

وتقدم فؤاد إلي حيث أشار صاحبه دون أن يفكر بالاعتراض...وأخذ هذا يلف بقية الحبل علي عاتق فؤاد وتحت أبطة بمنتهي اللطف، وهو يكرر: فقط من أجل التوازن... يافؤاد بك!...

***

.. وكانت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربي في جمال أخاذ عندما كان فؤاد يعود وراء صاحبه إلي البلد وهو يمسح بلطف مؤخرة الثور الذي أحس نحوه بألفة سعيدة.

وكان يتوقع أن يسمع عتاب زوجته لتركه أياها وأولادها دون غداء، لذلك لم يكد يطل علي درج الغرفة حتي راح يدعو امراته بأحب أسمائها، لتتناول منه ما يثقل يديه من الخبز والسوركة والبندورة!

وجلس علي طرف الحصير مسنداً رأسه إلي الباب ليحدثها بقصة اليوم...

وبارتياح مَشُوبٍ بالأسي ذكر لها كل شيء... نظرة الرفيق القديم وبصقته.. ثم عمله في مساعدة الثور علي جرّ المحراث... وختم ذلك كله بقوله: حقاً كان العمل شاقاً... ولكنْ أبو سعيد كان غاية في الكرم... لقد عاملني باحترام كبير فكان يخز الثور ليأخذ سَمْتَه، فإذا أراد مني تحركاً في أتجاه ما اهاب بي في كثير من الأدب: يمين يابك... شمال يابك...

أجل... لقد كان غاية في الرقة والذوق، ولذلك قررت أن أواصل العمل معه، وان لم يزد أجري اليومي علي ثلاث ليرات!...

جـــارنيـــاس ...

لم أعد أذكر بالضبط في أي شهر حدث هذا .. ولكنه بالتأكيد عام ١٩٣٤ .

كانت الساعة قرابة التاسعة صباحاً عندما جاءني ذلك الدركي فحياني بأدب ، ثم قال : (إن القائد ينتظر قدومك ...) ولم تكن مفاجأة ، إذ كنت أتوقع مثل هذه الدعوة بين اللحظة والأخرى . وشعرت برغبة في استعجال الأمور ، فما أن توارى الدركي في أعماق الشارع حتى كنت على إثره . .

ونقرت باب القائد عمر ، ثم تقدمت فصافحته وأخذت مجلسي على مقربة من مكتبه ، وهنا أبصرت رفيقي عليًّا جاثما في صمت كئيب على مقعد في طرف الغرفة . وقد أسند وجهه إلى راحته ، وبدت في ملامحه مسحة من الجزع العميق ، لعل مردها إلى أنه لأول مرة يجد نفسه في مثل هذا المأزق . .

وتبادلنا أنا وعلي النظر ، وفهمت بغير كلام أنه هنا منذ قليل وأنه لم يسأل عن شيء بعد . .

ثم لم يطل بنا المقام حتى رأينا القائد عمر يغادر القاعة تاركا إيانا مع كاتبه الذي راح يسألنا في همس : عما هناك من الأمور ، فنفينا علمنا بأى شيء ، وقلت له : لعلها دسيسة من أحد المخبرين .. واكتفى بهز رأسه .. بينما كان الباب يفتح ليطل منه رأس قائده يدعونا لمرافقته . .

وتقدمنا القائد إلى داخل مكتب المستشار ، ثم عاد ليشير إلينا بالدخول وكان طبيعياً أن نبدأه بالتحية ، غير أننا لم نتلق رداً مطمئناً ، ذلك أن المستشار ظل معتصماً بمنضدته ، متكئاً بمرفقيه عليها ، مسنداً وجهه إلى قبضتيه ، مركزاً بصره في أوراق أمامه وكأنه قصد إلى إرهابنا فرد تحيتي من طرف لسانه في لهجة حادة ومبتورة . وساد الصمت أكثر من دقيقة ، وكنا جميعاً وقوفاً نحن والقائد والمترجم نراقب هذه .. التمثيلية .

ورفع المستشار عينيه إليَّ ، ولمحت في زرقتهما بروق الغضب كأنها طلائع العاصفة ، وانطلق يسأل في نبرة تعمد أن تكون صارمة قاسية كطلقات المسدس : ماهذا الذي فعلتماه أمس ؟ !

وتوليت أنا الجواب ، فقلت في كثير من الهدوء المثير : الأفضل أن تتمالك أعصابك أولاً ، فأنت في وضع لايصلح للاستجواب .. .

وكأنني وضعت النار على البارود ، فإذا هو يهب من وراء مكتبه ، ويندفع نحوي في خفة الذئب ، وبلمحة خاطفة كانت لكمة ثقيلة تنصب على أنفي ، وصوت يصيح : أيها الحيوان !

وتمالكت أعصابي مااستطعت ، وجعلت أضغط على الدم بمنديلي ، بينما راح جارنياس ــ المستشار ــ يهوي بيديه وقدميه على رفيقي الذى لم يستطع ضبط نفسه ، فانطلق يصرخ بكلام لايفهم ... ثم لم يلبث أن عاد إليَّ ، وقد ركز قبضتيه الضخمتين في وضع الملاكم . ثم أخذ يصيح بالفرنسية : تكلم أيها ال ..)

ونظرت إلى هذا الطاغي ينتصب أمامي وقد ارتفعت قامته ربع متر فوق أطولنا ، وبدت أطرافه وكأنها قوائم بغل قد اكتنزت لحماً ، وطبقت شحماً ، فكان كمصارع من الوزن الثقيل تهيأ لمباراة حاسمة ! .. وكنت على أتم الثقة من أن هذا الغشوم لن يكتفي مني بمثل مانال من رفيقي ، لأنني بنظره الخصم الأول ، الذي يثير في وجهه المتاعب ... والقضية التي يحاسبنا عليها اليوم لاتستحق كل

هذه الثورة ، فليس هناك إضراب دعونا إليه ، ولا مظاهرة هيأنا لها ، وكل مافى الأمر أننا سددنا منافذ الشر على المفسدين ، ففوتنا عليهم فرصة احداث فتنة طائفية ماكان يعلم عواقبها إلا الله ، لولا هاتيك المساعي التي بذلناها يوم أمس أنا ورفاقي من أعضاء (جمعية النهضة الخيرية) .. ولو أن هذا الأجنبي ممن يهمه خير هذا البلد لأسرع إلى شكرنا وتقدير عملنا ، ولكنه على العكس إنما ينقم منا إطفاءنا جذوة هذه الفتنة التي كانت بنظر قومه وعملائهم فرصة صالحة لاستبعاد فكرة الوحدة السورية ، التي يعمل لها جميع العناصر النظيفة من رجال البلاد في الساحل والداخل .. .

ولقد يكون لعميلهم الطبيب (راغب) يد في إثارة هذه العاصفة ، وهو الذي صارحني أول أمس أنه سيوعز إلى المستشار بضرورة الأخذ على يدي ، ليجعلني عبرة لكل من تحدثه نفسه بإثارة الشباب لمعاكسة الفرنسيين .. على أن الدافع البعيد والأهم لهذه العاصفة إنما يعود بالدرجة الأولى إلى غضب المستشار من تلك الحملات العنيفة التي مازلت أشنها على موظفيه الفرنسيين في جريدة النداء البيروتية ، حيث أُتتبع عوراتهم ، وافضح مؤامراتهم التي يحوكونها في الظلام ، وبخاصة في طرطوس وضواحيها .. فهو إذن يتخذ من هذه المناسبة ذريعة للانتقام الذي لن يكون يسيراً .

من خلال هذه التصورات كلها رحت أُنظر إلى ذلك الأجنبي فيغلي صدري حقداً عليه ، وأود لو أتحول قذيفة تنسف هذه القاعة بنا جميعاً .. ولذلك لم استطع كفكفة مشاعري الصاخبة فصرخت به في تحد مثير : أتمم عملك أيها الوحش .. فمثلك لايستحق الجواب بلغة الناس .. !

وكانت مفاجأة عجيبة ، ذلك أنني أبصرت يدي جارنياس تهبطان في استرخاء ، وسمعت صوته يتمتم : سيد مجذوب ! .. .

ولم أشأ أن أضيع الفرصة فواصلت تحديّ : الحيوان .. أصبح سيداً الآن . ! عجيب ! . .

وجاء جوابه : أنت المخطىء ... لقد أثرتني . . .

قلت : أثرتك ! . ومتى ! .. وإذا كنت أنا المخطىء لأنني أثرتك فما ذنب رفيقي هذا !

قال : حقاً لاذنب له ..

قلت : فاعتذر إليه إذن

وكان الحوار متلاحقاً لم يدع لأحدنا مجالاً لتردد أو تقدير .. فإذا هو يمشي نحو علي الذي لم يبرح مكانه عند الباب ، وقد أحاط وجهه براحتيه ، ومد يده إليه مصافحاً وهو يقول : عفواً إني أعتذر . .

ولم يتمالك صاحبي فقابله على العمل بمثله ، وردد له بالفرنسية الكلمة نفسها : (بردون) وهنا استدار جارنياس نحوي ومد يده لتصافح يدي وهو يكرر عبارة الاعتذار .. ولكنني سحبت يميني وأنا أقول : (المخطىء لايعتذر إليه ..) بيد أن هذا الرد لم يزد جارنياس إلا تصميماً على تسوية الوضع فقال : أعترف بأنني المخطىء .. فما الكفارة التي تريد ! . .

وفي انفعال لم أستطع كبحه قلت : أن أضربك كما ضربتني ! . .

وبالطبع لم يرقه هذا الاقتراح ، ولكنه لم يرد أن يستأنف المعركة من جديد .. فلم يجد خيراً من أن يوعز إلى مساعديه القائد والمترجم بتجربة أسلوبهما في الإصلاح . .

وحتى هذه اللحظة كانت الأمور تسير في تعاقب سريع ملأ نفسي الرجلين بالدهشة ، فكانا يتابعان المشهد الدرامي في حيرة لم تمكنهما من إبداء أية حركة .. فلما فهما رغبة المستشار تقدما للعمل ، فأخذ المترجم بيد علي إلى الكرسي القريب ... وأحاط القائد كتفي بذراعه ، وراح يترضاني بكل وسعه .

وتقدمت إلى حافة النافذة أرسل عيني في أبعاد الأفق ، متأملاً مفكراً .. أستحضر تفاصيل المشهد لأستخلص الحكم الذي ينبغي أن انتهى إلى إقراره .. وهنا تذكرت أن استمراری في هذه السلبية لن

يعود عليَّ بشيء من العدالة ، إذ لاسبيل إلى مقاضاة هذا الأجنبي أمام المحكمة ، وشكواه إلى مرجع إداري مستحيلة ، ولعل أقصى ماأحصل عليه أن يزج بي في السجن إلى أجل غير مسمى ، ثم أبدأ حيث انتهيت .. بينما أنا الآن قد استرددت اعتباري ، وأرغمت الباغي على التنازل عن كبريائه حتى راح يعتذر عن فعلته ، ويعرض قبول الكفارة التي أشاء.. وليس وراء ذلك من مطمع لأحد بالغا مابلغ من العزة والصلابة وليس طبيعياً أن أصر على المقابلة بالمثل، فبهذا الإصرار قد أفقد الفرصة الوحيدة للتسوية الشريفة...

وكانت لحظة أغرقت القاعة في هدوء عميق .. وكأن جارنياس قد أدرك مايجول بنفسي فأقبل نحوي حتى أحاطني بذراعيه ، وجعل يقبل رأسي وهو يردد : سيد مجذوب .. عفواً .. عفواً . .

وكان التأمل قد أفرغ على الأعصاب ماأخمد ثورتها فلم أحس دافعاً إلى التخلص من يديه ... وتركت له أن يمسح بقية الدم عن أنفي بمنديل .. ثم مضيت معه نحو الكرسي الذي قدمه إلي .. ودعا بقدحين من القهوة لي ولعلي ، ثم أخذ يتكلم :

« سيد مجذوب لم أكن قط أتصور أن أجد في هذه البلاد رجلاً من طرازك .. إنك والله لأسد . »

وخيل إلي أن الرجل قد عاد إلى فظاظته ، فلم أتمالك أن قلت له وقد كاد يجف لساني من التأثر :

« .. ذلك ذنبكم أنتم الفرنسيين .. إنكم تنظرون إلى الشعب السوري من خلال بعض المرتزقة فتحسبونه صورة منهم .. وقد نسيتم أننا وارثو حضارة لقنت الدنيا معاني الإباء والعزة والحق . .

وأطرق قليلاً وهو يهز رأسه ثم رفعه ليقول : سيد مجذوب .. إن لك عندي نصيحة أبوية .. فهل تريد سماعها !

قلت : بكل سرور ..

قال : لقد لمس إباؤك من نفسي موضع التقدير فانحنيت له .. وإني لأخشى أن يقع لك مثل هذا مع من لايقدر الإباء فتذهب ضحيته .

قلت : من حق إخلاصك علي أن أشكر لك نصيحتك .. وإن كنت واثقاً أنني لم أعمل سوى مايقتضيه واجب الكرامة ، التي لايكون الإنسان إلا بها إنساناً ، ولك علي مقابل ذلك نصيحة مماثلة إن أذنت بسماعها ..

قال : بكل شكر ...

قلت : إن العروبة والإسلام يضعان العزة فوق الحياة ، فحذار أن تقابل مسلماً أو عربياً صحيح العروبة بمثل هذا العدوان .. إذ قد يكلفك ذلك أكثر مما رأيت .. .

وكأن الرجل على يقين من هذا الذى أقول ، فلم يبد أي تردد في قبول رأيي وقال في لهجة تنم عن قناعة تامة : سأنتفع بنصيحتك ..

وساد الصمت لحظة أخرى .. ثم مد يده إلى بدخينة ثانية وهو يقول : سيد مجذوب .. والآن أسألك كصديق : هل أستطيع تقديم أية خدمة ! . .

وسبقتني إلى وجهي ابتسامة خفيفة كانت تعبيراً عما جال في خاطري من تفسير لهذا العرض .. وأطلقت نفثة الدخان في أناة ثم قلت : شيء بسيط إذا كان ممكناً ..

قال والبشر يلتمع في عينيه : .. لن أدخر وسعاً .. فما هو ؟ .

قلت : فرع للتعليم الليلي .. يتيح للمحرومين أن يتداركوا به مافاتهم . .

ولم ينتظر تعليلاً للطلب فقال : هذا أمر تستطيع اعتباره موجوداً بمطلع الأسبوع الآتي .. ثم ماذا ؟ .

ونهضت لمغادرة القاعة ، ومددت يدي أودعه وأنا أقول : هذا كل شيء وسنشكر لكم تحقيقه ...

* * *

وكنا في تلك الأيام نعد الاتصال بالفرنسيين سوأة لايتعرض لها إلا المشبوهون ، فوجب علي أن أتجنب لقاء جارنياس ماااستطعت .. حتى أنني لم أواجهه لأشكره على تحقيق وعده بافتتاح القسم الليلي .. وكثيراً ماكنت ألحظه قادماً عن بعد فانتقل إلى الرصيف المقابل كي لاأضطر إلى محادثته .. ولكنه ماإن يلمحني حتى يتجه نحوي ويمد يده إلى مصافحتي . .

ولم يطل المقام بالرجل إلا قليلاً بعد ذلك حتى نقل إلى دمشق ثم إلى محافظة الجزيرة ... وكان ذلك بوشاية دسها عليه لدى رؤسائه موظف لبناني في الإدارة كبير ، ولم يكن من داع سوى حقده علي ، إذ ساءه أن أجد لدى فرنسي ذلك التلطف فما زال يلح بوشايته حتى استجيب له .. .

وذات يوم مرَّ جارنياس بطرطوس . وهو في طريقه إلى الشمال ، فأبى إلا أن يتوقف بعض الوقت ، وعند حانوت رفيقي علي ترجل ليسلم عليه ويسأله عني .. وتكبكب حوله الوجهاء يحيونه ، ويقبل بعضهم يديه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يصرفه عن الاهتمام بأخباري ، وعن إرسال تحيته إلي مع ذلك الرفيق ...

وذات يوم آخر كنت أقرأ جريدة القبس. فإذا هناك نبأ صغير يردني إلى ذكريات لم تنس .. نبأ يقول : إن مستشار الجزيرة الفرنسي جارنياس قد تعرض بالإهانة لبدويين في الصحراء فلقي حتفه على يديهما .. .

وهكذا شاء القدر أن يخالف الرجل نصيحتي فيذهب ضحية تسرعه بيدي عربيين أبيين ...

* * *

قصّـــــةهــــرّة

كان سعيد — كما سمته أمه — أو سعدو — كما يسميه الناس — شاباً في الخامسة والعشرين، على جانب من القوة الجسدية غير يسير، مديد القامة، عريض الألواح مدمج الأعضاء، وهو شديد الاعتزاز بهذه الصفات كثيراً مايتخذ منها مظهراً لتحدي الضغفاء من جيرانه ورفاقه، وكثيراً مايتوسل بها إلى زيادة حصته من أي عمل مشترك قد يقوم به مع بعضهم... يضم إلى ذلك كله لساناً كالمسدس المختل لايكاد يؤمن انطلاقه على غير هدى فهو كتلة من السفه والسباب والتجديف، لايكاد يسمع منه أينما سار وحيثما تكلم إلا ذلك البذاء يصبه على جيرانه، ورفاقه... ولعل زوجته أوفر الجميع حظاً منه، إذ عودها الا يناديها بغير لفظة (وليك) و لا يخاطبها إذا غضب إلا بالألفاظ التي ورثها من أيام الأزقة... نبذاً بالفجور، ومسبة للدين، وشتماً للخالق...ويكاد شتم الخالق أن يكون لازمته المفضلة، فهو إذا فاتته الغنيمة التي يريد شتم خالقها، وإذا عصاه عود الثقاب قذفه بمثل ذلك، وقد تعثر قدمه بطرف الفراش فيسب إله كل من وضع فيه قطبة... وقد عود أطفاله الثلاثة أسوأ هذه الألفاظ حتى باتوا يتبادلونها غاضبين أو راضين، مستيقظين أو نائمين...

ومن هنا كان سعدو بغيضاً إلى قلوب كل عارفيه، حتى لاتكاد تجد له محباً، ولا تكاد تسمع إنساناً يذكره بخير... وقد نفر منه كل أقرانه فأصبح فريداً لايجد شريكاً يتعاون وإياه في أي من الأعمال...

وكانت له حرف كثيرة، لايستقر منها على واحدة، فحينا تراه حمالاً يعمل في مواقف السيارات، وآنا تراه يدفع عربة نقل، ومرة تجده نوتياً في إحدي السفن، أو معاوناً في إحدي الشاحنات... ولكن حرفته المفضله هي قتل الأسماك بالمتفجرات...

ويبدو أنه وجد في هذا العمل جوه الطبيعي، فيوشك أن لايفارق البحر إلاأيبيع حصيلته من السمك أو ليقضي ليلة في البيت... وقد تمر عليه الأيام المتلاحقات لايطالع خلالها وجها لبنيه، ولا يخطر في باله أن يسأل عن أحد منهم... فهو مشغول عن كل ذلك بهذه المتعة الشافية التي يمارسها في مراقبة الأسماك والقضاء عليها كلما وجد لذلك سبيلاً، وكثيراً ماتصلت أحلام نومه بعمل يقظته فتتراءي له جموع الأسماك سابحة حوله، تستفز شراسته إلى القتل، فلا تستقر أعصابه حتى يسمع ألغامة تتفجر في دوي متتابع، تطفو على أثره ضحاياه أفواجاً وراء أفواج...

ولقد عمق هذا المرأس في طبيعته خلائق القسوة فجعله أشد استهتاراً بالمسئولية، يرفع قبضته بأصابع المتفجرات مهدداً متوعدا، ولا

يتورع عن فعل ذلك حتي مع أطفاله أنفسهم، الذين ألفوا منظر هذه المتفجرات مطروحة على طبق تحت صندوق الثياب أو في سلة الخبز، ففقدت بذلك رهبتها في أعينهم، وأصبحت لهم اللعبة المفضلة يلوح بها كل نحو الآخر، أو يركضون بها وراء أترابهم!..

وهب سعدو من فراشه مسرعاً يقذف الشتائم، إذ وجد نفسه قد تأخر عن موعده..ورفس ظهر زوجته فنهضت لفورها تعد له زاده من الطعام. ولما سحبت القدر جمدت مبهوتة إذ لم تجد فيها اللحم الذي حفظته له!.. وجعلت تراجع نفسها لعلها أخطأت المكان، ثم لم تستطع إلا أن تسأله: على علمي أني تركت لك الفك الأسفل في هذا القدر... وما أرى منه الآن غير العظم... لعلك أكلته؟..»

ولم يجد أقرب من وسادة القش فقذف بها رأسها وهو يصيح: أنا أكلتها يا..! وتدحرجت الكلمات القذرة عن لسانه في سرعة متلاحقة.. وأقسم بالطلاق لينسفن بهذا الديناميت البطن الذي احتوى ذلك اللحم...!

وأخذ يركل أطفاله فيهبون مذعورين واحداً بعد الآخر وعلى لسان كل منهم تجديفة من الضرب الثقيل!...

وأخذ سعدو يحقق مع كل منهم: أأنت؟... أأنت؟.. أأنت..؟

وكان الجواب بالطبع هو النفي! ... ولم يكن بحاجة إلى توكيد أكثر، فهو قد رآهم غارقين في سباتهم حين مجيئه، ولا مجال للظن بنهوضهم للأكل أثناء الليل، وإذن فلم يبق هناك موضع للتهمة سوى زوجته، وهذه الهرة التي تغرغر فوق هذا المفرش الممدود غرب الباب...

وأمسك بالهرة يجس بطنها ويقلب نظره على مدخل فمها.. وكاد يجن من الغضب عندما رأى نثارة من اللحم لاتزال معلقة منها فوق الأنف شاهدة بالجريمة!...

واستل من جيبه بعض الخيوط، وراح يلفها على شيء حول بطنها... وقد وجدت الهرة في ذلك مداعبة لاذة، فجعلت تمسح وجهها بصدره وهي ترسل مواء حنوناً كأنه أنشودة الشكر...

ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى خرج بالهرة إلى ساحة الدار، وهناك أشعل دخينة، ثم أدناها من بعض أربطتها، وبكل قوته قذف بها فوق جدار الدار في اتجاه الساحة المقابلة...

وما هي إلا ثوان معدودات حتى كان الدوي يصم الآذان... ثم يتراكض الجيران ليروا إلى هرة بيت سعدو وقد نُثرت أجزاؤها في كل اتجاه...

* * *

ولأول مرة يوجس سعدو خيفة من جيرانه، إذ لم يطيقوا كبت مشاعرهم تجاه عدوانه الشنيع على تلك الهرة، فأخذوا يتصايحون، وراح كل منهم يثير نخوة الآخر للانتقام من هذا الأرعن الذي مازال ينغص حياتهم...

ولم يشأ سعدو أن ينتظر أكثر.. فملأ جيبه اليمنى بالمتفجرات المعبأة، وجعل أطراف فتائلها بارزة إلى الخارج، ثم أطبق راحته اليمنى على واحدة منها بشكل ظاهر، وأمسك بالثانية دخينة، ثم خرج إلى الساحة في هدوء مثير كأن ليس ثمة من شيء يعنيه، فإذا الصمت يسود الساحة، وينسحب القريبون من بيوتهم إلى داخلها في سكون، ويأخذ هو طريقه الذي اعتاد أن يسلكه كل صباح نحو البحر!...

وعلى غير عادة سعدو كان هذه المرة يتجه نحو الشاطىء وفي رأسه أفكار غير التي ألفها في مثل هذه اللحظات. أفكار لاتتصل بالبحر ولا بالزورق... وهي أبعد من ذلك وأغرب... إلا أنه لايستطيع لها تجسيماً ولاتحديداً ولعلَّ من التجاوز أن نسميها أفكاراً، فما اعتاد الرجل أن يفكر، بل ألف أن يأخذ الأشياء على علاتها، يتناولها بالشعور العابر، والتدبير المرتجل، فلا يجهد نفسه بمحاولة التمييز بين شيئين... وهي أقرب إلى أن تكون تصورات تنتشر في أعماقه دون وعي ولا تفكير ولا انتظام... تصورات يلمح من خلالها هرة... وفضاء.. وناساً... وتُخيل إليه أنه يرى نفسه في هذا الطريق نفسه.. يسير كالشبح لايعي ماحوله... ويغالبه شعور مبهم مزيج بشيء من الاشمئزاز يكاد يدفعه إلى التقيؤ... ثم يحدث شيء ليس في وسعه أن يعرف ماهو... ولكنه موجع ومؤلم...

وهنا أحس بضيق يثقل صدره، فهز رأسه بقوة، كأنه يريد التخلص من تلك الأوهام المزعجة، ورفع دخينة أخرى أشعلها من العقب المتخلف بين أصابعه، وتذكر كتلة التفجير التي في يده فردها إلى جيبه ثم مضى يعب الدخان في عمق وهياج...

وعندما وصل إلى المفرق الذي اعتاد اجتيازه انفتل نحوه بغير وعي، وكانت هناك أغصان شائكة يظهر أن أصحاب الأرض قد سدوا بها مدخل الممر مساء اليوم الفائت، فوقف ينحيها في عصبية، ودفعها عن ثيابه التي راحت تنشب بها في قوة ، ودون أن يرفع الدخينة من بين إصبعيه جعل يعالج آخر الأشواك التى علقت بجيبه ، فإذا هو يفاجأ بمثل الانفجار تحت قدميه ودوى يخطف سمعه فيقطعه عن إدراك ما حوله !

وكانت سيارة تعبر الجسر القريب في اتجاه المدينة، فوقفت لنجدة الرجل الذي رآه ركابها يهوي إلى الحضيض عقيب الإنفجارات الأربع...

ولقد هال هؤلاء أن يبصروا الرجل وقد طارت عيناه، وبترت يمينه ومُزقت فخذه وبُقرت بطنه... ولكن سرَّهم أنه لايزال في صدره بقية من النفس تبعث الأمل ببقائه في عداد الأحياء. لذلك أسرعوا بنقله إلى أقرب مركز للإسعاف.

ولقد صدق الأمل، وبعد علاج طويل، وعدد من الجراحات. نجا سعدو من الموت... لكي يحمل إلى الناس صورة مفجعة من العدالة الإلهية التي لاتغفل... ولا تنسى حتى الهرة الحقيرة!...

وحتى اليوم لايزال جيران سعدو يذكرون تلك الهرة، كلما رأوا الرجل المشوه المسكين يعبر ساحتهم متكئاً على كتف زوجته... ولكن ماأقل الناس الذين يتفكرون ويعتبرون!!!

الطـــــاغية...

كنت مساء أمس أعاني نوبة من زحار قديم.. فكانت ملازمتي للدار شيئا طبيعياً، وفي الوقت نفسه فرصة مناسبة لمتابعة أنباء الاضراب بصورة غيرة مباشرة، وكانت الأنباء سارة.. لقد ذاع منشور الاضراب في كل مكان من البلد، وتردد أصحاب الحوانيت في الصباح بين أن يفتحوها أو يدعوها مغلقة.. ولكن الأكثرين آثروا استجابة الدعوة فوقفوا على مقربة من حوانيتهم يترقبون الأحداث.. حتي أولئك الذين اعتادوا التمرد علي دعوة الاضراب قد أخذوا يتناقصون اليوم حتي أوشكوا أن يختفوا، ولاسيما بعد أن شاهدوا أسراب الصغار يطوفون الشوارع وهم يصيحون في نغم صاخب: (سكر سكريا) وقد حاول أحدهم أن لايسكر فإذا هم يصبون علي بابه سيلاً منهمراً من الحجارة اضطرته إلي التسليم...

وما هي الا ساعة حتي خيم الصمت علي شوارع طرطوس، ولولا شذوذ القسم الجنوبي المألوف في مثل هذه المناسبات الوطنية لكان الاجماع تاماً لايشوبه أي انحراف..

وكنت أري من وراء نافذتي المطلة علي طريق عام أفواج المارة وهم يتحدثون حول الأضراب... وأشاهد أفراد الدرك ينطلقون بأسلحتهم صوب الشارع... وأبصرت خلف هؤلاء واحداً من كبار أصحاب الوجاهة يتحدث مع القائم مقام وهو يشير بيديه في حركات عصبية... وانتهى إلي مسمعي من كلامه مايترجم حنقه عليَّ بصفتي في زعمه رأس المدبرين لهذا الإضراب...

وفي الحقيقة كان إضرابنا اليوم عملاً وطنياً مزدوجاً، فهو من ناحية تعبير عن تضامن البلد مع دمشق وإخواتها من مدن سورية، ومن ناحية أخرى محاولة لعزل هذه الطبقة ذات الوجاهة الموروثة عن ميدان القيادة الشعبية... وقد حاول الفرنسيون وأعوانهم استغلال هذه المحاولة فراحوا يثيرون أعصاب هذا الرجل ضد الشباب الذين ينهضون بعبء العمل في مقاومة الإتجاه الإستعماري، ملقين في روعه أن في هذا تحدياً جريئاً لنفوذه ولمصالحه في البلد، فهو بدافع من هذا الإيحاء يمضي الآن لاستعمال نفوذه في إفساد الإضراب... ولكن عبثاً يحاول، فأنا واثق من أن الناس قد بدوا يتعلمون من هذه الفئة التي فرض الجهل سلطانها على رقابهم، إذ أصبحوا أكثر وعياً لفكرة الحرية ولمعني الوحدة السورية، التي حطمها هؤلاء المستعمرون، فجزءوا الإقليم الواحد إلى عدد من الحكومات والدويلات. ليتمكنوا من تفتيت القوة المقاومة لأغراضهم الجهنمية... ثم لم يمض سوى نصف ساعة حتي جاءتني الأخبار بتوكيد ماتوقعت إذ أن الناس قد رفضوا الاستماع لكلام هذا الكبير، وراحوا ينفضُّون من حوله، حتي لم يبق غير القائمقام.

وطرق باب الدرج بضربات غريبة، وأسرع ولدي يهمس إليَّ بصوت مبحوح: إنهم الدرك... ثلاثة من الدرك!... وما كنت لأفاجأ بهذا فأنا أنتظر وصولهم منذ منتصف الليل، فاستمهلتهم ريثما أرتدي ثيابي الخارجية، ثم مضيت معهم دون كلام حتي أنتهوا بي إلى مكتب الطاغية (فيو)...

ولقد سبق أن رأيت فيو هذا قبل عشرة أيام، وذلك عقيب حملة تفتيشية أراد أن تكون طليعة أعماله في طرطوس، إذ وجه كوكبة من الدرك فأحاطت بمنزلي وحانوتي أثناء صلاة الجمعة، وجاءني الخبر إلي الجامع، فعملنا علي تمديد وقت الصلاة ريثما تمكنا من إنقاذ مايمكن إنقاذه، ثم انتهت الحملة بمصادرة بعض الأوراق التي لاطائل تحتها، ويومئذ بعث هذا بطلبى ليرد إليّ هذه الأوراق وليقول لي: ان (جارنياس) الذي أطمعك حلمه قد ذهب إلي غير رجعة... وستري أن (فيو) رجل آخر يعرف كيف يسحق كل العقبات...!

وكانت شخصية فيو هذا لاتزال مجهولة عند الناس، يحاك حولها من الأحاديث مايشبه الأساطير... فهو عند بعضهم الرجل المتواضع، العامل، يطوف بأزقة المدينة ليستكشف بنفسه مواطن الحاجة إلى الإصلاح، ولا يضن علي فقير بالتحية... وهو عند الآخرين الغشوم الفاتك الذي ملأ قضاء مصياف من قبل رعباً وترويعاً... وقد جيء به إلي طرطوس للقضاء علي حركة هؤلاء المغامرين من الشباب، الذين لم يحسن جارنياس تأديبهم و ...

...وما هي إلا لحظات حتي فتح باب المكتب ودعيت للدخول علي المستشار الذي استقبلني بنظرات حادة حاول أن يسكب فيها كل معاني الوعيد...

وشرع يهز منشوراً بيده وهو يقول: من عمل هذا ؟...

وقلت: لعلك أعلم مني...

ولكنه لم يكن راغباً في إفساح المجال لأي جدال فقال في لهجة أراد أن تكون حاسمة: لامجال للكذب ولا للتملص... إني أعرف كل شيء...

وكانت صدمة مريعة دفعتني إلي التساؤل: ليت شعري... أهو صادق في مايقول؟... أتراه قد علم أني صائغ المنشور!... وأنه نسخ بأقلام أولئك الفتيات اللواتي لم يعرف بهن أحد إلا أنا ورفاقي الثلاثة!... وأينا هو الذي كشف الستر عن السر!... إن أحد الثلاثة شقيق لموظف هو خادم الوجيه الكبير صديق الفرنسيين...ليت شعري أمن هنا جاءت الخيانة...!!

ولم استطع القطع بالأمر فقد يكون كلام فيو ضرباً من حرب الأعصاب، ومهما يكن فلا ينبغي أن أفرط بالسر...

وأصررت علي موقفي... ووقف يضرب علي مكتبه بجمع يده وهو يصيح بصوته الحديدي الفظ: قلت لك... أعرف كل شيء... فلا مجال للجدال...

ورأيت أن أنهي هذه التمثيلية غير الممتعة فقلت بتصميم: إن القوة هي التي تتكلم علي لسانك... وليس لديَّ مايقابلها فاصنع ماتشاء...

وأخذت طريقي مع الثلاثة إلي حيث أراد...

***

كان البرد جدّ قارس تلك الليلة، وكانت الرياح في معركة هائلة قيل ان طرطوس لم تشهد مثلها منذ عشرات السنين، وقد بلغ عصف الدَّبور حداً أطاح معه بعدد من الدور، كان أحد ضحاياها شيخاً مسكيناً من بقايا أتراب والدي...

وحُشِرت إلي حجرة مظلمة كان لها فيما مضي نافذة تطل علي ساحة المخفر، ثم بدأ لهم أن يقيموا بجوارها غرفة أخري ملئوها بسروج الخيول وأدواتها الإخري، فباتت لذلك مصباً للروائح النتنة ترسلها المحتويات، فتمتزج ببخار الروث والأبوال الوافده من الاصطبل المجاور...

وأبى فيو أن يسمح لي بالفراش فلففت جسدي بتلك العباءة التي استعرتها وأنا في الطريق من أحد الأصدقاء، وجلست علي لوح خشبي عريض لاأدري كيف غفلوا عنه فرفعني عن مباشرة الرطوبة الأرضية...

ولما وافت الساعة العاشرة من الليل تسرب إلي مع عصف الرياح عويل، سرعان ماتبينت من خلاله صوت رفيقي (أحمد محمود) آتياً من الحجرة الواقعة علي مدخل المخفر، تتخلله طقات سوط تتصاعد بين اللحظة والأخرى... فكان عليّ أن أنتظر دوري وأتهيأ لتحمل القسمة المناسبة من هذه السياط...

ومرت دقائق ثقيلة أصابني خلالها مثل الدوار، وشعرت بثقل يضغط علي معدتي فأكاد ألفظ مافيها حتي انقطع الصوت، وساد سكون قصير أعقبه قعقعة أحذية ثقيلة تضرب الأرض في خطوات

عسكرية، وقد بدأت خفيفة بعيدة، ثم جعلت تتضخم وتتقدم، حتى أختتمت فجأة عند باب حجرتي... وسمعت صليل مفتاح يتحرك في القفل، ثم فتح الباب وبدأ لعيني من خلال الظلام صف من الدرك طويل يسند كل من أفراده بندقيته إلي كتفه. يتقدمهم ذلك الضابط — رسلان — بسوطه اللعين فكأنهم قادمون لتنفيذ حكم بالاعدام!...

وبحركة غير واعية نهضت على قدمي وأنا أقول: إني مريض لاأحتمل أي ضرب...

وجاءني صوت رسلان يصيح وقد أثقل لسانه السكر: مريض!... ولازم تموت كمان...

وما أدري الذي حدث هنا، ولكنني سمعت دفعات من الشتائم القذرة تنصب على أسماء كنا نعتبرها أيام ذاك موضع الاحترام والتقديس...

ثم أغلق الباب وانسحب الدركيون، وتلاشت أصوات أحذيتهم في الممرات البعيدة... وما أذكر أنني ذقت طعم النوم في بقية ذلك الليل إلا قبيل منتصفه، إذ سمعت حركة المفتاح وهو يدار ببطء كثير... ثم شاهدت — على ضوء المصباح الخافت — وجه رئيس المخفر (يوسف) يطل من شق الباب، وهو يحمل إلي غطاءه الصوفي ويقول في همس حذر: استعن بهذا إلي الفجر... وعاد من حيث أتى...

وقدرت للرجل صنيعه بهذه المغامرة التي قد تكلفه كثيراً والتي أتاحت لي غفوة كانت جد ضرورية في الساعات الرهيبة...

وكان علي أن أتوقع ظروفاً عصيبة لاندري متى تنتهي، لذلك صممت على الإضراب عن الطعام.. ووجدت في ذلك أقصر طريق إلى التخلص من وجه ذلك المجرم السكير رسلان... ولماذا لاأقول أيضاً: للتخلص من ذلك الطعام الذي لاينتهي إليّ إلا بعد أن تفسده العيدان القذرة بحثاً عما يسمونه بالأشياء الممنوعة...!

وما كان أشد وقع هذا الإضراب على المستشار وأعوانه!.. فما إن جاء اليوم التالي حتى هاجوا وماجوا، وراحوا يستعينون بكل

وسيلة لإقناعي بالعدول عنه ، وبعثوا بالطبيب يتفحصني ويتلطف بي ، فكان هذا يزيدني إصراراً ويرفع طاقتي النفسية ، فرحت أتحداهم قائلاً : ليبعثوا جلادهم . وليصبوا كل مالديهم من أنواع العذاب ... لقد صممت على الموت ولن أعود ... »

ومضت ليلتنا تلك دون تعذيب .. ثم تلتها ليال أخر كذلك .. حتى كان بعد الظهر من يوم الجمعة .. فإذا بالباب ، يفتح ويطل عليَّ دركي طيب القلب طالما زجرته فصبر عليَّ ، ودعاني لمواجهة المستشار وهو يقول في حذر : لقد أفرج عن رفيقك ... ولعلك ستتبعه الآن ..)

ومضيت نحو غرفة المستشار .. وصعدت سلم السراي مستعيناً بالجدار لأقي نفسي السقوط ... وهناك استقبلني فيو بوجه يتصنع الابتسام وهو يقول : إيه سيد غاندي ! ... هل تريد أن ينتهي رمضان ؟ ...

قلت وأنا منصرف عنه إلى النافذة : أنتم الذين جعلتم من شباط رمضان .. وفي يدكم أن تصححوا الوضع ..

قال : حسناً .. لقد أردنا أن نشعرك بأن لدينا سجوناً وأشياء أخر .. وأرجو أن تكون قد انتفعت بذلك ! ..

فشعرت بانتفاضة هزتني هزاً ، وأحسست بالحقد يكاد يخنقني فلم أتمالك أن قلت : لم أكن أجهل هذا .. ولكنني تعلمت في سجونكم أشياء جديدة ماكان ينبغي أن تفوتنا . .

قال : وما هي ! . .

قلت : أن نتخلص من ظلمكم واستكباركم مهما يكلفنا ذلك من الثمن . .

وزمجر فيو .. وانتصب كالدب المصارع وراء مكتبه .. وراح يقول : سأفرج عنك الآن ولكن تذكر دائماً أن تلك الحجرة الجميلة بانتظارك . .

وكان الإضراب قد سجَّل يومه الستين ، وعجزت أسلحة الفرنسيين عن إيهانه وتفتيته ، وكان ذلك الإضراب ذروة سلسلة من كفاح ملأ جوانب الوطن السوري بأشلاء الشهداء .. بدأ بدمشق ثم سرى في أعصاب البلاد كالنار في يابس الهشيم ، حتى شمل كل مدنها ساحلاً وداخلاً .. وكان على العناصر الوطنية فى منطقة الساحل أن تنهض بالحظ الوافر من هذا النضال ، لتثبت للفرنسيين أن عناصر التفرقة لاتمثل إلا مصالحها الزائلة ، وأن جماهير الشعب فى الشط يد واحدة وقلب واحد في طلب الوحدة السورية أمل الجميع . ومن هنا تفجرت طاقات العاملين نشاطاً لايفتر ، وعزيمة لاتكل . ومساعي جبارة سرعان ماآتت أكلها بتجمع العناصر العاملة والمترددة في مؤتمر وطني يقرر مصير هذه المنطقة بشكل حاسم . .

وشاء القدر أن يجتمع المؤتمر في منطقة نفوذ فيو ، وتحت مسكنه شرقي دار الحكومة في طرطوس . ولعل فيو نفسه قد سعى إلى توجيه المؤتمر إلى هذا المكان بغية التأثير في مقرراته .. ولم يدخر وسعاً في حشوه بالألغام الناسفة ، إذ دس العديد من عناصر التخريب الذين لايعصونه ماأمرهم . .

وكانت معركة بكل مافى المعارك من خطط وإحكام ومناورات . .

وانتشر دعاة التيارات المختلفة يبثون أفكارهم هنا وهناك ، ويحاول كل منهم اصطياد المؤيد لاتجاهه . وكان للشباب المؤمن في طرطوس أثر طيب في هذا الميدان الصاخب . .

وفي قلب الصراع جاءني رئيس مخفر السجن ، يقول : « إن المستشار يذكرك بأن الحجرة فارغة بانتظارك .. » .

ولم يكن في يومنا ذاك متسع لخوف ، أو تردد ، فرددت عليه : « قل لفيو : إن الحياة في ظلكم سجن كبير .. فلا فرق بين مكان وآخر منه .. ولكن نهاية هذا السجن قريبة إن شاء الله فلينتظر قليلاً .. » .

وكانت زوجتي تعالج مخاضاً .. وبلادى تعالج مخاضاً .. وكان المألوف أن بين كل ذكر وآخر من أولادي أنثيين ، وكان الدور هذه المرة للأنثى ، فقلت لأهلي وأنا أغادر المنزل يومئذ : ربما لاأعود ، فإذا ولدت أنثى فانتظروا بتسميتها نتيجة المؤتمر ، فإما شر فتسموها (تعساء) وأما خير فتسموها (نعماء) .. .

ولم يأت أصيل ذلك اليوم حتى خرجت ابنتي الرابعة إلى أحضان الدنيا ، وشاء الله أن يجبر قلبها فجنبها أسوأ الأسماء وكساها الإسم الذي لايزال رمزاً على انتصار الوحدة في ذلك المساء (نعماء) ... وتتالت الأحداث السعيدة ذلك اليوم .. وكان أروعها نبأ وصل من دمشق يؤكد أن العدو قد انحنى أمام تصميم أهل الحق .. وأعلن مفوضه (السامي) إقرار فرنسة لسورية بوحدتها واستقلالها . .

وامتلأت طرطوس يومئذ بالأفراح ، ورفعت أعلام الوحدة في كل مرتفع منها .. وكان ذلك اليوم آخر عهد لطرطوس بالطاغية (فيو) ... !

* * *

الرحمة السوداء

كان مزعجاً ذلك النبأ الذي شاع عن مقتل (أ. ر) ومما ضاعف اهتمام الناس به ماأفرغوه علي حادثة الاغتيال من ألوان قصصية مغرية، والثابت أن الرجل كان على فرس له في الطريق بين قريتين ففوجيء بكمين خرج عليه من بين الشعاب، وتبادل وإياه إطلاق الرصاص، ثم انفض القتلة بعد أن تيقنوا من مصرعه...

أما أسباب القتل فقد لبثت مجهولة لم تستقر منها الظنون على واحد، وتفاوت الناس في تقديرها، ولكن أقربهم إلى بيئة القتيل كان يردها إلى عوامل عشائرية محضة... ومن حقه أن يفعل ذلك لأن المطلعين علي أوضاغ تلك البقعة من حكومة اللاذقية ــ أيام ذاك ــ كانوا على علم بالخصومة الحادة التي تحتدم بين القتيل ومنافسيه من آل (خ..) وقد شاهدوا من مراحل تلك الخصومة وتطوراتها ماجعلهم يتوقعون كل شر، ويترقبون بين يوم وآخر إنفجاراً لاينتهي دون دم، لذلك انصرفت أذهانهم فور شيوع النبأ إلى آل (خ...) وأخذوا يحوكون القصص حول مقدمات يحسبون أنهم رأوها أو سمعوا بها... وبالطبع لم يخل بعض هذه القصص من أوهام لاوجود لها خارج تصوراتهم...

وكنت أحد الكثيرين الذين آلمهم مصرع الرجل، ذلك لأنني عرفته كثيراً، وكاد يكون لي صديقاً، ومما قربه إلى نفسي تلك الصراحة البريئة التي كانت إحدى مميزاته...

سألته ممازحاً قبل أيام من مقتله عن حقيقه مهمته في مجلس الإدارة، وكان ينظر في أصابعه وهو يعبث بأظافرها فقال، وقد جللت وجهه المهيب الناصع البياض ابتسامة خجلى: (أتريد أن نكذب!..

والله لسنا في يد الحاكم الأجنبي أكثر من خصية بغل يشد بها ساعة يشاء فنتحرك كما يشاء...)

وكان واحداً من الكبار الذين يقع عليهم اختيار الفرنسيين لتمثيل طوائفهم في مجلس الإدارة ــ البرلمان المحلي ــ وهو اختيار يكلف هؤلاء الممثلين من المتاعب أكثر مما يقدم لهم من الفوائد، ذلك أن الفرنسيين الذين يدفعون الرجل إلى ذلك المنصب هم أنفسهم الذين يدفعون غيره إلى منافسته، فيمدون هذا وذلك بالتشجيع والإغراء، حتى تستحيل بيئة الرجلين إلى جحيم من الخلاف الذي لاينتفع به سواهم، لأن كلاً من الفريقين يحاول استرضاءهم والاستمداد من قوتهم... وبذلك تتابع الأحداث ويطرد الاستغلال حتى يصبح كل إصلاح لذلك الفساد مستحيلاً.

وفي منطقة (ا. ر) بالذات وجد الفرنسيون ظروفاً صالحة لاستعمال القوى التبشيرية كعامل فعال لتركيز دعائم استعمارهم إلى الأبد... فأقيمت المؤسسات الصحية والمدرسية، وتقدم رجال الدين يساومون الأهلين على تغيير دينهم مقابل ضمانات مغرية، وفي الوقت نفسه عرفوا مواطن الضعف في صفوف القوم فنفذوا إليها يوسعونها فى كثير من الحذق الذى عرفوا به، فإذا العشيرة الواحدة عشائر، وإذا الأسرة المجتمعة مزق مبعثرة... ثم لايجد كل من هؤلاء وأولئك سبيلاً لصيانة نفسه من الآخرين إلا باللجوء إلى حماية هؤلاء (الطيبين) من رجال الدين!...

وكانت الخطة الاستعمارية محكمة إلى حد لم يفته تقدير كل شيء، والاستفادة من كل شيء، وفي مقدمة ذلك احتضان هؤلاء المغيرين لدينهم، وإحاطتهم بكل وسائل الكرامة، فما هو إلا أن يقبلوا تسجيل أسمائهم وأبنائهم على الدين الجديد حتى تغمرهم النعمة في المسكن والكسوة والتعليم والرعاية الصحية، وما إلى ذلك، وفي هذا وحده مايكفي لإغراء المترددين بالإقبال على هذا الخير الذي لامطمع لهم بمثله إلا عن هذه السبيل.

والحق أن (ا. ر) لم يكن براض عن ظهور هذا العنصر الجديد في منطقة نفوذه، لسبب بسيط هو يقينه التام بأن خروج أي فرد من عشيرته إلى دين المبشرين سيفقده كل سلطان عليه. ومن يدري؟... فقد يأتي يوم قريب أو بعيد لايبقى له بينهم من يقول له مرحباً!...

ومن هنا جاءت معارضته للحملة التبشيرية... فهو وإن لم يتحمس لمقاومتها، ولم يجابهها بالعداوة الصريحة لم يبد عطفة عليها، ولم يقدم لها أي عون أول الأمر... وهذا وحده كاف لجعله غير مرغوب فيه، لافي نظر أصحاب الحملة ولا في نظر من وراءهم من الأجانب.

وفي غمرة ذلك الصراع الخفي شاءت المقادير أن يعقد مؤتمر طرطوس لبحث قضية الوحدة والإنفصال عام ١٩٣٦ وقد جاء ذلك المؤتمر نتيجة مخاض طويل من التطور الاجتماعي جعل للجيل الجديد من شباب الجبل في حكومة اللاذقية أثره البارز في توجيه الأفكار، وفي صد التيارات الرجعية التي سبق لها أن وضعت الأكثرين من آبائهم في خدمة الأهداف الأجنبية...

وكان المؤتمر فرصة طيبة لم تلبث أن ميزت الوجوه، وصنّفت العاملين في حقل السياسة، فاظهرت كل فريق في وضعه الصحيح...

ولم يستطع (أ. ر) أن يكتم حقيقة يوم ذاك فإذا هو يعلن موقفه في صف الداعين إلى وحدة سورية دون أى قيد أو شرط.

وطبيعي أن يكون لذلك أثره الهام في موقف الجهات الاستعمارية من الرجل، فتتربص به الدوائر، وتستغل الخصومة القائمة بينه وبين أقربائه أشد استغلال... ولكن الظروف التي طرأت على البلاد عقيب معاهدة عام ١٩٣٦ حدت من سلطان الفرنسيين إلى حين... وبذلك تأخر موعد الانتقام من العناصر الخارجة عن طاعتهم حتى استطاعوا تنظيم أنصارهم وتركيز طاقات الموالين لهم بشكل مكنهم أخيراً من نسف المعاهدة والعودة إلى الحكم المباشر.

وكذلك كانت المعركة الجديدة فرصة أخرى لتثبيت التصنيف النوعي، للفئات المتصارعة، فوقف كل فريق في جانب فكرته ... وكان لرجال الحملة التبشيرية دورهم البارز في المعركة إذ حشدوا لها كل طاقتهم في سورية ولبنان فنازلوا الحكم الوطني بالمنشورات المطبوعة في بيروت تحمل أغرب فنون الاختلاق، ودفعوا بالمأجورين للانقضاض على هيبة السلطة الشرعية يبارزونها بكل وسائل التهديم والتشويه ... حتى إذا وافت سنة ١٩٣٩ بإعلان الحرب الثانية دخلت البلاد في هدنة جبرية، ووقف قادة النضال الوطني يترقبون أثر التطور العالمي في مصير وطنهم وقضية أمتهم ...

أجل ... لقد جمدت الحرب العالمية كل ضروب النشاط السياسي في البلاد إلى حين ... ولكن رجال التبشير وحدهم ظلوا محتفظين بأسلحتهم يدبرون للغد، ويركزون الأمور في وعي لكل شيء.

وفي هذا الجو المنظم برزت شخصية (خ..) بقوة ... وأخذت عناصر كبيرة من العشيرة تتألب حوله على صورة لايرى فيها خصومهم إلا ضرباً من التحدي البعيد المدى ... وكان لدى (خ..) قوة ذاتية لامثيل لها عند خصومة ... إذ كان حوله من البنين ثمانية فتيان كلهم يحسن خوض المعارك واستعمال السلاح، وهي كقوة ضاربة من شأنها أن تردع وتجمع، ... ومن ناحية أخرى تغرى الضعفاء بالالتفاف حولها إيماناً بجدوى ذلك التماسك، وثقة بما هو جدير أن يحققه من التفوق المحترم ... فإذا أضيف إلى ذلك عطف رجال التبشير ومن وراءهم على جماعته، وما في ذلك من إيحاء بتحقيق الامتيازات والمنافع العاجلة لمؤيديه، حصل من ذلك يقين بأن الجبهة المنافسة ل (ا. ر) قد أصبحت تشكل خطراً على نفوذه ووجوده جميعاً ...

ومن هنا كان على المحققين أن يبدءوا عملهم إذ ينظرون في ظروف الجريمة ... وهذا مايسر لهم أن يضعوا أيديهم دون جهد كبير على

(بعض) المتآمرين والمنفذين... ثم ينتهي الأمر بإعدام واحد من أبناء (خ..) والحكم على الأب وواحد من بقية أولاده بالسجن عدة سنوات... ثم لايلبث أن يوافي الأجل ذلك الابن السجين، فيلحق بأخيه على مشهد من الوالد المفجوع...

***

لاجرم أن الكارثة كانت أكبر من تفكير الذين قاموا بمباشرة تنفيذها، ولو أتيح لأحدهم فسحة من التقدير السليم لهرب من تصور نتائجها فضلاً عن المشاركة في إشعال الفتنة والتعرض لهذه النتائج التى ماتكاد تنتهي...

لقد كان شديد الإنحدار ذلك الطريق المظلم الذي دُفع إليه من الخطوة الأولى أولئك المساكين... أشبه بعقب دخينة يلقى من نافذة على غير تقدير، فما هي سوى لحظات حتى يكون الحريق الذي يكتسح المدينة...

وهكذا بدأ الخلاف بين (ا. ر) و (خ..) مشاكسات كلامية عن بعد، وتولى أهل الخير تضخيمها فلم تصل إلى الطرف الآخر إلا بعد كثير من التحوير المثير... وجاءت الأيدي المرنة فحاكت من الكلمات حبالاً ومن الإشارات جبالاً، حتي وافى اليوم الذي نسفت فيه جسور الإصلاح، فلم يعد أمام المقدم سبيل إلى الإنسحاب...

وكان في نفس (خ...) شعلة من أمل لم تزايله في أحلك ظروف المحاكمة... أمل بمجهول يكاد يسمع صوته يهتف في أعماقه: قليلاً من الصبر... فلن ندعك!... لذلك ظل متمسكاً بجلده حتي حين سمع حكم القضاء بالإعدام والسجن .. لما جاءه النبأ بتنفيذ الحكم في ولده أصر على تكذيبه، لأنه لايريد أن يفقد ذلك الأمل الذي ماكان يتصور أن الحياة ممكنة بدونه.على أن الزمن هو وحده الكفيل بتغيير الوقائع، وتضميد جراح الفجائع... فما هو إلا أن تيقن من الأمر حتي

سقط في يده، وأدرك أنه كان مخدوعاً... مخدوعاً بغير شك... ولكن ما العمل، وما يجدية أن يعلم بهذه الخدعة بعد فوات الوقت المناسب؟...

وكان متعذراً على (خ..) أن يحني رأسه للعاصفة، أن الصبر من شيم الرجال، ولئن فقد ولدين، وقضي عليه بالسجن كل هذه السنين، فلا ينبغي أن يضيف إلى مصائبه تلك فقدان السمعة حتي يقول أعداؤه: لقد أذللناه... وحطمنا رجولته!... كلا... إن عليه أن يكون أشد جلداً، ولَموتُ أولاده جميعاً وهو على رأسهم أهون من أن يلمح عدو دمعة في عين واحد منهم...

وتولت الأيام تعزية (خ..) حتى ألف واقعة الجديد.. واستطاع أن يصمد للنكبة مدة الحكم دون أن يلوح عليه أي تذمز أو تململ. وعندما حان موعد الإفراج عنه أبى أن يدخل قريته إلا في موكب فخم يشعر كل عدو أنه لم يزل كأمسه الغابر يملك جميع الوسائل التى تحفظ له مكانته!...

وعلى مبعدة أميال من القرية كان عشرات من أنصاره في العشيرة، وفي مقدمتهم أبناؤه الستة ينتظرون وصوله.

وترجل (خ..) من السيارة يصافح الوافدين لاستقباله، وقبل أبناءه فى حنان عميق... ثم أمتطي الفرس التى جيء بها إليه، ومضى على رأس الجميع يحف به مجموع أبنائه، الذين أخذوا مع رفاقهم يملؤون الطريق بالأهازيج، وبالطلقات يرسلونها من بنادق الصيد بين الفينة الأخرى... وبدأ (خ..) في طليعة الموكب كعهد الناس به من قبل.. لم يفقده السجن الطويل والفجيعة الكبيرة بولديه كثيراً من تلك الروعة التي طالما تحدث بها الناس... إن قامته لاتزال في امتدادها الذي يعلو به كل من حوله، وان بدا عليها الانحناء الخفيف، وأثقلها قعود السجن بشيء غير قليل من اللحم الذي لم يعهد له مثله... ولم يبارح عينيه الواسعتين بعد ذلك البريق الصارم الذي طالما سيطر به على أبنائه وأتباعة... وصحيح أن شعرات بيضاء قد بدأت تطل في شاربيه الغليظين، وهلال حاجبيه الكثيفين البارزين... غير أن هذا كسب له

جديد، إذ يضفي على وجهه الأبيض الذي لايزال خالياً من التجعد صورة من الوقار المهيب الذي من شأنه أن يضاعف جمال القوة...

وظل موكب (خ..) يزداد تكاثفاً بما ينضم إليه من أهل القرى المجاورة حتي إنتهي إلى قريته التي خرجت جميعها للمشاركة في الإستقبال...

وعندما وطيء عتبة الدار كانت عشرات الطلقات من بنادق البارود تصفع الهواء... وتعالت أصوات النساء ترتجل الأغاني القروية في تمجيد القادمين... ولكل أغنية قرارها الملائم من الزغاريد...

***

لم ينته الإستقبال بدخول (خ..) داره... بل لم يستقر في بيته حتي آستؤنفت الاحتفالات في الساحة القرية، حيث قدم الطعام للجموع، وأديرت أواني الخمور، ثم عقدت حلقات الدبكة التي انتظمت الشباب والصبايا، فراحوا يتمايلون على دوي الطبول وزعيق المزامير... وظل ذلك إلى ساعة متأخرة من الليل حيث بدأ الناس بالإنفضاض... ثم مالبثت الساحة أن اقفرت من آثارهم ليبسط عليها الليل جناحية...

ونام كل شيء فى القرية... إلا هذه الدار.. التى لم يفكر أحد ممن بقي فيها بالنوم، وكان ذلك طبيعياً، لأن أفراد الأسرة لم يتمكنوا من التفرغ لأنفسهم قبل أن ينفض المهرجان.

وكان (خ..) في أمس الحاجة إلى مثل هذه الخلوة ينفرد فيها باهله، ليتعرف منهم أخبار الناس، وما هو في شوق إلى معرفته مما لاتستطيع تعبيراً عنه كل هذه المظاهر... وهو إلى ذلك كان يستشعر ضيقاً في الصدر لم يفارقه طوال هذا النهار، وما يدري سبباً له إلا أن يكون من التعب الذي عاناه في هذا الاستقبال...

وأشار الرجل إلى أبنائه وبقية أهل بيته بالسكوت... وملأ صدره بمصة كبيرة من الدخان، وبرم طرفي شاربيه الأحمرين الكثيفين، ثم وجه كلامه إلى زوجته قائلاً: كيف حال الجماعة؟...

وتنفست المرأة طويلاً قبل أن تجيبه: ذقنا منهم المر... ولكن اليوم شفينا الصدور... ودفع (خ..) في جوفه دفقة من العرق الصرف كبيرة ثم واصل: والأب ك... وبقية الشلة... كيف شأنهم؟!

وهنا ضجت الغرفة الكبيرة باللغط... وبصعوبة فهم الرجل من زوجته هذه الكلمة:. «لقد نسونا تماماً... وهم مع (الجماعة) بكل صراحة..»

فلم يبد على الرجل أي أثر للإستغراب وقال: «عرفت هذا من زمان... إيه!... لقد خدعونا طويلاً... ولكن...»

ولم يشأ الإسترسال في هذا الحديث الموجع، وهو أحوج ما يكون إلى تناسية؛ ورأى أن العودة إلى الصخب والغناء أجدى في معالجة ذلك التوتر الذي يعتصر صدره، ولذلك أشار إلى من حوله بطي ذلك البحث... وإستئناف مهرجانهم الخاص...

وإنطلقت هنا حناجر القوم ترتل في نغم صاخب مقاطع حماسية من النظم الشعبي المثير... وشرعت الهتافات تنطلق بين مقطع ومقطع بحياة القادم المنتصر... ودوى الفضاء مرة أخرى بأزيز الطلقات النارية يرمي بها الهواء من النوافذ ممزوجة بالزغاريد...

... وكانت الساعة قرابة الثانية قبل الفجر عندما شم (خ...) رائحة التبن المحروق تتصاعد من تحت... وما هي إلا لحظات حتى ملأ الدخان فضاء القاعة، وراح يثير السعال فى الحضور جميعاً... وسمعوا طقطقة متتابعة كأن أشياء تحترق...

وتحرك كل من هناك يفتشون عن مصدر النار... وإتجه إثنان من الشباب إلى السلم الخشبي يريدان أن ينحدرا إلى القبو لأطفائها... فإذا طلقات متتابعة من الرصاص تحصدهما حصداً فيهويان على رأسيهما إلى

صحن الدار جثتين هامدتين...

وهنا فقط أدرك الحضور هول المفاجأة وعرفوا أن العدو قد حصرهم بين النار والرصاص... فلا منجاة لهم إلا بمعجزة!...

وبدأت أرض الغرفة تتساقط بعد أن التهمت النيران أخشابها من أسفل، فلم يبق إلا أن يقذف كل بنفسه من إحدي النوافذ... ورأى (خ) أحد أقربائه يهوي به الخشب المحترق إلى أحضان النار... فلم يجد بداً من الوثوب إلى الخارج كيفما كانت النتيجة... وألقت الزوجة بنفسها وراءه... ولكن الأجل كان ينتظرهما غير بعيد... فأستقبلا حتفهما ذبحاً بيد مجهولين...!

وأقبل أهل القرية على صوت الرصاص، وعلى ضوء اللهيب... بيد أنهم لم يجدوا إلا رائحة الشواء... وركاماً من الحجارة تأكلها النيران... التى أخذت تزحف نحو القرية، فكان عليهم أن يبادروا إلى درء الخطر الماحق عن بيوتهم قبل أن يسألوا عن أسبابه ونتائجه وضحاياه...

***

وطلع صباح ذلك اليوم غائماً ملففاً بكثيف من الضباب الخانق... وكان الناس يتحدثون بالجريمة الجديدة التي ذهبت بخمس أنفس... فم يبق من أسرة (خ) بعدها سوي ثلاثة فتيان وثلاث بنات شاء القدر لأمر ما أن يكونوا خارج منطقة الموت...

وكرت الأيام في سيرها نحو المجهول... وجاء يوم لم يكن متأخراً جداً رأى الناس فيه أولئك المتخلفين من القافلة يلوذون بحماية أولئك الرهبان الطيبين الذين استطاعوا أن يظللوا برحمتهم السوداء البقية الباقية من كلا الجانبين المتخاصمين...!

المفاجأة الأخيرة

كان ذلك عام ١٩٤٠ ، وفي اليوم العاشر من شهره الأول ...

وكان من موجبات الرياضة الصباحية التي أخذت بها نفسي أيام ذاك أن أخرج على دراجتي إلي ظاهر المدينة — طرطوس— حتي جسر الغمقة ذلك النهير الذي يجرى نحو الشاطيء القريب، يتدفق في بعض، الفصول في نشاط وقوة حتي ليتغلب علي حواجز الجسر فيطغى فوقه قاطعاً الطريق علي المارة، ويبطؤ في فصول أخرى، ويسرف في البطء والتكاسل، حتي ليعجزه الجري، فيقف منهوكاً، ويغيض أكثره، فلا ترى منه دليلاً علي الحياة إلا بقعاً من الماء متفرقة هنا وهناك، تسبح في بعضها بقايا الحنكليس مفتشة عن طعامها، ويعج بعضها الاخر بصغار الضفادع متدافعة نحو النور من تحت النسيج الطحلبي الكثيف..

وما أدري بالتحقيق لماذا كنت أستشعر الضيق المرهق عندما تؤخرني بعض المشاغل عن موعد هذه الرحلة عقيب صلاة الفجر من كل يوم، أهو ولعي بالطبيعة الذي ملك هواي فلا تستريح عيني إلى منظر إلا إذا تخلله شيء من زرقة البحر، أو صفرة الأصيل، أو خشوع الهضاب النائمة على مغربة من البلد الصغير في ناحية المشرق..!

أم هو ثقل الضغط الذي أناخ على صدري منذ حين، فشحن أعصابي بالتوتر الذي ينذر بالإنفجار..!

والظاهر أن الأمر يعود إلى هذه الناحية الثانية دون غيرها، ذلك لأن الجو الخانق الذي كان يحيط بي أيامئذ من شأنه أن يدفعني للبحث دون وعي عن متنفس أفتح له صدري، في نجوة من العيون التي كنت أحسها تلاحقني أنّى اتجهت..

إنه جو الحرب الذي يملأ الفضاء برائحة البارود، ويفعم الخيال بصورِ الأشلاء، ويهوي علي الصدور بآلاف التوقعات المخيفة المحزنة..!

كنا قبيل عام ١٩٣٩ في غمرة من النشاط الجارف، لنشعر بكثير من العزة إذ نرى أنفسنا نحن الشباب قادرين علي إزعاج ذلك الغاصب الذي اكتسح وطننا منذ عشرين سنة، ولا يزال باذلا أقصى جهده لتثبيت وجوده بكل ضروب الأغراء والإرهاب.

ولم تكن ثمة خطة منظمة تقودنا في هذه المعركة غير المتكافئة، ولكنها روح الكفاح العام، الذي أثارته بطولات هنانو والجابري والأتاسي والأطرش والخراط ومئات المناضلين الكبار من إخوانهم، كان يهز كياننا بعنف، فيبعث في أعطافنا طاقة لم تلبث أن غمرت السهل والجبل من محافظة اللاذقية، فإذا هناك المنشورات نوزعها في كل مكان، وفيها أخبار النضال الذي تخوضه دمشق وحمص وحماة، وحلب، مما حال المستعمر دون وصوله إلى أسماع الناس هنا، وفيها حث على الإضراب إحتجاجاً على المجازر التي يثيرها ذلك الوحش الغاصب في وطننا الأبي، وتوسيعاً لجبهة العمل القومي الذي لا يجوز أن يتخلف عنه ذو ضمير..

وجاءت ظلمة الحرب.. وكأنما كانت بالنسبة إلي الكفاح الوطني هدنة جبرية، فوجيء بها الناس فاضطروا لوضع سلاحهم إلي حين..

وفرض علي سورية أن تتجرع قسطها الـ..ـر من أهوال الحرب: مصادرة للحريات، وحصراً للأموال، وأخذاً بالشبهات وكان حظي من ذلك بعد تسريحي من وظيفتي في التعليم الإبتدائي أن زج بي في السجن العسكري مع خليط عجيب من الناس، بينهم ذوو العمل السياسي الذين تعودوا مثلي السجون، وفيهم من كان اعتقاله خطأ مطبعياً، فإذا هو ينطلق بالبكاء ويحلف بكل الأيمان أنه لم يأت إثماً.. ولم يشارك قط في عمل وطني...!..

ولم يطل زمن سجني هذه المرة فإذا أنا أخرج منه، لا لأسترد حريتي بل لأجد نفسي في سجن آخر حدوده البيت والشارع والمقهى، أما حراسه فطائفة من (الجارد موبيل) يتبادلون نوبة (المحافظة على راحتي)، من الصباح حتي لحظة النوم!..

وما كان هذا بالأمر الذي لا يحتمل لولا ردود الفعل التي أثارها من حولي في نفوس الضعفاء الذين هالهم ذلك، فلم يجرؤوا علي معاملتي أو مقاربتي، مما قضي علي أن أزجي وقتي في قلق ووحشة لا يقدران..

وكنت مضطراً للبحث عن الرزق، فيسره الله في عمل تجاري، اقترضت رأس ماله من صديق طرابلسي، رضي أن يقدم لي بعض المال مقابل قسم معين من الربح..

واقبلت علي عملي الجديد شاغلاً به كل طاقتي ووقتي أنهض له مبكراً، ثم لا أعود منه إلا إلى صلاة العشاء ومن ثم إلي النوم..

ومن هنا كانت رحلتي هذه جزءاً من تنظيم يومي فرضته على نفسي، لأساعدها علي التخفف من أعباء ذلك الضغط الذي ليس أجدي في مكافحته من التشاغل عن مواجهته..

وحملتني الدراجة إلي مكاني المألوف من جسر الغمقة، وأسندتها إلى أحد الجدارين لأهبط نحو الماء، حيث اعتدت أن اعقد حبوتي بجانب تلك الشجيرة اليتيمة من التين..

واستسلمت إلى بقية من الأحلام الشعرية تفتح مغاليق قلبي لنقيق تلك الضفيدعات التي استقبلتني بحزمة ضخمة من الأصوات المنتظمة الضائعة بين التحية والاحتجاج..!

وتركت لأناملي أن تعبث ببعض العشب النائم تحت التينة... وراقني ذلك اللون القرمزي الذي يصبغ ما حوله من الحصى فأخذت أقبله وأنعم فيه النظر كأنني أبصره لأول مرة في حياتي.

وحانت مني التفاتة ناحية الحقل المقابل، فإذا رجلان من القرويين يشخصان ببصرهما إلي، ولكنهما ما إن صافحا نظري حتي انصرفا إلى عملهما فـي الحفر، وانصرفت الي تأملاتي الحالمة، ولكنني لم ألبث أن عاودت النظر إليهما في غير وعي، فإذا هما يشخصان ببصرهما إليَّ ثم ينصرفان إلي عملهما.. كشأنهما في المرة الأولي.

وتكرر ذلك مني ومنهما كرة بعد أخري... ولعلنا أنا وهما كنا نلتقى بأفكارنا التي يلتقي عندها طفلان أجبر كل منهما أن يحدق في

نلتقى بأفكارنا عند نقطة واحدة لاتستحق منا أكثر من الضحك.إنها النقطة التي يلتقي عندها طفلان أجبر كل منهما أن يحدق في عين الآخر، فما يلبثان أن ينفجرا ضاحكين!!..

وكدت أضحك عند هذا التصور.. لولا أنني فقدت القدرة علي الضحك من زمان.. فقدتها تحت ثقل هذا الجو الخانق الذي جف عضلات وجهي، فلا تتحرك إلا في جهد!..

وبدأت خيوط الشمس تتسلق الأفق الشرقي مؤذنة بإطلالتها المدفئة... فكان عليّ أن أنهض.

ولم أنس وأنا في الطريق إلي متجري أن ألقي علي القرويين العاملين في الحقل تحية الصباح.

.. وتتابعت الساعات وكل شيء يسير في مجراه الطبيعي.. القرويون يعرضون نتاجهم.. ويساومون علي حاجاتهم والباعة يحاولون اجتذاب المارة بكل وسائل الإعلان..

ووقفت علي مدخل متجري أرتقب المارة، وأفكر في هذا المسكين الذي كلف اليوم مراقبتي، فاتخذ مجلسه علي باب المخزن المقابل منذ أربع ساعات عندما فتحت محلي.. غير أنه كان أشد وقاحة من زملائه، إذ بلغ به الفضول أن جاء يفتش الداخلين إلى حانوتي.. ينظر في هوياتهم، ويسألهم عن حاجاتهم. فكأنه مكلف بقطع رزقي، ومنع الناس من دخول متجري..

ولكني لم أعارضه بشيء سوى أني قررت في نفسي أن أقدم إلى الحاكم الفرنسي معروضا التمس به نقلي إلى السجن.. إذا كان مصمماً على الإستمرار في مضايقتي إلى هذا الحد.

وفي هذه اللحظة طالعني من جانب الشارع الأيسر شخص أعرفه من جلاوزة البلدية، وقد لفت نظري منه تلك الابتسامة المريبة مصحوبة بنظرات إليّ متعمدة.

ثم مالبث أن ألقي عليَّ التحية في لهجة أشعرتني أن لتلك الإبتسامة علاقة بي وثيقة، ورددت التحية بخير منها.. وبطبيعة البائع قلت له: تفضل.

ولم يكن بحاجة إلى أكثر من هذه الكلمة، فإذا هو ينحرف نحوي، ثم يدخل الحانوت مشبكاً يديه خلف ظهره، ودون مقاومة انطلق في قهقة صغيرة..

قلت له مازحاً: لعلها بقية من سكرة بائتة..!

قال: بل هي سكرة جديدة من أثر قصتك..!!

قلت: ولكن الحرب لم تدع لنا مجالاً لنشر أي قصة.

وهنا جدد ضحكته ثم قال: إنها قصتك التي لم تكتبها بعد.

وكان عليّ أن أفكر بما يريد، فلم أجد في ذهني شيئاً، ولم ألق تفسيراً لكل ما أرى... فقلت: أوضح..فأنا منك اليوم أمام لغز لا أعرف له حلاً

وتلفت يمنة ويسرة ثم قال: أتذكر القرويين اللذين لقيتهما عند جسر الغمقة!...

إنهما جنديان من (الجارد موبيل) كانا مكلفين باعتقالك، وتقييدك، وبإطلاق النار عليك إذا أبديت أقل مقاومة..!

أما لماذا .. فأسمع: لقد حمل البريد أمس رسالة رئيس البلدية تنذره أن ابنه (رياضاً) معرض للاغتيال إذا هو لم يشتر حياته بمئتي ليرة ذهبية... فعليه إذا شاء إنقاذه أن يضع المبلغ المطلوب غرب جسر الغمقة، تحت شجرة التين، ضمن مهلة تنتهي مساء أمس، وإلا نفذ حكم الموت بإبنه خلال الأسبوع.

وتابع الشرطي: ولقد عرض الرئيس موضوع الإنذار على الحاكم الفرنسي، فاتخذ للأمر ما يجب من التدابير، وفي مقدمتها مراقبة مكان الشجرة والقبض على كل قادم نحوها حياً أو ميتاً!. ولم ير الجنديان ضرورة التعجيل بعد أن عرفاك وأبصراك متلبساً بالجريمة .. جريمة الجلوس عند التينة، وتفتيش ما تحتها، واكتفيا بتقديم تقريرهما إلي الحاكم الذي أودعهما السجن عقوبة لهما علي ذلك التهاون. وقبل قليل كان الحاكم على أهبة إصدار الأمر باحتجازك لولا المفاجأة الاخيرة...

وسكت قليلاً ليثير أشواقي ثم تابع: لقد جاء السائق (فلان) إلى رئيس البلدية يقص عليه خبر الإنذار، ويعترف أنه ورفيقه (فلاناً) قد كتباه ثم أودعاه تحت تأثير السكر...

***

قصّة قنبلة

ست عشرة سنة قد تراكمت حتي الساعة فوق تلك اللحظة.. ولكنها لاتزايل خاطري، وكثيراً ماتطالعني بها الذاكرة علي غير موعد، فأحس لها من الرهبة ما يجعلني أعيشها من جديد، كأني أشهد أحداثها لتوي، فإذا أنا متوتر الأعصاب ثائر الفكر أتصور عشرات الوسائل التي من شأنها أن تساعدني علي دفع الخطر.

كان كل شيء يومئذ ينذر بالشر.. وكان الحذر هو الصفة البارزة التي تغمر الناس، فكل فرد يتوقع شيئاً مخيفاً، وإن كان لا يدري من أين سينقض عليه..

علي الرغم من شدة التدابير التي اتخذها الفرنسيون لعزل أسماع الناس عن أخبار المدن السورية الأخرى، فقد كانت هذه الأنباء تأخذ طريقها إلي كل مكان ومن كل مكان، مصورة المسلك الوحشي الذي عمدوا إليه في دمشق وحمص وحماة وحلب واللاذقية، لخنق الانتفاضة الجديدة ضد استمرار ظلام الاستعمار، تلك الانتفاضة التي كانت حصيلة الكبت الثقيل الذي أناخ بكلكله علي الصدور طوال خمس سنوات الحرب فجاءت تعبيراً عن الأمل الجديد الذي أخذ يراود الشعوب المستضعفة في كل أقطار آسية وأفريقية، بأن تكون هذه الحرب الطاحنة مبدأ مرحلة جديدة في طريق التحرر التام من جميع ألوان الظلم والإغتصاب والآلام.

والحق لقد كان لسوء تصرف الفرنسيين في كل مكان فضل كبير في إثارة النفوس ودفعها للنضال من جديد، علي وجه أتم وأجدي مما كانت عليه من قبل، ولقد أفاق الطرطوسيون ذات يوم ليجدوا أنفسهم

في جو كل شيء فيه يوحي بأن ثمة معركة تقترب، فالطرق مغلقة، والجنود الغلاظ من السود والمرتزقة يقفون بحرابهم علي مدخلها، لا يسمحون لأحد باجتيازها إلا بعد كثير من الإهانات، وعديد من اللكمات.. وما هو إلا يسير من الوقت حتي كان الشعور بالخطر قد أخذ بتجميع القوى، وتوحيد الأفكار.

وقد عجلً في ذلك جبن الفرنسيين الذي أحاطهم بجو من الخوف جعلهم يتخيلون أن كل شيء يستعد للانقضاض عليهم، فلم يجدوا ما يحمون به أنفسهم سوي الإرهاب، يصبونه علي الناس بمختلف الأشكال.. وبدأوا يسيرون دورياتهم في جميع ساعات الليل والنهار، على صورة لا يعرفها الناس إلا في جبهات المعارك.. وقد بلغ هذا الإرهاب قمته خلال هذا الأسبوع، إذ انطلقت تلك الدوريات في شاحنات مكشوفة، نصبت فيها المدافع الرشاشة موجهة إلى صدور المارة، وخلفها الجنود بخوذهم الفولاذية، مستعدين لإطلاقها لدى أول إشارة، وجعلت هذه الشواحن تجوب الأحياء كلها، يرشدها زمرة من الموتورين الذين استولى عليهم الأجنبي بغير ثمن.. فيثير منظرها كوامن الأحقاد، ويشحن النفوس بالوقود الذي يجعلها علي أهبة التفجر...

وفي هذا الجو الحربي أضحى السلاح أهم ما يفكر به كل فرد، فيسعى للحصول عليه من أي سبيل، ولم يكن ذلك متعذراً مادام الطريق إلى حماة مفتوحاً، فحماة تخوض معركتها الكبري ضد العدو صفاً مرصوصاً لم يتخلف عنه قادر.. وأخبار انتصاراتها الرائعة تملأ قلوب الطرطوسيين وسائر مدن الساحل حمية وتشوفاً إلي مثلها.. وقيادة حماة الوطنية تعرف أن موقع طرطوس يؤلف جبهتها الخلفية التي سيعمد العدو حتماً إلي التسرب منها إلي حماة.. فواجب إذن لامناص منه أن يملأ هذا الثغر الحساس بالسلاح الذي يكفي لشغل العدو..

وتوثقت الصلة بين طرطوس وحماة بشكل لم يعرف له مثيل من قبل فمن حماة يرد السلاح إلي طرطوس، ومن طرطوس ينقل الجنود المغاربة إلى حماة.. أولئك الذين يفرون من ثكنات العدو، ليسهموا مع اخوانهم بنصيبهم من القتال ضد العدو المشترك....

وهكذا، وخلال وقت يسير، كانت دوريات الشباب الطرطوسي الشاكي السلاح تجوب أطراف المدينة في كل ليلة، حتي تنتهي إلي حدود الثكنة الفرنسية، وأقبلت نجدات الجيش الوطني للإسهام في حماية البلد، فازدادت بذلك معنويات الشعب قوة، وعرفت طرطوس أيامئذ ألواناً من التضامن العجيب بين كل فرد وآخر من العاملين في جبهة الحرية، وبين هؤلاء وافراد الجيش الوطني الذين غمرهم الأهلون من الرعاية والخدمة والحب بما جعلهم كتلة من الحماسة المتدفقة..

وطبيعي أن ينتهي هذا الاستعداد من كلا الجانبين إلي الاحتكاك الذي لامهرب منه، وقد حدث ذلك ظهر أمس إذ بلغ تحدي الفرنسيين أشده، حين بعثوا بالمرتزقة من جنودهم يستفزون الناس، ويعتدون علي المارة... وما هو ألا أن انتشر الصريخ في أحياء المدينة حتى انطلقت القوى الشعبية تتجمع هنا وهناك.. وقد استقر في قلوب الجميع دون اتفاق سابق، أنه لابد من ضربة تشعر العدو بقوة الصف الشعبي... وانفجرت الشرارة الأولى بحزمة من المتفجرات قذفهم بها أحد الفتيان علي حين غفلة، فإذا هم يتدافعون بالمناكب في الطريق إلي الثكنة، وقد كاد يدوس بعضهم بعضاً. وفي هذه الغمرة من الاضطراب فوجئوا بسيل من بندقية رشاشة خرّ علي أثره سبعة منهم يلفظون أنفاسهم.. ولولا تحرك القوة الإنجليزية لحماية بقيتهم لارتفع عدد ضحاياهم أضعافاً مضاعفة.. وكان هذا درساً كافياً أقنع الفرنسيين بأن الأمر قد أفلت من أيديهم ،فليس من مصلحتهم أن يغادروا أوكارهم بعد اليوم إلا تحت ستور الظلام.

***

وجاء صباح اليوم التالي، وكنت علي مقعد خارج المستودع، أدقق حساب اليوم الماضي، منتظراً فراغ الخدم من ترتيبه، حين لمحت عيني تلك المفاجأة الرهيبة.. جندي من مرتزقة العدو يمشي في حذر شديد، وفي يده شيء.. وعيناه منصبتان عليَّ...!

وفي سرعة أدركت كل شيء.. لقد كان ذلك الشرير قابضاً على قذيفة يدوية في وضع التأهب للإطلاق، وكان اتجاهه مركزاً علي المستودع!...

لم أكن بحاجة إلي كبير ذكاء حتي أعلم أنني ورفاقي المستخدمين نوشك أن نتحول أشلاء.. ثم يعقب ذلك مجزرة لا يدري غير الله عواقبها...!

ومن يدري.. فقد يكون وراء هذا الشيطان عشرات من رفاقه ينتظرون بدء المعركة، ليثأروا للضحايا الذين خسروهم أمس.. وربما كان الأمر أيسر من ذلك فلا يعدو أن يكون وحيداً عجز أمس عن اللحاق برفاقه فاختبأ في إحدي الدور الموالية حتي الساعة.. وهو الآن يأخذ طريقه إلي الثكنة!...

وإذا صح التوقع الأخير فليست هذه القذيفة بيده إلا دليلاً على ما يركبه من شديد الخوف.. ومهما يكن من شيء فإن أمامي مشكلة هائلة تقتضي أن أفكر وأحكم وأنفذ في سرعة البرق..!

وكاد الندم يصعقني عندما تذكرت أنني وضعت المسدس قبل دقيقة في درج المكتب، وهو الذي ما كانت حمائله لتفارق عنقي منذ شهر علي الأقل.. فلم يبق ثمة أمل إذن باستعمال السلاح، وكل ما أستطيعه هو أن أدعه حتي يصير إلى أضيق نقطة من الطريق المواجه لمدخل المستودع، فأثب عليه بخفة النمر لأقذف به إلى المنخفض.. منخفض الشاطيء المقابل..

واتخذت وضع المتحفز، وأنا أراقب خطوات الجندي بمؤخر عيني...

وأحسست أن لدي من القوة ما أستطيع به أن أرفعه كالريشة وأضرب به الأرض...

ولكن... شاءت حكمة الله أن تبطل في اللحظة الأخيرة كل ما أعددته من خطط لدفع الكارثة...

حدث ذلك حين أطل عليَّ وجه الموظف (مدحة ...) من طرف الشارع الأيمن، فرفعت صوتي باسمه أدعوه إلي تناول مخصصات دائرته من الحبوب والسكر ...

ووصل الموظف (مدحة ...) ورفيق معه إلي باب المستودع .. في اللحظة نفسها التي وصل فيها الجندي إلي المكان المنتظر ...

وأدراك هذا أنه إنِ قذف بالقنبلة فسيقضي معنا علي إثنين من أذناب أسياده .. وهي خسارة يتعذر تعويضها في هذه الظروف العصيبة ...

وهكذا لم ير متسعاً لتنفيذ جريمته .. وبالتالى لم أجد ضرورة لتنفيذ مغامرتي ...

وكفي الله المؤمنين القتال ...

***

راحت..!

كان أبو عيد بناء نشيطاً لايجهله طرظوسي من ذوي العلاقة بهذه المهنة، وقد عرف بالإتقان والإخلاص حتي أصبحا له صفة مميزة، وأتصف إلي ذلك بدماثة تقربه من القلوب، فهو بذلك كثير المعارف والأصحاب، لايعدم أن يجد أنسه في كل مكان حل به أو عبر...

أدركته في الستين من عمره، فكنت أرى فيه نموذج العامل الذي صقل الدأبُ أعصابه فجعله كتلة من الحيوية لايعرف الوهن إليه سبيلاً: جسد صغير ضامر أدنى إلي القصر، مدمج الأعضاء براق العينين، يحييك فتشعر أنه يضع قلبه في كلماته، ويصافحك فتحس أنك تضع راحتك في قطعة من الحجر الخشن، أشبه بتلك الحجارة الرملية التي يقضي أيامه في ملامستها... لايقدر له من السن أكثر من الخامسة والأربعين، ولولا اعترافه هو بأستيفاء العقد السادس لما أكتشفت حقيقة سنه...

كنت آنس بقربه... ويبادلني هو ذلك الشعور فلا ينسي أن يمر بي، وبخاصة يوم الأحد، حيث يقضي في حانوتي وقتاً غير يسير... ويرجع السبب في هذه الصداقة إلي ناحيتين: أحدهما تتصل بذكرى والدي الذي كان أبو عيد أحد أترابه ومن رفاق طفولته، فكنت أجد في صلتي بهذا الرجل تجديداً لذكرى لاأحب أن يضعفها الموت. وأما الناحية الثانية فتعود إلي ماأحمله نحو هذا الرجل من شعور الإعجاب الممزوج بالشفقة... ذلك أن أبا عيد يعيش في طرطوس وحيداً لاأنيس له إلا معارفه... وقد رضي هو لنفسه بهذه الوحشة حين رضي لزوجته وولديه بالهجرة إلي البرازيل استجابة لأبنه الأكبر، الذي كان قد سبقهم إليها قبل خمس عشرة سنة...

لقد حالف التوفيق ولده البكر عيد، فما زال يتدرج من نجاح إلي نجاح حتي أصبح يملك في مهجره متجراً كبيراً ... وكان شديد البر باهله لم تزده الثروة إلا حباً لهم وحدباً عليهم، فهو يمدهم بالمال، ويريد منهم أن لايضيقوا علي أنفسهم بشيء يؤمن لهم الرخاء والسعادة، وقد خصص لأخويه جورج وإلياس مقداراً وافراً من النقود يحوله إليهما كل شهر، لتأمين دراستهما وحاجاتهما المختلفة بعد أن أكد لهما أن الباب مفتوح بوجهيهما إلي قمة الدراسات الجامعية في أي مكان من العالم ...

ولم يكن الفتيان ممن ينقصهم الذكاء أو الاجتهاد، فوجدا في هذا العون الكريم فرصة طيبة لنشاط حقق لهما أعلي الدرجات في دراستهما الثانوية، ثم لم يلبثا أن غادرا البلاد مع والدتهما إلي البرازيل، ومن ثم أخذ كل منهما طريقه إلي الجامعة التي أختار، فكان حظ جورج أشهر كليات الهندسة في باريس، وآثر الثاني دراسة الطب في الولايات المتحدة ...

ولا شك أن أبا عيد إنما رضي بفراق أولاده إيثاراً لمصلحتهم، ولكنه في الوقت نفسه كان مصمماً على اللحوق بهم بمجرد إنهائه بيع الدار والأملاك الصغيرة الأخرى، التي كان قد اشتراها بما زاد عن حاجتهم من مال المهجر ... لذلك كان اشتعال الحرب الثانية عام ١٩٣٩ صدمة هائلة بالنسبة إليه حطمت أمله بإمكان السفر إلي البرازيل، وشحنت قلبه جزعاً علي جورج الذي قُضيَ عليه أن يعيش في قلب المعركة من أوروبة ...

ومن هنا كان إعجابي به ممزوجاً بالشفقة عليه ...

***

وخاض أبو عيد طوال سني الحرب معركة من القلق لم يحلم بمثلها قط ... وجعل دأبه تتبع الأخبار الحربية يتقصّاها من بيوت الجيران وفي المقاهي، والحوانيت ... وكلما تجمع لديه جديد منها ضمه إلي سابقه

وأخذ يقيس ويستنتج ويحكم... ولكن سرعان ماتأتي الوقائع الجديدة بخلاف ماذهب إليه فيهدم كل مابني ليبدأ تتبعاته ومحاكماته من جديد...

وكان قلب أبي عيد متعلقاً بفرنسة من بين الدول المُتحاربة جميعاً، ومرد ذلك إلي أمور لايستطيع منها تخلصاً، لعل من أهمها وجود صغيره جورج في باريس... لذلك ماكان ليستطيع الصبر علي أية إساءة توجه إلي فرنسة، ولا يقبل أي رأي يقول بضعفها في هذه الحرب، فهو دائماً يؤكد أنها هي المنتصرة، وأنها هي التي ستحطم آمال ذلك المجرم الكبير الدي يسمونه هطلو أو هيلتر!... ولما توالت الأنباء عن اقتحام الجيوش النازية لحصن ماجينو، واجتياحها العاصمة الفرنسية أبى أن يصدق، وراح يصيح في وسط رواد المقهى: إنها أخبار ملفقة، وأن فرنسا لن تنهزم... وأنه هو سيحطم بعصاه رأس كل من يجرؤ على القول بذلك! وسرعان ماوجد أبو عيد نفسه في عزلة جديدة إذ لاحظ أن الكثيرين من جلسائه في المقاهي والحوانيت قد أخذوا يلتزمون السكوت بحضوره، وكأنهم يقولون له بلسان عريض: هيا أذهب من هنا.

.. وإذا أطال المكوث وراح يثرثر في عرض أحكامه واستنتاجاته قابلوا عمله بالانفضاض واحداً تلو الآخر، حتي لايبقى حوله سوى المقاعد الفارغة!... وهكذا انتهى إلى أن لايجد جليساً له خارج نطاق جيرانه، فلم يجد بداً من الأكتفاء بهم حيث ألفى متسعاً لاجترار آلامه مع أولئك الذين يشاطرونه هيامه بفرنسة، ونقمته الجارفة من الآخرين الذين يبغضونها ويتمنون لها الهزيمة...

ثم تتابعت هزائم فرنسة، واحتلت القوات الديغولية مع حلفائها الإنكليز مكان السلطات الفرنسية الأخري من سورية، فكان ذلك مدعاة لانتعاش دغدغ آمال هؤلاء المتيّمين بفرنسة بعد ذبول... وكانت الحرب قد بلغت نهايتها، ثم جاء يوم النصر فوجد فيه هؤلاء منطلقاً واسعاً لعواطف الابتهاج، وإذا هم يطوفون البلد في سيارات الفرنسيين راقصين معربدين...!

وكان من حق أبي عيد أن يشارك في الإعراب عن مشاعره فسار في مقدمة الموكب يهزج بما يعلم وما لايعلم من الأغاني، ويلوح بعصاه إلى الأعلى كأنه يتحدى كل شيء...!

***

لقد شاء الصلف الفرنسي أن يتخذ من مناسبة يوم النصر فرصة لترسيخ قواعده في سورية، فجعل من تلك الاحتفالات تظاهرة سياسية تعمد أن يشحنها بكل مظاهر الإهانة والإرهاب.

وكان الكبت الذى عانته البلاد طوال فترة الحرب قد بلغ حد الإشباع، واستحالت به الأعصاب ألغاماً متأهبة للتفجر، فإذا هي تجد بدورها في يوم النصر نقطة الانطلاق لاستئناف الكفاح في سبيل الاستقلال...

وسرعان ماأحتدمت المعركة... معركة الحرية... وأستيقن الفرنسيون أنهم أمام تصميم لايجدي معه الإعتدال والكلام، فأطلقوا العنان لوحشيتهم المعهودة، وأفتتحوا عهد الإرهاب الجديد بتلك المذبحة التي أوقعوها في حرس البرلمان السوري، وقد أرادوا بها أن تكون نموذجاً رادعاً لما ينتظر كل جزء من هذه البلاد في نضالها الجديد. ولكن المجزرة سرعان مازلزلت الأرض تحت أقدام الصلف الفرنسي، إذ ألهبت مشاعر العزة في كل قلب مؤمن بالحرية، فامتدت النار إلي كل دار، وتجمعت الطاقات العاملة في جبهات منظمة لنضال حاسم...

وهنا برزت العناصر الموالية للفرنسيين تمدهم بكل ماأوتيت من قوة، حتى لم تتورع أن تقدم لهم الأدلاء الذين يرافقون سياراتهم لتعيين مواقع الوطنيين...

وفي هذا المجال كانت طاقة أبي عيد محدودة تقتصر على الدعاء لجنود فرنسة، وتحث المحايدين من إخوانه على المشاركة في نصرهم

بكل الوسائل المتيسرة ... بيد أن هذا كله لم يستطع أن يغير من نتائج المعركة التي شاء الله أخيراً أن تكون القضاء المبرم على كل أثر للعسكرية الفرنسية في هذه البلاد ...

وجاء يوم الجلاء .. وخرج الفرنسيون وكثير ممن والوهم ، في مواكب الذل تحميهم دبابات الانجليز ومصفحاتهم ...

وتجمعت أسراب الأطفال الخبثاء يشاركون في الفرحة .. ويلاحقون أبا عيد صارخين في توقيع بارع مثير : راحت ... راحت ... راحت)

ولكن أبا عيد أبى أن يسلم بالواقع وراح يهاجم الأطفال بعصاه وهو يصيح : أبداً ... أبداً ... مابتروح ... ياأبناء الـ ...

وما هي إلا أيام حتى كاد الناس ينسون اسم (أبي عيد) القديم ، ويكتفون بهذا اللقب الجديد ينبذونه به أينما لقوه : (راحت)

ويبلغ هياج (أبي عيد) نهايته ، فإذا هو يفقد وعيه ، وينسى أسرته ، ثم لايكاد يعرف من كلام الناس إلا قوله : أبداً ... أبداً .. مابتروح ..)

مسكين أبو عيد لقد آثر الجنون على التصديق بأن حبيبته قد راحت ...

ذكـــرٌ وأنـــثى

عرفته جاراً لنا طيباً غير شرير، على كثرة الأشرار.. وقد عاد من المهجر الأمريكي بعد غياب يقارب العشرين سنة، وكأنما قضاها سجيناً في قيود ثيابه وعاداته، فما ان وطئت قدماه أرض بلاده حتي استرد زيه البلدي القديم من السروال والصدار، ثم إتخذ لنفسه زوجا محافظة من بعض أقربائه، وراح يقضي حياته فى دعة وهدوء بين داره وحانوته الصغير، الذي اتخذه في ساحة المدينة القديمة، والمسجد الذي لم يفقده بعد ذلك في أي وقت من الصلوات الخمس، إلا أن يقعده مرض، أو يصرفه عن حضور الجماعة سفر...

وكان محمود في أواسط العقد الخامس من العمر... فلم يكن له من زواجه إرب إلا أن يرزقه الله غلاما يكمل وجوده.. ولكن طال عليه الأمد قبل أن يستبين حمل زوجته ولما اطمأن إلى ذلك راح يعد الايام، ويوفر لها كل ما تصور الناس ممن حوله انه نافع للحوامل... وحين وافاها المخاض لازم الغرفة المجاورة يدعو لها الله، ويتابع استغاثاتها وتوجعاتها في لهفة لاتقل عما تعانيه... وشاء الله أن يمتحن خبره وحسن يقينه فرزقه بدل الذكر المنتظر أنثى ولكنها، كما وصفتها القابلة، خير من عشرين صبياً.

والحق أن الخيبة كانت مرة... ولكنه استطاع أن يُحَليها بجميل الصبر.. فإستقبل المولودة بالشكر لله، وأقبل على زوجه ببشاشة مسعدة، يهنئها بالسلامة، وينثر طريف النوادر، ثم لا ينسى أن يقوى

أملها برحمة الله، الذى لن يضن على المولودة بأخ لها حبيب...

واطلق محمود على الطفلة الجميلة اسم امه (أمينة).. ولم تستطع إلا أن يفتح اذنيه وقلبه لتلك التفسيرات الشعبية اللطيفة، التى تعتبر وجه الأنثى مفتتح خير يجر وراءه البركة والخصب.. وقد جاءته الأيام بتوكيد هذا التفاؤل، إذ شعر بأن رزقه قد أخذ يتسع، وحياته المنزلية باتت أكثر رواء وبهجة، بما تضفيه الصغيرة عليه وعلى أمها من احساس جديد، فجر في قلبهما منابع من النشوة والحنان لم يعهدا مثلها من قبل.. وبدأت محاسنها تبرز بين الحين والحين بشكل ممتع حقاً.. فالشعر تاج من الذهب تنمو خيوطه أكثر من المالوف.. والوجه البارع الأنيق يزداد كل يوم نصوعاً واشراقاً، والعينان الخضراوان على غاية من الروعة الآسرة.. وقد اتم الله نعمته فحصنها من أمراض الطفولة التى تكتسح أترابها فتعرق اجسامهم، وتطفىء شعاع الحياة في وجوههم.. وتجعلهم كهيا كل التشريح إلا جلداً على عظم...

وجاءت طلائع الخير المرتقب تطل في الحمل الجديد، بعد عام ونصف من ولادة أمينة، فكانت فرصة أخري لأمل عريض ملأ البيت نوراً وأماني... وتركزت خواطر محمود حول هذا الجنين الذي سيحيا به اسم والده (خالد..) وقد أحب أن يحافظ على شكله وهو في الرحم، فلم يدخر وسعاً في تدليل زوجه، وإحاطتها بكل وسائل الهناءة، وحاول جاهداً أن يصون نظرها من أن يقع على قبيح، لما سمعه من تأثير ذلك في تكوين الجنين... ومع أنه لم يكن ممن يهتمون باقتناء الزهر أو زراعته، فقد داب على إجتلاب الأنواع منه إلى الدار، ليجعلها على مرآى من زوجه، رجاء أن يكون لها عملها في تحسين صورة القادم.

وهكذا لم يستكمل الجنين تشكله التام في بطن أمه حتى استكمل كيانه كله في ذهن أبيه... وبات في استطاعته لو شاء أن يحدد رسمه، ويعين لون بشرته.. ولم يقف عند هذا الحد أيضا بل تجاوزه إلى أبعد فى الزمان، فهو يتابع نمو خالد، ويتصور طفولته السعيدة تملأ بيته وحياته غبطة ونشوة وجمالاً...

وكليلة ولادة أمينة، جلس محمود في فراشه يتابع صراخ زوجته وهي تغالب المخاض... فيتململ ويضرع. ويبكي... وينهض بين الفينة والأخرى ليسأل القابلة العجوز إذا كان الوضع بعيداً... فتجيبه: لا.. بل هو قريب... قريب جداً... انتظر قليلاً... حتى أريك الصبي الجميل.. ولكن قل لأمه تساعدني..

وتوجه القابلة كلامها إلى الوالدة تهتف لها: أعيني ولدك يابنتي.. اضغطي على نفسك قليلا.. استمري فى ذلك..

ويردد من حولها من النساء وهن يدغدن نراجيلهن: أعيني ولدك.. الله معك...

ويعود محمود إلى فراشه، ليستأنف جثومه هناك متلهفاً ضارعاً باكياً...

وفجأة ينطلق صوت امراته بآهة مخنوقة طويلة، تعقبها ضجة النسوة، وصيحة من القابلة... ثم يلي ذلك سكون استمر أكثر من دقيقة... ولم يعد محمود قادراً على التماسك، فأخذ يدلك أذنيه، ثم وثب من الفراش نحو غرفة الولادة... وما لبث إلا لحظات يسيرة حتى عاد أدراجه في بطء دون أن ينبس ببنت شفة...

لقد رأى المخلوق الجديد بين يدي القابلة، تسوي وضعه في صمت كئيب... وأبصر زوجته ملقاة على الفراش، مغمضة العينين من الإعياء كأنها كيس من القمامة... وقد خيم الوجوم على النساء، فانقطعت أصواتهن، وسكتت قرقرة نراجيلهن، فلم يجد حاجة إلي أي سؤال، إذ كان كل شيء ينبيء بولادة البنت الثانية!...

وفي ذلة ممزوجة بالحنق دس محمود جسمه في فراشه، وغطى رأسه باللحاف، وأطلق لعينيه زمام البكاء... غير أنه لم يستطع البقاء طويلاً على هذه الحال، فإذا هو يقذف باللحاف بعيداً، ثم يأخذ طريقه إلي خارج المنزل، ليقضي بقية ليلته في طواف حائر على مقربة من الشاطيء...

لقد كانت الصدمة أكبر من أن تحتملها أعصابه، ذلك لأنه مكن للأمل من نفسه زمناً غير يسير، ثم فوجيء بزواله على غير توقع، فكان أشبه برجل بذل مجهوده في تشييد بناء فخم، فلما هم بسكناه بوغت به يسقط إلي الحضيض فيطمره في ركامه!...

ورأي خير مايعمله هو أن يغادر البلد لبضعة أيام، فلعله لايعود إلا وقد بردت وقدة الأسى بين جوانحه، وذللت نفسه لواقع القدر...

وبين طرطوس ودمشق قضى محمود أسبوعاً سائحاً لايقر له في مكان قرار، ثم أضطر إلي العودة كما بدأ... دون أن يستطيع لنكبته نسياناً... ولقد حاول أن يضبط لسانه أمام زوجته، فلا يقول مالا يحسن ولكنه أخفق، وسرعان ماغلبه الانفعال؛ فإذا هو يحلف بالطلاق أن لامكان لها في بيته إذا هي جاءته ببنت في المرة القادمة...!

***

والحق أن محموداً لم يكن بالإنسان الميئوس من خيره، وإنما هو رجل عاطفي، يبلغ به التوتر أقصاه فلا يستطيع تصريفه إلا بمثل هذه الثورات؛ التى تنتهي به إلي مالا يريد... إذ يستيقظ ضميره النائم، ويتذكر ما هنالك من الحلال والحرام، وما وراءهما من الثواب والعقاب، فإذا هو في بحران من الندم، لايلبث أن يدفعه إلي التكفير عن إساءته بكل مايتاح له من الوسائل...

وهكذا استيقظ ضمير محمود عقيب اطلاقه يمين الطلاق... وجعل يتصور مقدار الأذي الذي أصاب به قلب امراته، وهي البريئه التي لم تقترف إثماً. فلا يرتاب في أنها نزوة من عمل الشيطان، ويود لو أمكنه التغلب عليه، إذن لكان الآن في منجاة من هذا القلق الذي يعتصر صدره...

لقد كان قبل أيام على مثل اليقين من أنه لن يطيق النظر إلي وجه طفلته الثانية، ولن يستطيع الاقتراب من أمها... ثم لم يمض أكثر من شهر إلا قليلا حتى شرع هذا التصميم في التلاشي، هاهو ذا الآن ينظر إلي طفلته بكل عينيه، لابل انه ليضمها بكل ذراعيه، وقد طفق يحس نحوها ببوادر من العطف لم يتوقعه... ولا شك أن لجمال قسماتها، وما يرافق نظراتها من الإغراء نصيباً في اجتذابه، فهي كأختها الأولى لايكاد يميز بينهما لولا فوارق السن. ومن يدري فقد يأتيه يوم قريب أو بعيد تنال آمنة من حبه مثل الذي نالته أختها أمينة، وتهب له من الأنس والغبطة مثل الذي يجده قربها...

حقاً إن القلوب بيد الله يقلبها، كيف يشاء!...

وبالمقدار نفسه بدأ إحساسه يعتدل نحو أمهما. فهو يحس اليوم نحوها بمثل شعور المذنب بإزاء البريء الذي أساء إليه... ولقد أخذت نظرته تتركز على فضائلها الزوجية وحدها فإذا هي كنز من مودة ورحمة وإخلاص، لاتشوبها أية خصلة مكروهة، أو تصرف غير مرضي... فكيف يسمح لنفسه بالتنكر لها دون ماسبب، سوى أنها لم تلد له الابن الذي يحب؛ وهي التي لاتحمل من المسئولية في هذا الأمر أكثر من الذي يحمله هو!... هذا وليس ثمة داع لليأس... فهو لايزال دون الخمسين، وهي في الخامسة والثلاثين، ومجال الإنجاب أمامهما فسيح، وقد يرزقه الله في غد بدل الغلام الواحد غلمانا... واليأس من رحمة الله صنو الكفر، فلا عليه إلا أن يصبر وأن يكون قوي الرجاء بالله...

وجدير بمثل هذه التصورات أن ترد محموداً إلي هدوئه الطبيعي، وقناعته بالمقدور، فيستأنف حياته المنزلية المطمئنة... ولكن شيئاً واحداً ظل يقلق نفسه، كالعقبة تعترض الطريق فلا سبيل لإزالتها أو اقتحامها.. أنه الطلاق الذي أطلقه في ثورة الغضب فجعل حياته معها مهددة بالإنفصام، ومن يدري فقد تطل البنت مع الولادة الثالثة فتقع الكارثة، ويضرب الدهر بينهما ضربته الكبري...!

على أنه لايلبث أن يراوده الأمل برحمة الله حتى تتساقط أعباء نفسه، ويتبدد الكثير من أوهامه القلقة، ويستشعر نفحة من الرضي تدغدغ روحه، وتغمره في نشوة لاتقدر من الاطمئنان...

ولم يطل به الانتظار هذه المرة، فما هي إلا ستة أشهر حتى ظهرت طلائع الحمل الثالث وبدأ معه صراعاً نفسياً طويلاً تسيطر عليه دوافع الرغبة والرهبة، وتتقاذفه نوازع اليأس والرجاء... يتذكر اليمين والأنثى فيغيب في دوامة من الروع تشحن صدره بالكرب والخوف... ويتراءي له وجه الحلم الحبيب من وراء الغيب، فينسى أوهامه وتفيض عيناه بأدمع الحبور...

ويبلغ هذا الصراع قمته في مرحلة الوضع...

ويشتد مخاض الزوجة الحزينة... فيرتفع توتر أوهامه إلى حدود التفجر...

وبدلا من الجلوس في الفراش بانتظار النبأ، ترك الدار ومضي يطوف في الزقاق المقابل، مصغياً إلى كل حركة وسكنة تصدر عن داخلها، ونام كل شيء في الحي إلا هذه الخفافيش المحومة في طلب البعوض الطائر، وهذا المسكين الذي شغل بإضطرابه وتوقعاته حتى عن تعب ساقيه...

ويقف بين الفينة والفينة تلقاء الباب يلصق به أذنه، ليميز كل كلمة تقال من ورائه، فلا يسمع إلا صوت امراته صاعداً بالضراعة إلى الله أن يتدارك بيتها برحمته... وإلا همسات النساء وهن يثرثرن حول الموضوع..

وفي إحدي الجولات بوغت بانقطاع الصوت والهمس... فلم يشك أن الفاجعة قد تمت، ودون وعي وجد نفسه مستنداً إلى ركن الباب، كمن أصيب بدوار مفاجيء...

.وكان أذان الفجر قد أخذ يتسرب إلى مسمعه مع طلائع النهار، فأحس بقوة تشده إليه، فمضى يجر قدميه باتجاه المسجد، وهو يردد مع

المؤذن: الله أكبر .. أشهد ألا إله إلا الله...

ولقد خيل إليه أن في كل حرف من النشيد العلوي قوة عجيبة، تهز الأعصاب، وتفتت الأوصاب... وتغير وقائع النفس...

وانتظم في الصف الوحيد خلف الإمام يؤدي الصلاة، دامع العينين، كسير النفس، يضغط على صدره بكل مابقي له من القوة ليحبس أنينه وراء حلقه، فلا يتسرب إلى أسماع المصلين... وبعد انقضاء الصلاة هم محمود بالانصراف مع الناس، ولكن إشارة من صديقه الشيخ دفعته إلى التريث فلزم موضعه، وأخذ يجفف عينيه بباطن راحتيه...

وتكلم الشيخ في لهجة كأنها أنشودة تعزية: مثلك ياأخي جدير أن يتقبل عطية الله بكل رضى...

ودون أن يرفع محمود رأسه قال: وهل رأيت مني غير ذلك!...

— أجل... أنك حزين لتتابع البنات عليك. ولعلك لم تسمع بعد بقول رسول الله (ﷺ): «من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو أختين أو بنتين، فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة..»

ولم يتمالك محمود رعشة سرت كالكهرباء في أوصاله، ثم رفع إلى وجه الشيخ عينيه المغرورقتين وهو يقول في صوت لايكاد يبين: ولكن... لم يعد الموضوع خاصاً بالبنات... أنه اليوم موضوع البيت الذي كتب عليه الخراب... أنه موضوع المرأة التي فرقت هذه الولادة بيني وبينها...

وأحس وهو يلفظ كلماته الأخيرة بمثل لذع الجمر يحرق لسانه. فلم يكد يفرغ منها حتى انفجر حلقه بدفقة من الأنين، أعياه حبسها، فانفلتت برغمه تكشف عن أعماق حزنه... غير أن ذلك لم

يستمر إلا ريثما عاد الشيخ إلى الكلام قائلاً: هون عليك إن الأمر لأيسر من ذلك...

ــ وكيف!... لعلك لم تعلم أن طلاقاً قد صدر عني!.

ــ وقاطعه الشيخ: أعلم... أنك حلفت إذا ولدت بنتاً فهي طالق...

ــ أجل. هذا الذي كان...

ــ ولكن الطلاق لم يقع... لأن زوجتك قد ولدت بنتين... لاواحدة... إنك لم تعلم هذا لأنك لم تذهب إلى دارك بعد. وقد علمته من زوجتي التي حضرت الولادة بنفسها...

وكانت مفاجأة بالغة... شحنت صدر محمود بردود الفعل المتناقضة... لقد جف دمعه لتّوه، وجمد بصره على وجه الشيخ، ولبث ثواني طويلة فاغر الفم من الدهشة!...

وألفي نفسه بغتة في فراغ نفسي عجيب.. لايدري: أعليه أن يبكي... أم له أن يضحك!... أفي يقظة يسمع كلام الشيخ... أم ذلك حلم لايعرف له تأويلاً!...

ثم راح يدير نظره الحائر في أرجاء المسجد... كأنه يفتش عن شيء... ثم لم يلبث أن ينهض ليغادره دون أن ينطق بشيء...

***

ولقد غضب محمود، ورضي، ثم خشع، وثار... وفي لحظة قاسية من الهيجان العاطفي أرسل قذيفته الحاسمة الثانية: طلاقاً بائناً مثلثاً

لارجعة فيه، إذا جاءته امرأته بعد اليوم بأي أثر للبنات!...

ولم يعد ثمة متسع للصبر والشفقة وتخوف الفراق... انه بحاجة إلى ذَكَرٍ يصون ذِكْرَه، ويستمر به وجوده، ولا مطمع به كما يبدو عن طريق امرأته هذه، فلم لايبحث عنه عند سواها!...

ولعل مما يضاعف هواجسه أنه يتلفت إلى جاره الذي تزوج وإياه في الشهر نفسه من العام الواحد، فإذا هو ذو ثلاثة من الذكور لاأنثى معهم، بينما هو لايزال يعاني وحشة القلب باحثاً عن أثر الذكر فلا يجده!... فكأنما كتب عليه أن يُعِدَّ لأبناء هذا الجار وغيره العرائس المجفوة، وكتب لهذا وذاك أن ينعموا دونه بالرحمة المرجوة... وشتان بين بيت اختص بالبنات، فهو كحانوت كاسد يتلهف إلى وجوه الشارين، يتملق عواطفهم ويترضاهم لتنفق به سلعته، وبيت إمتاز بالذكور، فهو كمصرف المرابين يستهوي أبداً قلوب الناس، فيقبلون عليه راجين راغبين، يتكبر عليهم، فينحنون له، ويرجع دائماً منهم بالصفقة الرابحة، ولو أصبحوا جميعهم من الخاسرين!... وهذه والدته العجوز لاتزال تؤكد له هذه الحقيقة بذلك المثل الذي تقرع أبداً به رأسه: «أم البنات للتسليم، وأم الشباب للتكريم»...

أجل... إن الغيب لله... فرب بنت أوعب للخير من عشرين صبياً، وكثيراً ماتكون البنت وسيلة إلى رضوان الله إذا أحسن الأبوان تربيتها وتأديبها، كما حدثه الشيخ عن رسول الله، ولكن ليس من شأن هذا أن ينسيه تلك الحقيقة الكبيرة، وهي أن الرجل إنما يخلد وجوده بولده دون بنته... وأن الرغبة في الذكر إنما هي غريزة ربانية أودعها الله بيده في قلوب الرجال... فلا سبيل إلى انتزاعها إلا بالموت...

وكانت الأيام تكر تتلوها الشهور على حمل امرأته الرابع... فلا يزيده ذلك إلا تصميماً على عزمته، التي نجح إلى حد بعيد في نفي كل تردد عنها...

لقد قرر أن يتمالك نفسه، ويضبط أعصابه أمام الحدث القادم، فلا يفاجئه على غير انتظار... إنه راض بكل مايصنعه القدر... فإن

جاء المولود غلاماً كان هو الحلم المنشود.. الذي سيملأ حياته وزوجه هناءة ورغداً وشكراً لله.. أما إذا كان من نوع سابقاته فسيحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه، وسيكون ذلك نذيراً لكل منهما، هو وزوجه، بمرحلة جديدة من الحياة... يسلكها كل من الاثنين في معزل عن الآخر...

وقد استطاع أن يحتفظ بهدوئه هذا إلى يوم الولادة الحاسم... لذلك لم يغادر الدار... بل اتخذ مجلسه في الفراش يراقب الحالة برباطة جأش غير مألوفة... ولعل تجاربة السابقة هي التي جعلته أكثر توقعاً للجانب المحزن...

ولشد ما كانت المفاجأة صارمة عندما إنطلقت أصوات النساء تدق سمعه بالزغاريد... التي تعلن ولادة المعجزه...

ولم يعد يستطيع صبراً فإذا هو يثب من مكانه... ليندفع إلى داخل الغرفة الأخرى، قبل أن يترك للنساء غير القريبات مجالاً لستر وجوههن...

واحتضن المولود ليشبع عينيه من رؤيته... وليتحقق من ذكورته... ولكنه مالبث أن أعاده إلى القابلة لينسحب إلى مكانه في انكسار موجع...!

أجل... لقد كان المولود ذكراً... بيد أنه أشبه بالكتلة المشوهة منه بالطفل السوي!...

لقد إحدودب ظهره... واقعوعس صدره... وكاد رأسه يغيب إلى ذقنه بين كاهله وترقوته!...

وبذلك فقد الطلاق قيمته فلم يقع... ووقعت العبرة التي كانت جد كبيرة!...



بـــــــشـــــــورة ...

وكانت السيارة الكبيرة ــ ولنسمها حافلة ــ مكتظة بالمسافرين من مختلف الأعمار ... وقد انطلقت تسبح على الطريق المزفت بقوة ونشاط ، كأنها الزورق الحربى ، يصدم صدر الموج رافع المقدمة كالطائر بعضه فى الماء ، وبعضه فى الهواء ...

والطريق بين دمشق واللاذقية بطبيعته طويل ممل ، ولكن المسافرين ذوى الأعصاب الحساسة أشد الناس شعوراً بطوله وإملاله عندما يضطرون إلى امتطاء هذه الحوافل ، وذلك لتضارب أمزجة الركاب وما يتأتى عنه من فوضى مزعجة .. فهناك من يطلب له الغناء فينطلق على هواه ، يصب ألحانه كيفما اتفق فى أسماع الباقين ، دون أن يفكر برضاهم أو غضبهم ... وهناك المشغولون ببطونهم ، يتخذون من هذه الرحلات الطويلة فرصة للتزود بأنواع الأطعمة . فما هى إلا أن يستقر بهم المقام فى جوف الحافلة حتى يتفرغوا للقضم والخضم ، لا يبالون بما لا يحملون آناف الآخرين ولا ثيابهم . وليسوا قليلين أولئك الذين تغلب الصفراء على أمزجتهم ، فما يكادون يحسون حركة السيارة حتى تنقلب أمعاؤهم لتقذف بما تحتويه من قديم الطعام وحديثه ! .. وأثناء ذلك ينطلق ضجيج المذياع الذى لا يعرف الراحة ، ليشغل كلاً من هؤلاء عن نفسه وما حوله ... أشبه بطبول وثنيى الهند القدامى ، عندما يحتفلون بإحراق امرأة تريد اللحاق بزوجها ، فيشحنون الفضاء بدوى متواصل يكفى لإبعاد صوت الضحية واستغاثتها عن أسماع الجمهور المحتشد ..!

ولعل الصيدلى « أدهم » كان أشد ركاب هذه الحافلة ضيقاً وسأماً ، وهو معذور فى ذلك ، إذ كان بسبب وضعه الصحى أحوج

الجميع إلى هدوء .. فقدر له أن لا يجد إليه سبيلاً . وقد زاد طينته بلة هذا الجار الأرمنى الذى ألقاه سوء الحظ بجانبه ، فجعل رحلته كالعبء الضخم قضى عليه أن يرزح تحته سبع ساعات متتاليات !.. فهو أولاً نصف سكران ، قد نسجت أنفاسه من حوله غطاء كثيفاً من الروائح الفاسدة لا يستطيع منها فراراً .. وأتم فضله بذلك القط الذى جثم فى حجرة فما يكاد ينقطع عن المواء .. ولو شاء أن ينقطع لما أتيح له ، لأن الخواجا قره بت — وهذا اسم صاحبه — لا يطيب له أن يفقد صوته ، فهو لا يبرح يشد أذنه ، أو يقرص ذيله ، أو يدغدغ صدره ،لينصرف عن نفسه بعض وعثاء الطريق !..

وكان مستحيلاً على « أدهم » أن يتدخل فى حرية القط وصاحبه ، فضبط أعصابه ، وحاول أن يشغل وقته عن هذه المزعجات بالتدخين والقراءة ، حتى قاربت الحافلة مشارف اللاذقية .. وهنا التفت إلى جاره السعيد يقول له : إن قطك جميل .. وأنيس جداً ..

وأجاب قره بت : تبأ تبأ . لذلك أهبه .. وأهمله أينما ذهبت .. وجعل يداعب جلد القط وهو يقول : أليس له اسم ؟ ..

— اسمه « أورك » ..

— اسم جميل .. والعجيب أنه يشبه بعض اسمى .. إن اسمى « أمانول باروك » .. ومن أين جئت بهذا القط اللطيف ؟ ..

— من كسب .. ألا تأرف كسب !. إنه مصيف جميل جداً ..

— الداعى غريب جوّال لى مكتب تجارى فى اللاذقية ..

— وتعمد « أدهم » أن يخرج كلامه بطريقة توهم السامع أنه واحد من التجار الأعاجم .. ثم تابع : كم يساوى مثل هذا القط عندكم ؟..

— لم أدفأ ثمنه .. وهو مولود فى بيتنا .. وأبوه وأمه وأهله كلهم اندنا من زمان ..

ــ وهل في كسب كثير من هذه القطط ؟..

ــ طبأ .. كثير .. وأنتم أليس في بلادكم كِتَت !؟

ــ قليل .. وهي غالية جداً !. ومقدسة ..

ــ مكدسة !. : ــ نعم .. كثيرون عندنا يعبدونها .. وكثيرون يربونها لحراسة البيوت ولمرافقة الأطفال .

ــ أجيب .. ومن أين تأتون بها ؟

ــ نشتريها من اليابان بأسعار عالية جداً ..

وسكت قليلاً ثم تابع : هل في وسعك أن تؤمن لي مئة قط بسعر مناسب .. خمس ليرات لكل واحد مثلاً .

ــ خمس ليرات !.. أنت تشتري ؟

ــ نعم .. هل أستطيع الاعتماد عليك ؟

ــ وبرقت أسارير قره بت إذ وجد نفسه فجأة أمام غنيمة باردة .. ولم يتمالك أن قال : أنا مستعد لذلك ..

ولم يشأ (أدهم) أن يفوت الفرصة فاستل محفظته ، واستخرج منها ورقتين بقيمة عشرين ليرة دفع بهما إلى قره بت قائلاً : هذا مالدي من النقود الآن ، خذه كسلفة من المبلغ .. وبعد شهر واحد تستطيع الاتصال بمكتبي هاتفياً .. اكتب إذا شئت رقم (٩٤٣ شارع الهافانا) .. كنت أود مرافقتك إلى كسب لترتيب الأمر معك ، ولكني مضطر إلى الغياب عن اللاذقية طوال هذه الأيام ، فعليك أنت بتجميع القطط المطلوبة ضمن أقفاص .. ولا تبخل عليها بالغذاء اللازم ، وسأحاسبك بكل التكاليف .

ولم يبق ما يحول دون إتمام الصفقة ، فضم قره بت النقود إلى جيبه .. ووضع توقيعه على السند الذي كتبه الصيدلي تنظيماً للاتفاق ، وعند مدخل المدينة فارق (أدهم) صاحبه وهو يؤكد عليه أن

لايحدث مانع يحول دون تسليم الصفقة في موعدها المقرر .. ثم قال له وهو يهز يده : مسيو قره بت أرجو أن لاتنسى اسمي .. وقال قره بت : مستهيل .. إنه أمانول بـ .. باروك ..

— حسن .. إذا نسيته فسيذكرك به قطكم العزيز .. إن فيه حروف اسمى نفسها .. وداعاً .

* * *

وباشر قره بت عمله الجديد منذ وصوله إلي كسب .. فصنع أول قفص ، وجعل مكانه على سطح الدرج الحجرى ، وبدأ باصطياد قطط الجيران واحداً بعد آخر .. ثم أتبعه بالقفص الثاني ، وبات عليه أن يطلب القطط من الأحياء الأخرى بعد أن استنفد ماحوله ، وهذا يعني أن يستعمل المال للحصول عليها ، وهكذا اضطر إلى أداء الثمن ...

لقد افتتح السوق بنصف ليرة للقط الكبير ، وربع للصغير ، فملأ القفص الثاني أو كاد .. ولكن السعر مالبث أن تحسن ، إذ اضطر الوسطاء أن يدفعوا بدورهم ، فلم يعد العمل مربحاً إلا إذا زاد هو في سوية الأسعار .. وكان متعذراً عليه أن يتوقف عن مواصلة الطريق بعد أن قارب نصفه لذلك رضي برفع العمولة حتى استقرت على أربعة أضعاف المستوى الأول ! ...

على أن المشكلة لم تقف عند حدود المال .. بل أصبحت له مصدر عناء لايطاق ، وأول ماواجهه من هذا العناء المعارك التي أصبحت ضرورة لامناص منها في تلك الأقفاص . إنها لمعارك واقعية رهيبة كثيراً ماتجري فيها الدماء وتزهق الأنفس .. وهي لاتعرف ميقاتاً معيناً ، فقد تقع في الصباح أو الظهر أو الليل ، فتحرم أهل البيت كلهم أن يتذوقوا طعم النوم ، وما أكثر ماأقحمته معارك مشابهة مع جيرانه ، كان من حقها أن تجر الكوارث ، لولا تدخل أولاد الحلال ، ولولا صلات القربى التي تربط بين قره بت ومعظم أولئك الجيران ...

ثم كان عليه أن يعني بتدبير الغذاء اللازم للبقاء على حياة القطط .. الأمر الذي لم تخطر أهميته بباله قط قبل مواجهته ، وقد كان ذلك ميسوراً في أوائل العمل ، حيث كانت فضلات البيت مع بعض الأسقاط كافية لتوفير حاجة الدفعة الأولى .. غير أن الحاجة مالبثت أن أخذت في الزيادة المركبة اطراداً مع زيادة الحيوانات ، حتى أصبح منذ القفص الثاني ، ولا عمل له سوى السعي للحصول على الفضلات والأسقاط سواء من عند الجزارين أو من صفائح القمامة ! .. وطبيعي أن هذا يكلفه الكثير من المال ، يدفعه أجوراً للأحداث الذين وجدوا في هذه المهمة وسيلة جديدة إلى دخل ميسور ...

واستهلكت هذه الأعمال جهود قره بت جميعها ، فلم تدع له مجالاً لخدمة حقله . ولولا المجهود الذي بذلته زوجته وصغاره في العناية بتلك الأشجار لتعذر عليهم أن يبيعوا صندوقاً واحداً من ثمراته .

واستجاب الله دعاء قره بت ،فوافته نهاية الشهر قبل أن يوافيه الأجل .. وفي صباح ذلك اليوم راح يغدق على قططه من الطعام أكثر مما عودها .. لأنه أراد أن يسلمها إلى صاحبها الجديد مملوءة البطون .. ولم ينس أن يمدها من الماء بما يفيض عن حاجتها أيضاً لتكون أرضى لنظره ...

ووقف يعدها .. ويعيد عدها ، فلم تزد على سبعين قطاً ، بينما هي في دفتره لاتقل عن الخمسة والثمانين ومع ذلك فقد شكر العذراء التي أشفقت عليه فحالت دون موتهم جميعاً ! ...

وأخذ قره بت طريقه إلى أول هاتف .. واستخرج من جيبه الداخلي ورقة مطوية بعناية، ولما استوثق من الرقم أدار منبه الجهاز ، وطلب وصله بمكانه .. وراح ينتظره ...

وطال الانتظار ، فأعاد الطلب ، ثم أعاده وأعاده ، وفي كل مرة يتلقى الجواب الواحد : انتظر .

وبعد ساعات من الانتظار ، وعشرات من الطلبات ، وملء منديل من العرق الحار .. وارتفاع محموم في نبضات القلب ، تفضلت موظفة الاتصال فاخبرت قره بت أن لاوجود لرقمه في مركز اللاذقية ، وأن ليس في البلد مكان اسمه شارع الهافانا ! .. وأخيراً أن سجلهم لايعرف إنساناً اسمه (أمانول باروك) ! ..

* * *

وعاد قره بت إلى داره في شبه دوار ، لايكاد يعرف طريقه لولا هدي العادة . وكان التوتر قد بلغ أشده في أعصابه ، فما هو إلا أن صار إلى السطح حتى شرع يهوي بالفأس على عوارض الأقفاص واحداً بعد واحد .. حتى أتى على الأربعة جميعاً ! ...

واندفعت أسراب القطط في ثورة جامحة .. ثورة السَّجين الذي فوجىء بسجنه يتهدم على حين غرة ، فلم يجد وسيلة إلى النجاة إلا أن يطلق ساقيه للريح ! ...

ولم تكن القطط بأقل توتراً من قره بت ، فما هي إلا أن وجدت نفسها حرة التصرف حتى تدفقت في كل اتجاه ، لاتدري أين يجب أن تسلك ، ولا أين تقف .. فإذا ببعضها يقتحم الدور ويصطدم بأصحابها ، وبعضها يهاجم الحوانيت من نوافذها وأبوابها ...

وتتدافع الناس يرقبون هذه الثورة المجنونه في غمرة من الدهشة .. وهم يتساءلون عن السر الذي حفز قره بت على إطلاق سبيلها بهذا الشكل المزعج ! ...

وبلغت ثورة القطط ذروتها حين اقتحم كبيرها إحدى الحانات ، وقفز لتوه إلى أحد الرفوف ، فانقلبت بحركته بعض قناني الخمور ، وما ان لامس صوت تحطيمها مسمعه حتى دفعه الرعب إلى متابعة القفز من رف إلى آخر ! .. ثم لم يغادر الحانه حتى أوشك أن يأتي على جميع مافيها ! ...

وكان طبيعياً أن يساق قره بت إلى السجن ريثما يحدد القضاء مسئوليته عن هذه الثورة ...

ولعلها المرة الأولى التي يفارق فيها داره لغياب طويل .. دون أن يصطحب قطه الجميل ! ..

* * *

قصة برميل

لأأزال أذكر ذلك الصباح البعيد .. يوم جاءني متظاهراً بالغضب وهو يقول : أنت تقول أنني أسوم دون أن يكون لي قدرة على الشراء ! فعن أي شيء تتكلم ؟

قلت : عن هذه البناية التي جئت أمس تستفسر عن ثمنها كما استفسرت من قبل عن أثمان عشرات الأبنية ...

قال : صحيح أنا أستفسر ولم أشتر بعد .. والشراء كالحياة قدر لايقع إلا بإرادة الله .. ولكن كم تقدر ثمن هذه البناية ؟

قلت : خمسمئة ذهب ...

وهنا استخرج من داخل ثوبه صرة ثقيلة ثم فتحها على طاولة أمامي ، فاذا هي مملوءة بالدنانير الذهبية من النقد العثماني الجديد ...

وقال في تحد : هل يكفي هذا ؟ !

ثم استخرج صرة أخرى وفتحها كالأولى فإذا مئات من الدنانير الذهبية من ذوات الحصان الانكليزى ، ثم قال في تحد أشد : وهل يكفي هذا ؟؟

وهنا قلت : بلى يكفي .. ولكنك مع ذلك لن تشتري .. وستظل حارساً لهذا الذهب دون أن تنعم به ...

وما أدري الذي قاله بعد .. ولكنه مالبث أن جمع صرتيه ثم مضى منتفخ الصدر بشعور الزهو والانتصار ..

وما كنت لأستغرب توافر أكثر من هذا الذهب في حوزة (ع. ق) فقد كنت أعرفه نجاراً حاذقاً ، بلغ من براعته في هذه المهنة أن يحفر في الخشب تماثيل رائعة ، ولم يعجز أن يصنع من الخشب جهاز أسنان

لفمه... وقد طال تجواله في مختلف المدن يعمل ويجمع... واشتهر عنه أنه لايتولى عمل منجور لبناء إلا وفى مقدمة شروطه تأمين طعامه... فهو بذلك يقبض كثيراً، ولا يدفع إلا قليلاً... وقد أراحهُ الله من هم العيال، فقد قضى مع زوجتة الثانية (فتحية) عشرات السنين بغير ولد، وكان لها من الشهرة في فن الخياطة مثل شهرته هو في حرفة النجارة، فهي كذلك تقبض كثيراً ولكنها تدفع الكثير من دخلها لأقرباء لها كانوا بحاجة إلى العون الكريم... ومهما يكن فقد كفته مؤنتها بل ربما كفته حتي المشاركة في الإنفاق علي الحياة المنزلية...

علي أنه لم يكن أبتر مقطوع الصلة بالحياة، فقد كان له بنت من غير فتحية توفيت أمها من أيام شبابها، وزوجها منذ أن بلغت الرابعة عشرة لرجل أعجمي ظل كل حياته لايحسن العربية، ولا يستطيع مفارقة الخمرة إلا ساعات النوم... ولكنه كان مع ذلك قادراً علي تأمين ضروراتهما المعاشية، فلم تكلف أباها بعد ذلك اليوم فلساً قط.

أما بقية أقربائه فلم يكونوا قليلين، ولكنهم كانوا مستورين لايكلفونه عبئاً... وإذا اتفق أن شعر بحاجة أحدهم لم يكن أيسر عليه من أن يتجاهله فلا يراه ولا يسأل به أحداً!....

ولقد استطاعت فتحية زوجته أن توفر مبلغاً من المال يكفي لبناء دار متواضعة، فاشترت الأرض واستحضرت الحجارة، وراحت تشرف بنفسها علي البناء، حتي إذا تم كلفته بصنع المنجور، فكان يتقاضاها ثمن كل شيء حتي المسمار، وورق الزجاج.. ولا يرد لها فضلة مال زادت عن أثمان الأشياء، وحجته أنها لاتسد سوى جزء يسير عن أجرته لو شاء أن يتقاضاها أجراً،..! وكانت الزوجة بطبيعتها شديدة الحدب عليه، لاترغب في مشاكسته، وتتجنب كل أسباب الشقاق بينها وبينه، فتركت له حرية التصرف قدر الإمكان، ولقد حاولت ذات يوم أن تثير حميته للإسهام في تكاليف البناء فثار كالمجنون، وأقسم لها بأغلظ الأيمان وبمثلثات الطلاق أنه لايملك ذهباً ولا فضة.. ولم يكن في وسعها سوى التسليم للواقع، فاكتفت منه بهذا الجهد الميسور.. ورضيت أن تعتبره

كما ألفت واحداً من هؤلاء الأقرباء الذين تعولهم من عرق جبينها لوجه الله..

ويتم الزمن دورته السبعين علي (ع. ق) ويدب الوهن في رجليه.. ثم يتحول إلي مثل التشلل الذي يقعده، فيلتزم سريره يتلقي رعاية زوجه سنين لاتقل عن الثلاث. تقوم بتمريضه، وتستقدم له الأطبة. وتقدم له الأدوية حتي وافاه الأجل دون أن تسأله جزاءِ أو شكوراً، ودون أن يفاتحها بشيء عن متاع له أو مال..

**

ويشاء الله أن تعاني البنت مثل مرض أبيها وفي الوقت نفسه، فتلزم فراشها لاتستطيع له براحاً ولذلك حيل بينها وبين رؤيته طوال مدة مرضه، ثم حرمت وداعه وهو علي فراش الموت، فكانت تكتفي بالسؤال عنه، كما يكتفي هو بالسؤال عنها، وقد تجلت عاطفته الكبيرة نحوها في أيامه الأخيرة بوجه أخصّ، كان لايفتأ يردد ذكرها، ويتسقط أنباءها، وكثيراً ما كانت فتحية تسمع تمتماته ممزوجة باسم ابنته حتي أثناء نومه، كأنما يسر إليها حديثاً... أو يحادثها في أمر هام...!

وعلي الرغم من أن أحفاد (ع. ق) حجبوا عن أمهم نبأ وفاة والدها حماية لها من الصدمة فقد ظلت صحتها في تدهور مستمر حتي لصقت أخيراً بالفراش، وانتشرت العقور في أنحاء جذعها، فلم يعد من الممكن تنظيفه، وبذلك بدأت الروائح تملأ فراغ البيت، ولكن الذي خفف عن كثافة هذه الأبخرة انتقال المريضة إلي ساحة الدار الفضاء، فقد أوعزت لبنيها بحملها إلي خارج الغرفة وأشارت اليهم بتمديدها إلى جوار ذلك البرميل العتيق الذي ألف سكان الدار منظره في إحدي زواياها منذ عدة أعوام..

والحزن في حالة هذه المسكينة هو ذلك الفقر البالغ الذي كانت تعانيه مع أولادها منذ وفاة زوجها الأعجمي..

لقد فارقهم ذلك الأب السكير دون أن يدع لهم مورداً سوي راتب تقاعدي صغير لايزيد عن ثمن الخبز إلا قليلاً، ولولا هذه الدار الصغيرة ذات الغرفتين، التي انحصرت بها تركته لهم وسجلها علي اسم زوجته قبل وفاته، لتعذر عليهم أن يجدوا ملجأ يأوون إليه..

وحتى هذه الدار لن يبقوا فيها إلا بضعة أشهر إذا لم تستطع المرأة سداد العشرين ذهباً، مقدار الرهن الذي اقترضته لتجهيز ابنتها.. ومن أين تفي بذلك الدين إلا بمعجزة من وراء الطبيعة.. وهيهات!

وتحت ضغط هذا الواقع الأليم اضطرت الأرملة التعيسة إلي إرسال أولادها في الشوارع يفتشون عن القوت من أي طريق، وزوجت إبنتها الوحيدة من مصاب بالضرع لكي تؤمن عيشها، ولذلك كان مرضها نعمة علي هذه الأسرة المحرومة، إذ فتح عليهم باب الإحسان، فكانوا يتلقون رزقهم من الأيدي الكريمة، وكان لفتحية أرملة جدهم نصيب لايكفر في خدمتهم، تأتي بنفسها لتفقد أحوالهم، وللعناية بأمهم، وقلما تركتهم يوماً دون معونة..

وثقل المرض على أم سليم، وانعقد لسانها فلا تستطيع الكلام إلا قليلاً وفي جهد كثير.. ورأت فتحية أن تغير فراشها، فمدت لها فراشاً غيره في ناحية أخرى من ساحة الدار، ثم جاءت لتحملها إليه مع بعض أولادها، وأبت المريضة ذلك. وحاولت أن تتشبث في مكانها، وراحت تضغط علي لسانها تريد الإبانة فلم تستطع التفوه بأكثر من: لا..لا.. ولكن فتحية لم تعبأ برفضها وحملت إلي الفراش الجديد، وألقي بفراشها الأول إلي الزقاق.. وأرسلت أم سليم ببصرها نحو البرميل الذي ألفت قربه طوال شهرين، وكأنما سرها أن يظل مكانه، وأن يظل علي مشهد منها فارتاحت نفسها، وشاعت تباشير الرضى في وجهها، ثم راحت في غفوة هادئة لم تستيقظ منها بعد ذلك.!

***

كانت وفاة أم سليم نهاية سلسلة طويلة من الآلام، فجدير بها إذن أن تسر أهلها أكثر مما تحزنهم، لو أن أمور الموت تجري وفق سن المنطق والعقل، ولكنهم ما إن تبينوا موتها حتى ملأ عويلهم الحي... لم تكن فتحية قد غادرت البيت بعد فغلبها الحزن، إذ لم تعد ترى سوى شبح اليتم الذي يغطي بجناحية القاتمين أفراد هذه الأسرة، فانطلقت تشاركهم البكاء...

وتوقعت فتحية أن يندفع الجيران إلى ساحة الدار بعد قليل فأخذت ترتب أوضاعها، فتنقل بعض الأشياء من هنا وهنا، وأشارت إلى سليم، وكان أكثر الأولاد تمالكاً وهدوءاً، فتقدم يشد معها البرميل العتيق ليجراه إلى زاوية الجدار... ولكن ما هو إلا أن أميل قليلاً حتى أخذ التراب يتدفق منه ممزوجاً بالرمل، ثم يتبع ذلك صليل ناعم تدفقت على إثره القطع الذهبية من النقد العثماني وذوات الحصان!...

واستولت الدهشة لحظة علي فتحية وسليم فجمدا مكانهما، وتركا للذهب أن يتدفق مع التراب علي غير وعي... ثم مالبثت المرأة أن انتبهت إلى الأمر فأسرعت إلى الباب تغلقه بإحكام... ثم أقبلت على سليم تقول له في حنان عميق: هذه ثروة هبطت عليكم من السماء فهلم يابني... هلمَّ إلى تجميعها قبل أن ينكشف أمرها...

وتناولت وسادة قديمة فسلخت ظهرها ثم جعلت تجمع وإياه فيها قطع الذهب، ثم نهضا مرة ثانية يشدان بالبرميل إلى اليمين، وإلى اليسار، ثم إلى أعلي، حتي فرغ من حشوه، ثم أخذا في تفلية التراب حفنة فحفنة، حتي أستيقنا أن لم يبق ثمة قطعة من المال واحدة.. وبعد أن أودعا القطع مكاناً أميناً عمداً إلى تجهيز الجثمان العزيز...

.. وفي المساء خلت فتحية بسليم في دارها، وجعلت تقول له: هذه المئات الخمس من الذهب هبة السماء إليك وإلى إخوتك فأحسن أستقبالها وأشكر الله عليها يابني، وأول مايجب عمله هو تسديد مبلغ

الرهن الواقع على بيتكم، ثم تنشىء ببقية المال عملا تجارياً تؤمن ببعض مردوده معيشة إخوتك.. ولا تنس أن نجاح العمل يتوقف على مدى إخلاصك وحسن نشاطك...

وما هي إلا أيام حتى وضعت خطة المرأة موضع التنفيذ، ففك رهن الدار، وافتتح العمل واستقرت حياة الأسرة...

وكانت فتحية مستيقنة أن ذلك الكنز لم يكن سوى مال زوجها الذي رأته ذات يوم معبأ في صرتين... ثم فقدت أثره ولم تعد تعرف من أمره إلا ما أخبرها هو من أنه كان أمانة لأحد الأصدقاء.

***

جريمة في قطنا

كان الرقيب برهان غارقاً في نوم ثقيل، عندما انطلق جرس الهاتف الموضوع بحذاء رأسه يقرع سمعه برنين مزعج طويل. ويبدو انه كان مستغرقاً في حلم غير سار سرعان مااختلطت أحداثه بهذا الرنين، فإذا هو يهب مذعوراً، وفي غير وعي يجذب جهاز الهاتف ويقذف به بعيداً، فيكاد يصدم رأس زميله المساعد، لولا أن رده جانب الوسادة، الذي كان مرتفعاً فوق ذراعه التي اعتادت أن تأخذ مكانها تحت الوسادة، كلما أخذ رأسه موضعه فوقها. وفي هذه اللحظة أخذ الرقيب يسترد كامل يقظته، فاعتذر لرفيقه بأنه كان يحلم انه في خط النار، وقد سقطت بجانبه قذيفة يدوية، فالتقطها ورمى بها ليتفادى انفجارها...

وكان جرس الهاتف مستمراً في رنينه، فرفع الرقيب السماعة..

ــ من هنا؟..ــ هنا مركز قطنا..ــ هنا مركز الضابطة العامة في قوة اليرموك بدمشق.. الرقيب برهان يتكلم.

ــ شكراً.. هنا زميل لكم من ضابطة اليرموك في معسكر قطنا وجد قتيلاً عند مدخل البلد.

ــ رقيب.. قتيل؟!.. أهكذا قلت؟!..

ــ نعم.. رقيب من ضابطة اليرموك الخاصة في قطنا.. وجدته جوالة الدرك.. قتيلاً أو ميتاً..

ــ قتيل.. ميت!!.. أقتيل هو أم ميت؟؟

ــ المكان يوهم أن في الأمر جريمة.. ولكن لايبدو في الجثمان مايدل على ذلك..

ــ شكراً.. احرسوا الجثمان.. سنجري اللازم حالاً..

وأعاد الرقيب السماعة.. وأطرق يفكر: الساعة الآن الثانية، ومعنى ذلك أنه لم يمض على نومه سوى ساعة.. وقد قضى يومه في عمل متواصل يراقب المتطوعة، ويستمع إلى الشكاوى و.. عشرات الأشياء الأخري، وكان يمني نفسه باغفاءة لايقطعها إلا النهوض لصلاة الفجر.. وهاهو ذا مضطراً إلى مغادرة فراشه قبل الموعد بثلاث ساعات، ليبدأ عملاً لايعلم متى ينتهي.. ومن يدري فقد يكون الرجل ميتاً لاقتيلاً، مادام الدرك وهم الذين شاهدوا جثمانه، لايستطيعون القطع بأحد الأمرين. وفي هذه الحال سيكون مجهوده خالياً من كل معني..!

وتذكر برهان أن مثل هذا التفكير لايحسن بالإنسان الذي وهب نفسه لواجب الجهاد، الذي لايكون قتالاً للعدو فقط، بل قتالاً للأهواء، وقتالاً للكسل الذي يدفع صاحبه لإيثار النوم على التحقيق في قضية كهذه.. أياً كانت نتائجها..

على أنه لم يخطر في ذهنه موضوع الجهاد حتى أحس بانقباض موجع.. لقد إنتظم في سلك المجاهدين، في غمرة من الحماسة الروحية التي تجعل الإستشهاد أروع مايتصوره القلب المؤمن، وهو الروح الذي كان يسيطر على معسكرات المجاهدين جميعاً، وبه بدأت المعارك الأولي، فكان النصر، وكان القتل، وكان كلاهما شيئاً جميلاً في نظر هؤلاء الذين فارقوا أهليهم وأعمالهم ابتغاء رضوان الله. ولا يزال يذكر الساعة التي فقد فيها رفيقه ومواطنه اللاذقي (محمد الصباغ).. ذلك الفتي الذي لم يستطع والداه صده عن خوض هذه الغمرة، لأنه كان شديد الرغبة في الشهادة، فأبي الله إلا أن يحقق له رغبته، وتم ذلك برصاصة يهودية حطمت فكه الأسفل، وحملت إليه المنية، بينما كان إلى جانبه يطلق نيران بندقيته على العدو.. وتحول الإصابة بينه وبين الكلام،

فيسلم الروح وعلى ثغره إبتسامة الرضى بما آتاه الله من فضله. ولقد خاض برهان بعد معركة القدس تلك عدة ملاحم، ورأى الغديد من رفاقه المؤمنين يسبقونه إلى الجنة، وفي كل مرة كان يتطلع إلى حظه من هذه النعمة، مزوداً نفسه لها بكل مايسعه.. ولكن الله لم يقدر له هذا المصير، ومدَّ بأجله حتى اليوم.. ليشهد التدهور المريع الذى بدأ يراود النفوس، فيطفيء شيئاً فشيئاً توهج الوقدة المقدسة، التي ساقتها إلى هذه الساحات.. وهاهو ذا يرى بعيني رأسه ذلك التطور الفاجع الذي أعقب الهدنة، فجعل يحول الطاقات، التي كانت معبأة لدك معاقل اليهود، واستنقاذ الأرض المقدسة،إلى تدمير نفسها بهذه الخلافات اليومية التي يثيرها المتطوعة فيما بينهم لأتفه الأسباب.. ثم بهذه الانحرافات التي أخذت تطل هنا وهناك من بعض النفوس التي اعتادت الإنحراف من قبل، ثم وجدت في الجهاد من أجل فلسطين فرصة للتوبة والتطهر.. حتى إذا تسرب روح الوهن إلى جهاز النضال العام، استيقظت فيها عوامل الضعف القديمة، فتكاد اليوم تستأنف سيرتها الأولى، لايمنعها من ذلك إلا هذه البقية الباقية من روح النظام الذي تكافح الضابطة من أجل صيانته في هذه المعسكرات..

ومما يساعد على مضاعفة هذا الانهيار المعنوي تلك الأنباء التي تأخذ طريقها بقوة إلى كل شفة ولسان بين المتطوعة. إنها أنباء خيانات تنسب إلى طائفة من الكبار.. الذين تصدوا لقيادة الجهاد، فإذا هم فيما يقال، يتواطئون مع العدو على تسليم الأرض المقدسة!.. لقد بدأت هذه الشوائع همسات في الخلوات، ثم انتهت إلى العلانية، يتداولها الجميع بين مصدق ومكذب.. وكفى بهذا وحده مثيراً للشكوك مثبطاً للعزائم، مدمراً للحماسة، محطماً لكل تصميم روحي..!

وكانت هذه التصورات تتفاعل في صدر الرقيب برهان وخياله، بينما هو متجه في سيارة الجيب نحو منزل القائد.. ولما وقفت به السيارة لدي الباب انتزع نفسه من شروده، وأعلن مهمته لحرس المنزل، وبعد قليل

أقبل العقيد في ثياب النوم ليستمع إلى الخبر، وليتلقى الرقيب توجيهاته اللازمة.. ثم عاد إلى السيارة ليصحب الرئيس الذي كلف التحقيق في القضية..

***

وكانت الساعة لاتعدو الثالثة إلا قليلاً، عندما وصل مكلفو التحقيق إلى حيث يستقر الجثمان تحت شجرة الجوز العجوز، التي تظلل أغصانها بعض الطريق الداخل إلى قطنا.. وترجل الرئيس وكاتبه، وتبعهما الرقيب برهان ليلقوا النظر الذي لابد منه على الجسد الهامد.

كانت الظلمة طاخية.. والجو كشأنه في مثل الليلة من اذار، قارساً، ولكن مصباح الضغط، الذي أحضره رجال الدرك لحراسة الجثمان، بدد الكثير من تلك الظلمة، ونشر شيئاً غير قليل من الدفء..

ونظر المحقق ومن معه إلى ذلك الجسد المنبطح على صدره، وقد امتد كل من ذراعيه في شبه زاوية قائمة، وانفرجت ساقاه.. ولم يبد من وجهه سوى جانبيه لأن مقدمته لاصقة بالأرض..

وتراءى ذلك الهيكل العملاق تحت الضوء المشع مهيب المنظر، يوحي بأن صاحبه كان على حظ من القوة الجسدية غير يسير..

ولم يشأ المحقق أن يغير وضع الجثمان، بانتظار الطبيب الشرعي.. ولكنه جعل يدقق النظر من أعلاه إلى أدناه، فلم يلمح أي أثر لجريمة.. اللهم إلا ذلك التماس الشديد الذي بدا بين وجهه والأرض، حتى لكأن أنفه قد كسر أو بسط تحت ضغط ثقيل. غير أن مثل هذا قد يتأتى من أيد آثمة كما يحدث من سقطة فادحة.. ومن يدري، فقد يكون الرجل مصاباً بالصرع، وقد فاجأه هنا، فأكبه على وجهه بهذه الصورة!

وبدأ المحقق استيضاحاته مع كبير الدرك:

ـــ من الرجل.. وما إسمه.. ومن أي البلاد هو؟ــ إسمه عبدالله خليل.. وهو أردني من أربد.. كان يتردد على مركزنا أثناء تجواله لمراقبة المتطوعين..

ـــ إذن فانتم تعرفون الكثير عن سلوكه الخلقي؟

ـــ بالتأكيد.. إنه رجل شهم يتحلى بإخلاص كبير.. وكان صارماً في حماية النظام.. مما جعل الكثيرين غير راضين عنه..

وأمسك المحقق عن متابعة الأسئلة، ليفكر بما يسمع، ولاح عليه أنه وجد في بعض هذا الوصف مايستحق إهتمامه.. ثم طلب إلى الرجل أن يطلعه على التقرير الذي كتبوه عن مشاهداتهم..

وقرأ التقرير.. وقف عند هذه الأسطر: «.. وكان آخر عمل قام به في قطنا هو إخراجه بعض المتطوعة بالقوة من خمارة (أبو جورج).. وفي تمام الساعة الثانية عشرة مرّ بنا في طريقه إلى المعسكر، ثم حوالي الساعة الواحدة والنصف شاهدته جوالتنا فاقد الروح تحت شجرة الجوز..»

وسأل الرجل مرة أخرى: هل تعرفون أحداً من أولئك الذين أكرههم على مغادرة الخمارة!؟ وجاءه الجواب بالنفي. فالتفت إلى الرقيب برهان: يحسن أن تحضر لي صاحب الخمارة. وسيرافقك احد الدرك ليرشدك إلى داره.. وستجدني بانتظاركم في مخفر الدرك

وترك المحقق الجثمان للطبيب الذي وصل آنئذ.. ومضى بسيارته إلى داخل البلد، ثم لم يكد يستقر إلا قليلاً حتى أقبلت سيارة الرقيب برهان بالخمار.. الذي أوشك قلبه أن يقف من شدة الرعب، ولما رأى المحقق اضطرابه سكن روعه، وأشار إليه بالجلوس، ثم جعل يسأله في لهجة لاتبعث القلق:

ـــ الرقيب في الضابطة الخاصة لقوة اليرموك في قطنا عبد الله خليل الأردني.. قد مر بحانتك مساء اليوم.. هل تذكر؟

ـــ نعم أذكر جيداًـــ ماذا عمل عندك ؟ـــ أخرج المتطوعة الذين كانوا يعربدون .. وعلى الفور أغلقت حانتي ودخلت الدار .. ثم لم أغادرها إلا الساعة .

ـــ حسن .. تذكر .. هل تعرف هؤلاء المتطوعة؟

انهم من أقطار مختلفة : اليمن .. الحجاز .. العراق .. و .. لذلك من العسير أن أعرفهم جميعاً ..

ـــ إذن فأنت تعرف بعضهم ؟ـــ طبعاً ..ـــ أذكر لي آسم هذا البعضـــ سيد حمدو الفلسطيني ، وعبده الخالد من الأردن ..ـــ ثم من !؟

ـــ لاأعرف أسماء الآخرين .. ولكن أظنني أعرف وجوههم ..

ولم يشأ المحقق أن يقطع تسلسل العمل فدعا بالرقيب برهان ، وكلفه أن يحمل الخمار في سيارته .. وبعد مكالمة هاتفية قصيرة انطلقت السيارتان في الطريق إلى معسكر اليرموك خارج قطنا ..

***

ودخل المحقق مع رئيس مثله من المعسكر ، ووراءه كاتب التحقيق والرقيب برهان .. دخلوا جميعاً إحدى قاعات النوم ، وكان نزلاؤها الثمانية يغطون في نوم عميق ..

وطلب المحقق أن يؤتى أولا بسعيد وعبده .. فأوقظا بصعوبة ، وكلفا ارتداء ثيابهما ، ثم أخرجا إلى غرفة مجاورة ، حيث جهز للمحقق مكتب مرتجل ..

ونظر المحقق إلى المتطوعين ، قد أخذتهما رعشة ظاهرة .. وبدأ الجحوظ في عينيهما القلقتين ، فلم ير في ذلك مايسترعي الاهتمام ، بل وجد له مايسوغه في برودة الجو ، والنهوض المباغث من النوم ، وأشار إلى

أحد الإثنين بأن يدنو منه، ولكنه لم يفهم مايريد، وجعل ينقل بصره بين رفيقه والمحقق في نظرات زائغة، فاضطر المحقق أن يشعره بقصده إليه، وقال له في لهجة الأمر: «أنت.. تعال»..

ولكن الرجل غلبه الإرتباك، فأخذ يجمجم، وهو يسارق رفيقه النظر: أنا!!. لا... ماأنا.. هو.. هو..!

وبدأ رفيقه فاغر الفم، كأنه عجز عن النطق، وقد بهتت عيناه، وانطفأ بريقهما، فكأنهما مصنوعتان من الزجاج، ولم يستطع ضبط ساقيه، فجعلتا تهتزان بصورة أفقدته التوازن..

وهنا أمر المحقق بإخراج هذا إلى مكان آخر، ودفع الأول نحو مكتبه مكرها..

ــ لم يبق مجال للكتمان.. خير لك أن تعترف.. وإلا فقدت كل حق بالعطف..

ــ أقسم لك.. اني.. اني.. لم أشترك بالقتل..

واهتزت أعصاب المحقق وهو يسمع لفظة القتل، الذي لم يذكر أنه رأى في هيئة القتيل أي دليل على حدوثه.. وثارت رغبته في معرفة التفاصيل التي بدأت تتدفق في جهد..

ــ لكن دورك بارز في الجريمة.. قلت لك: تكلم بصراحة واصدق لتستحق العطف.. وسترى أن كل شيء معروف.. ولا سبيل إلى الإنكار..

ــ وبلغت أعصاب المتهم نهاية الانهيار، ولم يبق له من سلطان على نفسه، فأخذ يتكلم، ويسجل الكاتب كل حرف من كلامه. حتى إذا استنفد التحقيق غرضه أمره المحقق بالجلوس.. وحذره أن يتكلم إلا باذنه.. ثم دعا بالمتهم الثاني..

ــ أي عبده.. لقد أتضح كل شيء.. فعليك بالصدق إذا شئت أن يكون لك حظ في الرحمة..

وحدق في وجه رفيقه سعيد قبل أية كلمة.. ورآه يحرك كتفيه ويقلب كفيه إشعاراً باعترافه.. فلم يدر بأي كلمة يجب أن يبدأ، وجعل يتمتم: الشيطان.. الشيطان..لـ..

وشد على أسنانه يريد إتمام كلمته، ولكنه عجز عن ذلك.. ثم لم يستطع كلاماً إلا بعد أن نضح وجهه بالماء ومص بعض قطرات منه.. ثم راح يفضي بمكنوناته في حال من الإعياء الإرادي التام..

وتوالى الأفراد باعترافهم واحداً تلو الآخر.. وكان في إقرار كل منهم ضرب من الإيحاء القاهر، يجر الآخر مكرهاً إلى الإفضاء بكل ما في نفسه..

وكانت الساعة قد قاربت السادسة.. وأطلت تباشير النهار، فلم يبق من مانع دون تمثيل وقائع الجريمة في مكانها..

وعند شجرة الجوز توزع الثمانية مهامهم وأمكنتهم.. فتسلق عبده وآخر معه الفرع الممتد فوق الطريق، وكمن اثنان في الخندق الأيمن من الطريق واحتل آخران خندقه الأيسر.. ثم تولى الباقيان مراقبة طرفي الطريق..

ــ «.. وكان لابد للرقيب من المرور بهذا المكان.. فلما ألقي مبروك حصاته على الشجرة تأهبنا للعمل، وانتظرنا حتى كان الرقيب تحتنا، فقذفنا بأنفسنا عليه وكاد يتغلب علينا رغم المفاجأة.. لولا أن أدركنا الرفاق من الخندقين، فأخذ بعضهم بيديه وبعضهم برجليه، وتمكنا بذلك من دفعه على وجهه.. وكان علي أن أتولى عرك أخدعه الأيمن، وعلى عبده عرك الأيسر، فما زلنا بهما حتى خمدت حركته تماماً.. وهنا جاء دور سعيد فغرس دبوساً في النقرة الخلفية من عنقه حتى مزق الحبل الشوكي.. وبذلك تمت الخطة، ونهضنا عن جسده..

وكان (شحادة) يسرد هذه المعلومات وهو يتبع كلا منها بتمثيل عملي ويستشهد كلا من رفاقه على دوره، فيأتي الإقرار مؤكداً لاخلاف فيه ولا غموض..

.. واستغرقت محاكمة القتلة قرابة الثلاثة الأشهر .. وصدر الحكم بإعدام ثلاثة منهم.. وتفاوت نصيب الباقين من السجن بين الخمس والخمس عشرة من السنين...

وكان الرقيب برهان واقفاً خارج قوس المحكمة يستمع إلى قرارها، فلم يستطع أن يتمالك دمعتين كبيرتين تدحرجتا على وجنتيه...

إنه لا يشك في عدالة الحكم.. ولكنه يتساءل في حيرة وحرقة: لقد جاء هؤلاء ليظفروا بالشهادة في فلسطين، أو يسهموا في إنقاذها، فلماذا حرموا احدى الحسنيين؟.. ومن المسؤول عن تحولهم إلى هذا المصير الحقير!!!

قصّة من « أرواد »

« ... دالله ... دالله ... ياحبيبي ... قم إلى رزقك ... لم يبق في النوم إلا الوطاويط ...»

ولم يكن دالله — وهو مختصر عبد الله — نائماً ، بل انه محروم من النوم منذ أكثر من ساعتين ، منذ أن تلقى سمعه صوت المؤذن القريب وهو يطلق تسبيحاته من أعلى المنارة بعد منتصف الليل ، ولعله كان يتمنى لو يستطيع شغل نفسه هم هذا الأرق بمثل عمل هذا المؤذن ، الذي ربما كان الدافع له إلى ذلك التسبيح محاولة الهرب من مثل هذه الهواجس التي تؤرقه ...

« وترك لجدته العجوز أن تعيد عباراتها التقليدية ، وهي تهز كتفه لينهض إلى عمله المملول ... ولكنه اضطر أخيراً إلى فتح عينيه لينظر إليها وهو يقول : ... أحرام على أن أشبع من النوم ولو يوماً واحداً ! ... ولماذا تريدنني على النهوض في هذا الوقت ؟ ... أليس عندك بقية من طعام أمس تكفينا طوال اليوم ! ... والله لقد أصبحت أكره كل شيء ... الصنارة ، والقصبة ، والبحر ، والسمك ... والنهوض الباكر ... هذه الأشياء التي لاأرى غيرها كل يوم .. »

ولم تكن العجوز بحاجة إلى الإهتمام بهذه الثرثرة ، فهي المعروفة المألوفة في كل صباح ، لذلك أخذت في رفع الغطاء عنه وهي تقول بصوتها الجاف البارد : عزا يجيك يادالله ... أشكر الله أن آتاك الصحة ، وهيأ لك القصبة والشص ... والبحر والسمك ... ولولا هي لأكلني وأياك الجوع .

ولم يبق له مندوحة من القيام،فرفع رأسه، ثم أخذ يدفع جسمه عضواً فعضواً في طريق النهوض، ولبث مقعياً في الفراش يضع رأسه على راحتيه، كأنه يخشى أن ينقطع حبل تصوراته، حتى إذا أخذ قسطه من الاستجمام جعل يتحرك في بطء كثير حتى استوى على قدميه، ورفع ذراعية إلى الأعلى، ثم مدهما بموازاة كتفيه، ثم أطبق أصابعه وراح يلوح بساعديه الزيلتين في الفضاء كأنه يهدد مجهولاً... ومن ثم غادر الفراش إلى فضاء الدار الصغيرة ليقضي حاجته، وبعد ذلك عاد ليصب على وجهه من الإبريق الذي اعتاد أن يجده بانتظاره في مدخل الغرفة... وما هي إلا لحظات حتى كان دالله متنكباً قصبته المديدة. يجتاز الصخور الفاصلة بين الدار الحقيرة والبحر... وهناك وضع كرسيه الخشبي القصير الذي ألف صحبته كل صباح، وظَلَ يفتش عن بعض الحشرات البحرية التى تصلح طعما للشص، ثم لم يلبث أن طوح به على مدي الخيط، بعد أن طرح بعض كسر الخبز على سطح الماء... ومن ثم أخذ مجلسه على الكرسي بانتظار الرزق.

ويظهر أن وضعه النفسي قد تعدى المألوف هذه الصبيحة، فهو لايزال على الحال التي كانت تعذبه منذ منتصف الليل، وقد أصبحت ذاكرته كالصفيحة التي أبلى الصدأ أسفلها، فأخذ الماء يتسرب منها على غير هدى...

إن الصور لتختلط في ذهنه دون ترابط... صور السفن الماخرة بعيداً بعيداً،... صور الاسفنج يموج على سطح القاع كأنه المنديل الموشى على جبين (الدهمة) بنت الجيران... صور المقاهي الشتوية يغيم فضاؤها بضباب النراجيل البراقة... وصور اللحوم الشهية منضودة في أسياخها على الجمر......

إنها لصور عجيبة لايدري كيف اتسع لها رأسه، ومن أين جاءته إلا أن تكون من صنع الحرمان الذي مابرح ينيخ على صدره منذ فتح عينيه على الدنيا...

لقد ابتلع هذا البحر الجبار أباه قبل خمس عشرة سنة ... ولم يكن ذلك بالحدث الغريب في هذه الجزيرة التي لايعرف فيها داراً نجا أهلها من نكبة بغريق، فكأن للبحر حقاً في سكانها لابد من أدائه قرب الوقت أو بعد ... وهو قدر كتب عليها منذ ربط القدر بين أهلها وهذا البحر، فجعل رزقهم بين مخالبه يُيسّر عليهم حيناً فيغمرهم بالخير حتى لايعرفون كيف يتصرفون به، ويشح عليهم أحياناً فتضيق بهم حدود الدنيا حتى لايكادون يهتدون إلي منفذ لخير، وقد أفرغ هذا الواقع على نفوسهم صفات مميزة لعل من أبرزها روح المغامرة التي تجعلهم يقدمون على صراع البحر في شجاعة أكبر من المعهود في حياة الناس... ثم روح الاستخفاف بالمال فلا يكادون ينالونه حتى يعمدوا إلي بعثرته ... وكان جو المغامرة قد ركز نظرهم في حاضرهم فلا يعتبرون بماض، ولا يتطلعون إلي آت ... وقد علمتهم حياتهم هــذه أن كل شيء إلي تحول، فلا رجاء بباق، ولا شقاء بمقيم.

ولقد كان من الطبيعي أن يتأثر دالله بجو أرواد هذا فيجعله أكثر قبولاً لواقع الحياة، وأشد انسجاماً مع هذا الواقع الذي آن له أن يألفه فلا يحس أي رغبة في التمرد عليه ... ولكن الذي يحول دون ذلك هو أن دالله لم يعرف من الحياة إلا جانبها الأسود طوال عمره الذي سجل ــ في غالب ظنه ــ عامه العشرين.. وكان معقولاً أن تتغير به الأحوال كغيره بين اليسر والعسر لو أنه ألقى نفسه مثلهم فى أحضان هذا البحر العريض، ملاحاً، أو غائصاً على الاسفنج، أو مشاركاً في صيد جماعي بالجرافة أو الشباك أو المتفجرات ... ولكنه لم يتح له أن يجرب شيئاً من ذلك، لأن العجوز قضت عليه أن لايعرف من طرائق الحياة إلا هذه القصبة ذات الشص يصارع بها هذا الشاطىء منذ أن وجد نفسه قادرا على السعى ... وأنى للشص الحقير أن يرتفع به فوق مستوى الفقر ... إنه لثقب ضيق قد يدر عليه من الرزق ما يؤمن له ولجدته بعض الحاجة ... ولكنه عاجز عن أن يغير واقعهما المظلم ... بل إنه كثيراً مابضن عليهما حتى بالقوت الضروري فيضطران إلي الاكتفاء بالهواء وبعض الماء وبعض الكسر اليابسة التي يجمعانها لعمليـة

الصيد... ولا سيما في فصل الشتاء، حيث تسد أبواب الرزق على سكان هذه الجزيرة، فلا يحظى بحاجته من الحياة إلا أولئك السعداء الذين واتاهم الحظ، فجعلوا من بيوتهم كمخازن للنمل تدخر الحبة البيضاء للأيام السوداء. وبذلك يكون فصل الشتاء بالنسبة لهؤلاء موسم الراحة والإستجمام، يستمتعون فيه بأطايب الطعام، وأطايب الحديث يتداولونها في حلقات السمر، سواء في البيوت أو المقاهي، حيث يتجمع الشباب من رفاق العمل في صفوف على محاذاة الجدران، وقد صفت أمامهم النراجيل الذهبية في ترتيب أنيق... ترسل زفراتها سحباً خفيفة شذية، وتضطرب أحشاؤها بقرقرة موسيقية تغمر المقهى بجو من الخدر اللاذ.

ولكن الشتاء بالنسبة إلي أمثال دالله ــ وقليل أمثاله في أرواد ــ هو موسم الشقاء الأشد كلوحاً. إنه الفترة التي يعاني فيها وجدته أسوا ضروب الحرمان ولولا ذلك الكيس الذي اعتادت الجدة أن تملأه من كسر الخبز اليابس كل سنة لكان على أحدهما أن يأكل الآخر، أو يموت كلاهما فعلاً من الجوع.

وعلى الرغم من سخاء الأرواديين، وعناية الموسرين منهم بأمر معسريهم في مثل هذا الفصل القاسي لم يكن حظ دالله وجدته بالشيء الذي يحسد عليه، ذلك لأن العارفين بأمرهما يكادون يجمعون على النفور من هذه الجدة، وأكثر الناس يتهمونها وحفيدها بالشح، لأنهم يعتقدون أن لديهما من المال ما يقيهما العسر، ولكنهما يؤثران إدخاره ليعيشا على ذلك الدخل التافه من صيد الشص، وليحركا الشفقة عليهما في قلوب المحسنين... حتى أقرباء دالله لم يكونوا أقل من الآخرين قسوة عليهما، فهم يجهرون بهذه التهمة، وكثيراً ماواجهوه بها قائلين: أين مال أبيك!... والله لن تنال منا خيراً مادام مخبوءاً لاينتفع أحد منه...

ويضيق صدر دالله بهذه الأسئلة، وتلك التهم توجه إليه وإلي جدته... وكاد أول الأمر أن يصدقهما فيظن في جدته الظنون، غير انه مالبث أن رجع إلي عقله، وأيقن أنها أكاذيب ملفقة لامسوغ لها إلا

ذلك الحقد الذي يحمله أقرباؤه نحو جدته كما أخبرته... وهو لم ينته إلي هذه النتيجة إلا بعد كثير من البحث والتنقيب،ولقد أصبح يتجنب جهده أن يذكرها بهذا الموضوع، لأنه رآها تقابل كل سؤال من هذا القبيل بالبكاء والعويل، وتستعدي الله في انكسار على كل من يرميها بهذه المفتريات... ومع أن يأسه من هذه الناحية قد دفع عنه الكثير من القلق، فهو لم يزل عاجزاً عن التوفيق بين مايسمعه من الناس عن مال أبيه، وما تؤكد له جدته من كذب هذه المزاعم لأن أباه في رأيها لم يملك قط من متاع الدنيا مايتجاوز حد الكفاف... وهي تتمني لو أن والدته كانت حية ليسمع منها كيف كانوا يقضون الأيام لاتوقد في بيتهم النار لطبخ أو استدفاء...

ولعل هذا كان واحداً من العوامل التي تزيد في كآبته إذ يتصور أن الحرمان الذي يعانيه اليوم قد عاناه أبوه وأمه من قبل: فكأن الله قد قسم عباده إلي أغنياء وفقراء، وجعل الفقر شيئاً في دماء أهله يورثونه أبناءهم كما يورثونهم أمراضهم وألوانهم وأسماءهم!...

ولكن دالله لم يكن بحاجة إلي كبير ذكاء حتى يدرك مبلغ الشطط في هذا الزعم... إنه يرى أكثر من واحد كان آباؤهم على الأرض فأصبحوا بعدهم على الأسرة... وآخرين تحدروا من آباء أغنياء فلم ينقض عليهم سوى القليل حتى باتوا في المعدمين... وكم من رجل كان يملك سفينة أو اثنتين فما هي إلا عشية أو ضحاها حتى التهم البحر كل مايملك، فإذا هو صفر اليدين لايملك شيئاً!... وهو هو نفسه لاينبغي أن يتهم بفقره القدر... ومن يدرى فلعله لو عمل في احدى سفن النقل أو الصيد لتبدل به الحال، ولتدارك الكثير مما ينقصه..

وهنا لمح القصبة فى يده... فلم يتمالك أن يلقى عليها بصفقة كبيرة أردفها بدفقة من الشتائم. إنها ــ دون ريب ــ القيد الذي يحبسه عن الانطلاق في دنيا الله، وسيظل على شقائه مادامت وسيلته الوحيدة إلى الرزق. قد تكون جميلة حين تصبح شيئاً من أدوات الترف، يتسلى بها

الأثرياء في أوقات فراغهم لدفع السأم. أما أن تكون كل شيء في حياة الإنسان فهذا من البلاء الذى لايطاق!...

وأحس دالله هنا بشيء من الراحة، إذ وجد نفسه يفكر بهجر هذه القصبة الكريهة إلى أي عمل آخر... وتصور انه بذلك يفتح لنفسه نافذة من الأمل لحياة أفضل... وكان لهذا أثر غير قليل في تركيز تخيلاته أخيراً في هذه النقطة... حتى كاد ينسى ما كان يراوده قبيل قليل من ذلك التمزق الذي أغرقه في أشتات التصورات المؤلمة...

ومد يده إلى الصخرة يتناول بعض كسر الخبز ليطرحه في منطقة الشص... فأخذت عينه صورة وجهه وصدره معكوسين على صفحة البقعة الراكدة تحت قدمية، فلم يسعه إلا أن يثبت بصره عليها قليلاً... لقد راعه ذلك الهزال الشديد الذي يعرق وجهه وذراعيه وصدره، فتبدو عظامه ناتئة لاتسر الناظر... وخيل إليه انه يجد هنا التفسير الطبيعي لذلك النفور الذي تبديه (الدهمة) بنت الجيران الصغيرة كلما وقعت عيناها عليه وهو خارج إلى الزقاق... لقد رآها أكثر من مرة تبتسم لابن عمه إسماعيل، فإذا وجه إليها بصره عبست وأعرضت، ثم أرخت ستار الخيش المعلق فوق بابهم لكي تتخلص من منظره!... وانه الآن ليجد لها كل الحق في هذا الجفاء، فما في وجهه ولا هيكله مايرضيه هو فضلاً عن الآخرين!...

وجعل يقلب نظره في ساعديه فيتعجب من نحولهما... ويقول في سخر بالغ: بالتأكيد لو أنني خلطتهما بساعديْ جدتي لما أمكنني التفريق بين يدي ويديها... فأي فرق إذن بين ابن العشرين وأم السبعين!!... ثم يتابع في حسرة: وكيف تستطيع مثل هاتين اليدين أن تحركا مجذافاً، أو تشدا شراعاً!... بالتالي كيف يجوز لمثله أن يطمع بالحصول على زوجة... وهو في حالته هذه من الفقر والضعف!... أن جسماً كهذا لم يخلق لغير هذه القصبة وليس في القصبة مطمع بأكثر من الكفاف... فليرض بواقعه، وليقض حياته في عناق الوسادة القذرة... فليس في الدنيا فتاة تفكر بهذا الضرب من الصعاليك...!

وكاد يعود إلى يأسه لولا تذكره أن الهزال ، الذي يؤلف كل موانع الطموح ، جدير بأن يزول في وقت قريب إذا تسنى له الحصول على بعض المغذيات ... لقد كان (الدحمان) ، وهو أحد جيرانه الأقربين ، في أشد المرض والضعف حين وصف له الطبيب الإكثار من عصير العنب والتفاح ، والاقتصار على الكبد والخضار ... فإذا هو في أقل من عام يزيد ضعف وزنه ، وليس هو بشاذ عن ذلك وحين ينال حاجته من هذه المآكل سيقفز إلى الصحة بخطاً واسعة ، وعندئذ سيتبدل وزنه وشكله ... وستغير الدهمة ... أجل الدهمة نفسها ، يومئذ رأيها فيه ، وسيكون له منها الموقف الذي يرد له اعتباره ...

***

وجلس دالله في فراشه يفكر ملياً في واقعه الجديد ...

لم يبق في البيت سواه ... وقد انقطع إلى الأبد ذلك الصوت الجاف البارد الذي كان يهدهده قبل الشروق من كل صباح لينهض إلى طلب الرزق : « دالله .. دالله .. قم ياحبيبي قم .. لم يبق نائماً غير الوطاويط .. »

والأبريق المطحلب الذي كان أبداً ينتظره بالماء على مدخل الغرفة ، أصبح الآن يتيماً فارغاً لايجد من يملؤهُ إذا هو لم يقم بذلك ...

لقد ذهب إلى القبر ذلك المخلوق الذي ظل رفيقه الفرد طوال خمس عشرة سنة ، فخسر بفقدانه الأنس الذي ما كان ليعرف قدره قبل هذه الأيام .. وحرم الصوت الفذ الذي كان يجود عليه بكلمة الحب التي لم يسمعها قط منذ أن تفتحت في صدره الحاجة إلى الحب .. فلن يطمع بعد اليوم بصوت آخر يسكب على مسمعه تلك النجوى القديمة السعيدة .. ولقد بات بعد صاحبة هذا الصوت يتشبث بفراشه لايكاد يطيق له فراقاً .. تماماً كواحد من هذه الوطاويط التي ينظر إليها الآن لاصقة بعوارض السقف الذي فوقه . لم تعان جدته طويلاً من المرض

وإنما خرجت من المطبخ عقيب الاغتسال، فوجدت نفسها مهشمة الصدر، على حد تعبيرها، يغلبها السعال حتى تبصق قطعاً من الدم.. ولم يكن يدري ماذا عليه أن يعمل لإسعافها، فذهب إلى الجيران يستشيرهم ويستنجدهم، ولما شاهدوها في حالتها تلك جاءوها بمطبب.. فأشار هذا بزرقها أنواعاً من الحقن زعم أن حياتها متوقفة عليها!.. ولكن من أين يأتي بالمال للحصول على هذا العلاج!.. وكاشفها حفيدها بما يزعم المطبب.. واستشارها فيما يعمل لتأمين الدواء.. فقلبت كفيها من اليأس.. وماذا تستطيع مسكينة مثلها في حالة كهذه سوى الاستسلام لقدر الله وانتظار رحمته!...

ولم يبطيء الأجل فوافاها عصر اليوم نفسه.. ثم لم تغرب شمسه حتى انتقلت إلى مقرها الجديد من المقبرة، مجهزة من قبل المحسنين بما سترها من الا كفان...

ولأول مرة بعد أكثر من عشر سنوات يدخل غرفة العجوز بعض أقرباء زوجها، فيساعدون في تجهيزها وخياطة كفنها.. ويصلحون وضع الغرفة لهذا المسكين الذي حرم المساعد.. ولم ينسوا أن يطهروا البيت من بعض الآثار التي لافائدة منها سوى زيادة الأوساخ.. فطووا فراش العجوز المحشو بالخرق البالية، وتركوا إلى دالله أن يجره ليقذف به إلى أعماق البحر.. ومنذ ذلك اليوم لم يغفلوا الفتى من عطفهم، فأخذوا يمدونه ببعض الطعام بين الحين والآخر.. وجعلوا يدعونه إلى تناول الطعام عندهم في بعض الأحيان...

وبالأمس ـــ وكان دالله في بيت خاله لطعام العشاء ـــ أثار خاله موضوع مال أبيه.. وجعل يؤكدُ للفتى أنه بعينيه اللتين سيأكلهما الدود شاهد أباه يودع ثلاثمئة ذهب كيسين من فوارغ «الخردق».. ويخبره بأنه سيشتري بمئة منها داراً، وسيبني ببقيتها (كيكاً).. وبعد أربعة أيام فقط عاجله القدر فغرق مع الغارقين، ولم يكن ثمة من يأتمنه على ماله سوى أمه العجوز التي أنكرت كل شيء.. ثم لم يبد عليها أي أثر للمال خلال هذه السنين جميعاً!...

وراح دالله يهمس لنفسه وهو على الفراش: «ولنفترض أن ذلك صحيح.. وأن جدتي قد احتضنت هذا المال فاين تذهب به.. وكيف تستطيع إخفاءه عني حتى الموت!!.. وها نحن أولاء قد نبشنا الأرض، ونقبنا الجدران، ولم ندع قدراً ولا خشبة إلا حركناها ونفضناها فلم نجد سوى الجرذان.. وبعض الفلفل القديم.. وقطعة نقد واحدة بنصف قرش! فأين. أين؟.. ولماذا ضنت على نفسها بليرة ذهبية واحدة ثمن علاج ينقذها من الهلاك. وهي تسمع إلى وصف المطبب لوضعها الخطر... لو أنها كانت تملك شيئاً ولو يسيراً من ذلك المال!!!..

وبعد هدأة يسيرة رفع صوته يقرر في تصميم: الحق أنني لاأستطيع فهم شيء.. وخير لي أن أريح نفسي من هذا البحث...

ونهض لتوه.. وفي غير تردد حمل قصبته وكرسيهُ ومضى إلى البحر...

وسمى الله.. وطرح كسر الخبز على وجه الماء الهادىء ثم لوح بشصه وقذف به على مدى الخيط وانتظر.. ولاحظ السمك يحوم عليه، إلا أنه لم يحس بحركته في القصبة، فرفعها إلى أعلى قليلاً لتوازي مسبح السمك، ولكنها لم تستجب، إذ كانت مشدودة إلى شيء هناك.. فجعل يحتال عليها، بيد أنه لم يستطع تخليصها حتى أخرج ماعلقت به، فإذا هو فراش جدته!...

يالله.. لقد طرحه في الطرف الأيمن من هذه البقعة.. ولم ينس أن يربط به بعض الحجارة المثقوبة ليمنعه من الطفو، فما الذي جاء به إلى هنا بعد عشرة أيام...!

وجر الفراش مرة أخري بعيداً عن البقعة كلها.. وأثقله بمزيد من الحجارة.. وعاد إلى مكانه يطلب رزقه...

***

.. وتتابعت أيام دالله على هذا النسق، يقضيها كدأبه بين البيت والبحر. وكان الفصل ربيعاً، والربيع موسم الخير في الماء واليابسة، فشغله وفير الرزق عن شعور الوحشة، ووثق علاقته بأهله أكثر فأكثر، فبات يهدى اليهم بعض السمك بين يوم ويوم، وفي صدره أمل بأن ينتقل إلى مركب خاله للعمل، فيتاح له بذلك أن يحقق الحلم الذي طالما راوده في تغيير واقعه.. ووجد لديه بعض الوفر، فأحب أن يعاود تلك المتعة التي جربها ذات يوم في التربع على أحد مقاعد المقهى المجاور، ومداعبة مصاصة النرجيلة بعد الغروب. كما يفعل أكثر الشباب في هذه الجزيرة.. ومن هنا بدأت حياته تتطور، وأخذ يحس تفتحاً وجهه حتى خيل إليه أنه أصبح أدنى إلى القيول مما كان عليه.. إنه، ليمشي بنشاط، ويستشعر في جسده قوة تمكنهُ من النجاح في أي جديداً للحياة مالبث أن آتى ثماره في تخفيف تلك الكآبة التقليدية عن وجهه، ليمشي بنشاط، ويستشعر في جسده قوة تمكنهُ من النجاح في أي عمل يعهد إليه في الملاحة.. وإذا استمرت الأمور في طريقها الطبيعي فسيكون له حصة كغيره من عمال سفن الشحن، تيسر له أن يتخذ لنفسه كسوة جديدة، وأن يوفر لبطنة الأغذية التي لابد منها لاستكمال الصحة.. وحينئذ يقترب جداً من أمنيته الكبري في الزواج.. تلك الأمنية التي لم يعد لذهنه شاغل أكبر منها...

وشاء القدر أن يدغدغ خياله مرة بعد مرة، فيعلق شصه بشيء في القاع ثم لايستطيع تخليصه إلا بإخراجه، فإذا هو هو الفراش الطريد نفسه!...

وكوم الفراش أمامه على الصخرة المقعرة.. وجعل يتساءل: هذه الكرة الثالثة التى يزحف فيها هذا الفراش القذر ليعض شصى..!.. أضاق به البحر فلم يجد غير هذه البقعة يتنزه فيها!.. أم أن وراءه يداً خفية تريد إزعاجى بهذه المداعبة الثقيلة!!..

وشبه له أنه يسمع صوت جدته يهتف به من وراء الطبيعة في جفافه وبرودته المألوفين: «عزا يجيك يادالله. اشكر الله على هذه القصبة التي لولا فضلها لهلكت من الجوع..»

ويلقي على نفسه بصوت مسموع هذا السؤال: «أصحيح أنني سأموت جوعاً إذا فارقت هذه القصبة!...»

وسرعان مايجيب بقوة مصممة: «لا.. لن أظل محبوساً على هذه القصبة.. ولن أعيش كما أريد إلا بمفارقتها..»

وبلغ الهياج به أشده.. وتجمع حقده على هذه القصبة اللعينة فإذا هو يجلد بها الصخر.. ولا يتمالك أن يجهز عليها عضا بأسنانه فيفتتها إرباً ارباً.. ثم يقذف بأشلائها صدر البحر.. ويتقدم نحو الفراش وقد صمم أن لايدع له مجالاً لمضايقته بعد الآن.. فأخذ يمزقه في عصبية.. ويبعثر أحشاءه من الخرق في كل اتجاه!...

وفي غمرة هذه الثورة اصطدمت يدا دالله بشيء صلب بين الخرق، فراح يشده بعنف يريد أن يدفع به إلى الماء...

وشد ماكانت المفاجأة كبيرة ومدهشة عندما تكشف ذلك الشيء الصلب عن كيسين من فوارغ الخردق.. سرعان ما اندلقت أحشاؤهما من خلال أصابعه قطعاً من الذهب مستديرة.. مالبثت أن واجهت الهواء حتى أخذت تتسابق إلى معانقة الصخور هنا وهناك. في شوق السجين الذي يرى الدنيا لأول مرة بعد العديد من السنين...!



حكيم من صافيتا

كانت قاعة الاستقبال تغص بالزوار من أنحاء مختلفة، وقد وفدوا، وأنا منهم لمجاملة صاحب الدار الذي لم يمض على وصوله من المهجر الأميركي سوى بضعة أيام.

وكان الحديث، كشأنه في مثل هذا الجو، متشعباً يقفز من موضوع إلى موضوع، دون أن يستوفي بحثاً، أو ينتهي إلى نتيجة.

وسألنا الصديق العائد عن حال مهاجرينا، وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والأدبية، وعن مشاهداته أثناء هذه السياحة في مختلف الأقطار التي مر بها. ولا أدري السبب الذي دفع بالحديث أخيراً إلى الاستقرار في المجال الفلسفي، فقد عرض صديقنا العائد صوراً من القلق النفسي الذي لمسه في عواصم أوروبة وأميركة، فكان ذلك مدعاة لتركز الحديث على موضوع الحضارات، وأصنافها وأهدافها، وأثر كل منها في الوجود الإنساني، ثم تحليل عناصر الخطر الذي يكمن فى انحرافات الحضارة الغربية، كما يصورها الكبار من مفكري الغرب نفسه..

وشارك معظم الحضور في نسيج الحديث، كلٌ بما يلائم اتجاهه وإدراكه، ولكن الذي لفت نظري من بينهم ذلك الرجل الهزيل، الذي وضعتني الأقدار بجواره، فلم أوله من نظري أول الأمر إلا بمقدار ماتفرض المجاملة من تحية عابرة وابتسامة فارغة..

لقد وجه صاحب الدار الكلام إلى هذا الرجل الضئيل يسأله رأيه فى مايسمع، فلم يعجل إلى الجواب، بل اعتذر بأن معلوماته في الموضوع لاتصلح للعرض، غير أن الصديق أصر عليه، ولكي يضعه تلقاء الأمر الواقع أخذ يعرفه لنا بالكلمات التالية: «إنه الأستاذ (داوود توما) غادر صافيتا في مطلع الحرب العالمية الأولى إلى

البرازيل، حيث قضى ثلاثين سنة. عمل في التجارة، وأتم دراسته على نفسه.. وقد شارك في كثير من الأعمال الثقافية والإنسانية هناك، وبلغ من حبه للعلم أن أصبح يتقن العديد من اللغات الحية، كالفرنسية والإنجليزية والألمانية والأسبانية، والقديمة كاليونانية واللاتينية والعبرية.. حتى السنسكريتية. ولا شك أن لأفكاره في موضوع الحضارات قيمة لاتُفوتّ.. .

وكنت أسمع هذا السرد في تعريف الرجل كضرب من التهكم الذي لايراد به إلا مجرد العبث.. ولم يكن ذلك ظني وحدي، بل رأيت أكثر من واحد في المجلس يشاركني هذا التقدير... فكان علينا أن نُصغْي لنسمع من الرجل البرهان الذي سيضُعه في مكانه الحق..

وانطلق يتحدث في حياء وأناة وجهد، كأنه خارج من عمل مرهق استنفد قوته، أو أقحم في موضوع لم يتهيأ له.. حتي أنامله لم يستطع أن يدفع عنها الرجفة الظاهرة. إلا أنه استطاع مع ذلك أن يقيم ركائز من الأفكار الصغيرة، مالبث أن مد فوقها العوارض والدعائم، حتى انتهت أخيراً إلى كيان علمي منظور.. فكان أشبه بإنسان مجهول أخذ يمر قلمه هنا وهنا، ثم لايلبث أن يؤلِف من خطوطه المبعثرة صورة معبرة، تكاد تنطق بكل مافي نفسه من تصورات وما في روحه من مواهب..

لقد حدد معاني الحضارة ومصادرها وبواعثها ومركباتها.. وسافر بنا عبر التاريخ إلى مصر فالهند فالصين فاليونان فالقدس فبغداد فدمشق.. ثم صار بنا إلى عواصم أوروبة وأميركة وروسية حيث تتصارع تيارات الحضارة الحديثة.. واضطر خلال ذلك إلى عرض بعض النصوص القديمة بلغاتها الأصلية، ثم ترجمتها بأسلوب فيه من الحياة مايهز المشاعر، فيجعلها تعيش معانيها بكل طاقاتها الإدراكية..

وقد برزت خلال حديثه نزعاته الروحية إذ كان شديد الإلحاح على ربط الأمن البشري بالتعاليم الإلهية، التي كانت وستظل بنظره أقصر طريق إلى الحضارة الصحيحة السعيدة..

وطبيعي أن لايتساوى الحضور في قبول أحكامه واستنتاجاته، ولكنهم كانوا سواء في الاستمتاع بطريقته، والإنتفاع بمعلوماته الدقيقة الواسعة، ولذلك أقبل معظمهم عليه يصافحه عند انفضاض الاجتماع.

وكان علي أن أبقى مع اثنين من الأصدقاء عند صاحب الدار إذ كنا ضيوفه. وسرني أن يتخلف داود عن القوم لأمر يبدو أنه قدم في الأصل من أجله، فأعدت استيضاحه حول بعض النقاط من حديثه، وتمنيت عليه لو أنه يزورني في طرطوس، وهى قريبة من صافيتنا، فقال: حتى الآن لم أجد مقرى النهائى، ولعلي أجد في طرطوس عملاً ما يقي نفسي ذل الحاجة لغير الله..

وكانت مفاجأة أخرى أن يكشف لي الرجل بهذه السرعة عن ذلك الجانب الخاص من نفسه، وآلمني أن يكون إنسان في الستين من عمره وفي مثل هذا الضعف الشديد، مضطراً إلى البحث عن القوت!.. ولم أعرف مايجب أن أقول له.. وكان صديقنا قد عاد من تشييع زواره فالتفت داوود إليه يسأله: هل من شيء، بشأن الأرض!..

وأجاب صديقنا: لم أجد فرصة للتفكير بها. على كل لست في حاجة إليها، وسابحث لك عن شار..:

وعاد داوود يقول: «أكرر ماسبق أن ذكرته لك. وهو أنني لاأرضى أية زيادة عما تساوي، وكل ماأتمناه هو أن يتاح لى من ثمنها رأس مال يمكنني من عمل صغير..»

— وأي رأس مال تأتي به أرض لاتعدو مساحتها الدونمين، ولا تتجاوز أشجارها الثلاثين!

— ولكنه علي كل حال يعتبر شيئاً حسناً لرجل يقنع بالكفاف..

— حقا.. إنها لقناعة عجيبة أن ينتقل الإنسان من جو الملايين إلى حدود المئات، ولا يجد فى ذلك أية غضاضة.

— ولم لا!.. لقد جئنا هذه الدنيا عراة، ونفارقها كذلك.. وكل مانحرزه منها بين المهد واللحد أحلام عابرة، لابقاء لها لأحد، ولا يستحق فقدا:ها أي أسف!..

وهنا انصرف صديقنا إلي بوجهه ليقول: إن حياة داو د لقصة غريبة.. لقد سجلت ثروته في البرازيل أرقاماً خيالية، ولكن مؤامرة غادرة أحالتها حلماً محزناً لاأثر له خارج نطاق الذكري.. وكان له هنا إرث من والده، لو بقي لكان جديراً أن يجد في مورده بعض العزاء، ولكنه لم يبق لأن والدته لم تر ضرورة لاستبقائه. فطار مع الأموال الكثيرة التي تلقتها منه أيام رخائه.. ولولا غفلتها عن هيذين الدونمين لما وجد اليوم مايساوم عليه..!

وكان داو د يصغي إلى كلمات الصديق في فتور غريب، كأن لاعلاقة له بها. ولم يكن بد من أن يعقب عليها بشيء فقال: ومع ذلك ليس من حق هذا كله أن ينسيني الحظ الكبير الذي بقي لي من رحمة الله...

وتدخلت في الحديث مستوضحاً: هل لي أن أعلم ماتريد؟!..

قال: نعم.. إنه النور الذي أخرجني من الظلام. لقد غادرت الجامعة الأمريكية في بيروت إلى البرازيل فراراً من أخطار الحرب العالمية الأولى، وكنت في طور المراهقة لاأكاد أثق بشيء، ولاأعلم عن الحقائق الإلهية إلا ماصب في أذني بطريق التلقين.. ثم شاء الله أن يملأ يدىي من المال، ويضيىء قلبي بالحق، ثم شاء كذلك أن يسترد هبته من الحطام، ويبقي لي نعمته من الهدى. وها أنذا أعود إلى بلادي فارغ اليدين من الذهب، ولكني مملوء الصدر بالإطمئنان.. أجل.. إنني أعود ومعي القرآن.. فأي قيمة لأموال الأرض بعد القرآن!!.

***

. لم أستطع فصل نفسي عن قضية داوود طوال ذلك اليوم، فلبث حديثه وصورته ورجفة يديه ونظرته الحنون مطبوعة علي ذاكرتي. وفي غير انتباه وجدتني أردد بعض كلماته، فيؤلف ذلك كله في أعماق نفسي صورة لاأستطيع محوها.. صورة حكيم أسطوري. يتراءي لعيني من وراء القرون، وقد صفت نفسه من شوائب الرغبة والرهبة، وانثالت

علي لسانه تجارب الإنسانية، في كلام يفارق كلام الناس بما له من طعم، وما عليه من وهج..

ولما اويت إلى فراشي عقيب فراغ مضيفنا من الزائرين، وجدت الفرصة مواتية لبعض الاستفهامات، فقلت له: إنني شديد الإعجاب بداود وشديد الأسف لأنني لاأستطيع عمل شيء من أجله..

قال مضيفي، وهو يأخذ مجلسه بجانب فراشي: ولو علمت تفاصيل قصته لازددت إعجاباً وأسفاً.. ثم راح يتابع: لقد بدأ عمله في المهجر تاجراً صغيراً بمساعدة بعض مواطنيه هناك، وباستقامته وسعة أخلاقه استطاع الاستحواذ على ثقة الذين عاملوه من كبار التجار وصغار الباعة، فأقبل عليه الحظ، حتي أصبح في العشر الأولى من سني هجرته بين الأوائل من تجار القهوة في البرازيل. وتزوج.. إلا أنه لم يرزق الولد، وبذلك، سلكت عواطفة الأبوية طريق الحب للآخرين، فشارك بالمؤسسات الخيرية، ولم يغفل أقرباءه من كل عون ممكن.. ووافى الأجل أباه عقيب الحرب، فنظم لأمه وكالة تطلق يدها في حصته من التركة..

وذات يوم جاءته رسالة من قريب يشكو ولداً له، زلزلته نوازع المراهقة، فترك المدرسة، وركب رأسه، فهو يسأله إذا كان يرى من الخير استقدامه إليه للعمل تحت رعايته، فلعل تغير الوسط مساعد على إنقاذه من هذه الفوضى..

وخيل إلى داوود توما أنه يستطيع تقديم خدمة طيبة لقريبه فيَسَّر لابنه سبيل القدوم، وأنزله خير منزل، وجعل يدربه على العمل، ويعده لإدارته.. وفي جلسة منزلية فاتحه أمام زوجه بأنه سيعهد إليه بتجارته كلها.. عندما يطمئن إلى انتظام أمره كما يجب.

وكان داوود في حاجة إلى رفيق صالح، يحمل عنه بعض أعباء تجارته، إذ لم يعد قادراً علي إعطائها نفسه كلها. لقد كان في قلبه هوى للمعرفة حمله معه من الشرق، كما حمل خصائصه الأخرى.. وبالرغم من مشاغل التجارة، لم يستطع إلا أن يتعهده بالمطالعة الدائمة لكل جديد

من نفيس الكتب، ولو أتيح لك أن تزور مكتبه الخاص في متجره آنذاك لرأيت عليه سجلات الحساب والبضائع، مقابل أكداس الكتب.. وللفت نظرك بوجه خاص أصناف المؤلفات الدينية تحتل رفاً مستقلاً على يمينه بمحاذاة الصندوق الحديدي وخزانة الأضابير. وهى مؤلفات لاتختص بدين واحد ولا تقتصر على لغة واحدة..

وقد حدثني هو عن مبدأ إتصاله بالقرآن، فقال: إنه عرفه لأول مرة عن طريق أحدى الترجمات الفرنسية، وكان قد قرأ عنها إطراء مغرياً في مجلة عالمية، فأقبل عليها يطالعها في وعي وتمحيص، كشأنه في كل مايقرأ، غيرأنه سرعان ماأصيب بصدمة مزعجة، إذ وجد في هذه الترجمة أموراً لايقبلها عقل ولا يستسيغها ضمير، ورأى أن يعود إلى الأصل العربي ليقابله مع الترجمة، فإذا هناك بون شاسع قد يكون مرده إلى أن صاحب الترجمة لم يستطع التحرر من مقاييس بيئته، أو لم يستطع الاتصال بروح التركيب العربي في القرآن؛ فأسلمه ذلك إلى هذا الانحراف كله.. ومن هنا سلك داوود طريقه إلى القرآن، فكثر به اتصاله، وراح يعقد المقابلات بينه وبين الكتب المقدسة الأخرى، وكان ذلك كافياً للتدله بالمعاني القرانية، وتتبع أحكامها، حتي بات، كما لاحظت، يري الغنم كله في ماوصل إليه من هذه الحقائق.. على أن هذا قد استتبع في نفسه تطوراً آخر، إذ نمى في عقله نزعة التحقيق، فامسى لايطمئن إلى فكرة إلا أن يقرأها في عبارتها الأصلية، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. وطبيعي أن يؤدي به هذا إلى الإستكثار من الدراسات اللغوية، حتى أصبح على هذا الإلمام الواسع بمختلف الألسن..

وأمسك مضيفي عن الحديث ليصب القهوة التي جاء بها الخادم، ثم قال: غير أن هذا الإكباب على العلم، إلى جانب تلك المشاركات الاجتماعية، التي كان يسهم بها في عدد من المؤسسات، لم تلبث أن طغت على اهتمامه بزوجه، وأصبح كثير الغياب عن المنزل، تمر الأيام لايعود إليه إلا فى ساعة متأخرة من الليل..

ولك أن تقدر النتائج التي ستعقب هذا الوضع...

أن هناك فتى لم يتخلص بعد من ضغط المراهقة.. وامرأة تشعر بأنها مسلوبة الحق، لاتنال من عناية الزوج مايروى عطش القلب المتفتح للحياة..

وهكذا انتهي الأمر أخيراً إلى قراره الطبيعي، في ذلك البيت الذي شاء القدر أن يكون مسرحاً لأسوأ الفواجع. ثم حدث هذا يوم تلقى صدر داوود، على مدخل داره، وفي منتصف الليل، أربع رصاصات، استقرت إحداهن في معدته!..

وظن القاتل أن فريسته قد انتهت، فتركها تعانق الأرض، ومضى ليخبر الشرطة بأن مجرماً قد أطلق النار علي نسيبه فأوداه.. غير أن نفس داوود لم تكن قد استوفت أجلها بعد، فنقل إلى حيث تدارك الأسعاف بقية الحياة في صدره..

ولقد استهلكت المعالجة من عمره عشر سنوات، كانت كافية للقضاء علي أمواله، التي تقاسمها الأطباء والمحامون.. والسارقون.. وحتى القاتل نفسه لم يكن أحسن حظاً، إذ قضى في السجن بضع سنين، ثم غادره قبل استيفاء مدة العقوبة بسبب فقدانه عقله، ولم يلبث بعد ذلك إلا قليلاً حتي أجهز علي نفسه بالانتحار حرقاً..!

وهكذا كتب علي داوود أن يجد نفسه أخيراً فارغ اليدين من كل قوة. لقد خسر ماله، فعاد كيوم وطئت قدمه أرض المهجر.. وخسر صحته إذ أصبح نصف ميت، لايكاد يستطع الحركة إلا في مشقة.. وبات مستحيلاً علي محطَّم معود مثله أن يستأنف عملاً أيا كان نوعه في أميركة، فلم يجد بداً من العودة إلى وطنه..

على أنه لم يكد يصير إلى مسقط رأسه حتى واجهته بقية المأساة..

***

وتوالت السنون على ذلك اليوم .. وفقدت رؤية داوود إلا مرة واحدة ليلة زارني على غير موعد، فكانت فرصة عزيزة استمتعت فيها بطرائف من الحكمة لاأزال أنعم بذكراها حتي الساعة .. وفيما بعد علمت أنه انُتدب لتدريس بعض اللغات الأجنبية في إحدى الثانويات، ثم انقطعت عني أخباره، حتي جاءني زميل لي من أقربائه يبلغني نبأ موته قبل قليل . . .

ولقد أحزنني نعيه يومئذ .. مع أنني لاأرتاب في أن وفاته كانت له راحة، إذ جاءت خاتمة ضرورية لمأساة طويلة . ولكن الذي أحزنني أنه عاش بقية حياته غريباً مجهولاً حتي بين أقرب الناس إليه !

وانني لأتصوره، وهو محمول إلى مثواه الأخير، في موكب متواضع لايتجاوز أفراده أصابع الكفين، فتطالعني من خلال ذلك صورة موجعة .. صورة الجهل .. جهل الناس لقيمة هذا الحكيم، الذي كانوا في أمس الحاجة إلى الاستضاءة بإشعاعه الروحي العميق .. والانتفاع بتجاربه الإنسانية الكبيرة .



عبرة ...

ليس في الحياة شيء يجري كما نريد، وكثيراً ما نجد أنفسنا في وضع لايأتلف مع طبائعنا، ولكننا مع ذلك لا نستطيع التخلص منه قبل أن ينتهي إلى مستقره.. وكذلك كانت علاقتي مع (صفوح).. فقد لبثت عاماً كاملاً ألتقي به كل مساء إلا أن يحول بيننا سفر أو قدر، وفي كل مرة أقدر أنه اللقاء الأخير، ذلك لأنني لم أشعر معه قط أنني مع صديق، بل على الضد تماماً كنت أحس فجوة واسعة جداً تفصل بين تكويني النفسي وتكوينه، فأتعجب كيف أستطيع الصبر عليه وكيف يستطيع هو أن يستسيغ النظر إليَّ! على أنني لو شئت أن أسوغ صلتي به لما أعوزني العذر، فأنا كمدرس ومفكر لاأستطيع الاجتزاء بجانب من الحياة عن سائرها، وأعتقد أن الحياة متحف أغرب ما فيه النماذج البشرية التي لا يعطيك الواحد منها صورة تامة عن الآخر، فلو أتيح لي أن أدرس تسعة وتسعين شخصاً من مئة لما وجدت فيهم جميعاً ما يغني عن دراسة الأخير...

وهكذا كانت صلتي بصفوح طوال تلك الأيام شيئاً مفيداً، كاطلاعي على كتاب رديء ما كان يتيسر لي الحكم عليه إلا أن أقرأه بنفسي.

لم أكن أعرف عن هذا الرجل من قبل سوى أنه واحد من مجموعة شبان، جمعتهم البطالة على نشدان اللذة في أدنى صورها.. فهمهم ينحصر في تدخين الحشيش أو يكاد، ومن سهراتهم تفوح روائح الخمور على اختلاف انواعها، فإذا انحلت أعصابهم بمفعول المخدر خرجوا يطوفون شوارع البلد يوقظون النيام بعربداتهم المزعجة، ويسلمون أنفسهم لضحك غريب لا يزال يدغدغهم حتى يلقي بهم على الأرض، يتمرغون

بترابها في نشوة لايتذوقها إلا هذا الطراز من المخلوقات، وكنت أعرف صفوحاً هذا من قهقهته المميزة في أثناء تلك الليالى، إذ تمرجوقتهم فى الشارع المقابل لحينا فيطير نومي، بما يتهاوى على مسمعي من ذلك الضجيج، الذي يشبه مجموعة متنافرة من أصوات أحياء الغابات.

وكأن بينهم سباقاً في مبلغ القدرة على إزعاج الناس، فإذا هم يفتنون في تلوين أصواتهم، وإذا قهقهة صاحبي هذا نسيج وحدها في تلك الموسيقي العجيبة المثيرة...

ويحدثني ذات يوم صديق لي حلاق عن ناحية أخري من مميزات صفوح، لاسبيل إلى معرفتها من خلال هذه العربدات وحدها. فقد ذكر أنه تجمع له في ذمته مقدار من المال لم يسده بالرغم من المطالبة الملحة مما اضطره لمقاضاته.. فما كان من صفوح الا أن دفع عن نفسه حكم المحكمة بالإنكار الذي أكده بأغلظ الأيمان...!

وبديهى. أن مثل هذه الانطباعات نحو الرجل من شأنها أن تعمق النفرة من مقاربته في نفسي، وبخاصة بعد الذى بلوته عن كثب من شواذه التى لم تزد صورته السابقة في ذهني الإ تثبيتاً وتوكيداً...

أذكر أنني كنت شكوت أمامه رجلاً اقترض مني مئة ليرة ثم أنكرها، وذكرت له أنني لاأملك بينة تثبت عليه الحق فقال: أقم عليه الدعوى وسمني شاهداً...

قلت: أوعندك علم بالقضية؟... فقال وهو يرسل قهقهة ذكرتني بعربداته القديمة: وهل ضروري أن أعلم!... ان للصديق على صديقه أكثر من شهادة...

وشد ماضحك من غباوتي عندما رأى اشمئزازي من هذا التبرع الوقح، وراح يحاول تعليمي بأن الصدق والحق والفضيلة وما إلى ذلك إنما هي أوهام يتسلى بها المغفلون، ولا تليق بأمثالي من المفكرين..!

وما أنسى لاأنسى يوم فاجأته في خلوة مع بعض القرويين يحرضهم على اغتيال أخيه، الذي قتل ذات يوم رجلين منهم في محاولة للدفاع عن

النفس... ويعدهم مقابل ذلك بإعطائهم كل ما يناله من إرثه..

ولعل أبرز مميزات صاحبي ذلك الغرور العجيب الذي يملؤه إعجاباً بعبقريته، فلا يكتم احتقاره للناس الذين لايقدرونها حق قدرها.

لاأذكر أن قضية طرحت أمامه إلا أعطى فيها الرأي الذي يعتبره الحاسم...

فهو الشاعر الذي لايشق له غبار، وإن لم ينظم بيتاً واحداً بعد...

وهو الفيلسوف الذي لاسبيل إلي استقامة حياة الناس إلا باشارته...

وهو ذو الاختصاص الموسيقي الدي فى وسعه أن يبدع كل جديد من الألحان، وإن لم يفعل بعد شيئاً سوى ترجيح بعض أغاني فريد الأطراش، بذلك الصوت الذي لايستجيب له إلا بعد جرعات من الخمرة المحرقة...!

***

وجئت داري ذات مساء فأخبرتني زوجتي أن أم صفوح تنتظرني منذ الظهر... ولما حييتها لم تستطع الرد إلا بعد وقت إذ كانت تغالب نفسها لكى لاتظهر فى صوتها بحة البكاء...

وفى حياء بالغ حدثتنى المرأة بعقوق إبنها هذا، وقسوته على أخيه... وطلبت إليّ أن أعمل علي تخفيف شره... فوعدتها خيراً، ولم أشأ أن أصارحها بما فى نفسي نحوه، وما أعرفه من غروره الذي يستعصي علي كل محاولة للاصلاح...

وقضيت ساعات من ليلتي تلك أفكر بأمر هذه المرأة..

لم أكن أعرفها من قبل، ومثلي فى ذلك جيرانها المقربون أنفسهم،

فقليل منهم الذين يعرفون لها وجهاً، أو يسمعون لها صوتا، ذلك أنها قلما تغادر بيتها لزيارة إحدى شقيقاتها، وهي منذ فقدت زوجها قبل أربعين سنة لم تزل حابسة نفسها على خدمة ولديها هذين، قد جعلتهما حظها من الدنيا، فلا تمد عينيها إلى أمنية سوي أن تراهما فى حياة هنيئة وصحة موفورة.. ومن هنا كانت فى نظر العارفين صورة من المرأة الكاملة التي ندر وجود مثلها فى النساء.

وترددت ملياً قبل مفاتحة صفوح بموضوع والدته.. ولما وجدت الفرصة مناسبة بدأت حديثي بالكلام عن فضل أمه، وشهرتها الطيبة بين الناس، ووقفها حياتها على خدمته وأخيه فحرمت نفسها بذلك حقها فى الزواج، مع أنها كانت يوم ترملها دون العشرين من السنين، وتقدم لطلب يدها عدد من الرجال الملائمين.

وأساءه أن يسمع إطرائي لوالدته، فراح يختلق لها السيئات، وجعل يؤكد لي أنها متآمرة عليه مع شقيقه.. شقيقه الذي لاأعرف له عملا غير خدمته...!

على أني استطعت مع ذلك أن أقنعه بالصبر. ووجوب التلطف بها من أجل نفسه على الأقل، إذ ان الشر الذي يثيره فى البيت سيؤدي إلى شقاء الجميع، وقد ينتهي به نفسه إلى كارثة.

واتفقنا على أن نجمع بينهما الليلة فى دارهم، وأخذت عليه العهد بأن يضبط أعصابه فلا يتجاوز فى معاملتها الأدب الواجب...

واستقبلتنا المرأة فى استحياء من الأثاث البسيط الذي هناك، وقدمت إلينا وسادتين جلسنا عليهما، وكان عندها امرأة جعلت تسألني عن صحتي ووالدتي وتذكرت عنايتها بي أثناء الطفولة.. وسرعان مااستعادت ذاكرتي صورتها وهي تضعني فى حجرها أو تصلح بينى وبين ابنها... فشعرت أنني فى جو روحي مؤثر، وتوقعت أن ننتهي إلى كثير من الخير... وبهذا الشعور السعيد افتتحت الحديث مذكراً واعظاً، ولم أنس أن أثير رحمة الوالدة فذكرتها بأن تضحياتها فى سبيل ولدها لن

تنتهي مادامت فى قيد الحياة ... قلت : من العبث أن نكلف أبناءنا أن يكونوا لنا مثلما كنا لهم ، لأن حكمة الله شاءت أن يكون الإيثار أسمى خصائص الأمومة والأبوة ، وأن يكون التغافل والنسيان أبرز خصائص البنوة ، فكأن مكافأتهم لنا تنحصر فى إحسانهم لأبنائهم دون أمهاتهم وآبائهم ... ولهذا فإني أدعو أم صفوح إلى مزيد من التضحية فى سبيله ،وأن تغفر له أخطاءه اليوم كما كانت تغفر له أخطاءه فى طفولته ...

ولم تتمالك العجوز فسمعت نشيجها ، ورأيتها تحني رأسها لتمسح عينيها وراء النقاب الكثيف ... ثم قالت فى لهجة كأنها الأنين الخافت : أسأل الله أن يهديه وأخاه ، وأن يغفر له كل إساآته إلى واليه ...

وفجأة لمحت يد صفوح تهوي بالوسادة على رأس أمه ، وأردف ذلك ببصقة وقحة قذف بها وجهها وهو يصيح : وهل أنا مسيء يا ...!

وتدحرجت الكلمات القذرة على لسانه ، كألفاظ التجديف يقذفها سفيه مصروع فى قلب المسجد ...

ووجمت تلقاء المشهد العجيب ... أحدج وجه ذلك المخلوق بنظرة لاأعرف كيف أستقبلها ... ووجدتني أهم بشيء لاأدري ماهو بالضبط ... ولكني ضغطت على أعصابي بأكثر مما أطيق ... ثم خيل إلى أن جدران الغرفة تتحرك وشعرت بالأرض تميد تحت قدمي وأنا أستمع إلى العجوز ترفع رأسها وهي تقول فى أناة رهيبة : « يارب ... خذ حقي ... »

ولم أعد قادراً على البقاء ، فنهضت لأنسحب من هذا الجو المخيف ، وقبل أن أغادر الباب أعدت النظر إلى وجه صفوح ، فإذا هو ينهض ثم يمضي أمامي وهو يشتم الرب ، ويتحدى قدرته ...!

***

ومرت الأيام فالشهور فالسنون... وكنت فى السيارة إلى موطني الجديد فى اللاذقية عندما رأيت السائق يتوقف عند أحد أعمدة الهاتف وهو يقول: هنا بهذا العمود اصطدمت سيارة صفوح فكانت الحصيلة قتيلاً ومهشمين...

وانتبهت لذكر صفوح، وسألت السائق تفصيلاً للقصة فقال: كان الثلاثة عائدين من سهرة حمراء، ويظهر أن السكر والنعاس كانا يغالبان صفوحاً، فما ان وصل بسيارته إلى هذه البقعة حتي وقعت الكارثة...

لقد قتل أحد الثلاثة فوراً، وكسرت ساقا الثاني، وكان نصيب صفوح تحطم الرجلين، واختلالا فى السلسلة الفقرية...

واستمر السائق فى حديثه عن نتائج الكارثة فقال: كانت مصيبة صفوح قمة المصائب الثلاث، ذلك أنه فقد وظيفته، ثم أنفق كل مايملك على معالجة كسوره، وهو الآن يعيش على الأرض.. ولولا عناية زوجته وأخيه لما وجد من ينظر إليه...

وشاء الله أن أمر بذلك البلد... وبينما كنت مع إخوان لي أجتاز بعض الطريق فوجئت من المنعطف المقابل برجل يتوكأ على عكازة منحني الظهر، ينتفض فى مشيته، وينقل خطاه فى جهد...

ولم أعرف الرجل أول الأمر حتي صافحت عيناي عينيه، فإذا هو يميل بوجهه مسرعاً إلى الناحية الأخرى، كأنه يريد الإفلات من نظري..

وهنا تذكرت ذلك المشهد الذي لم أنسه قط... وكأننى أري الآن بصقة هذا المخلوق تستقر على نقاب تلك العجوز ، التي لقيت وجه ربها مهيضة الجناح محطمة الفؤاد منذ أربع سنوات...

وتركت لصفوح ساعتئذ أن يوهم نفسه بأنني لم أره، إذ واصلت طريقي متشاغلاً عنه...

مسكين لقد خشي أن أشمت به، ولم يعلم أن قلبي يفيض بالحرقة عليه، وأن فى العبرة مايشغل عن الشماتة...

فاللهم رحماك وتباركت...

لقد استجبت الدعاء أخيراً... وأخذت بالحق... وكان أخذك أليماً شديداً...

***

الصّياد والمرفأ

كان أبو جهاد في الخامسة والسبعين من العمر، ولم يكن هو يخفي ذلك، ولكن جميع ظواهره مستعدة أن تخدع كل ناظر فلا يُقدر له اكثر من الخامسة والخمسين. ومرد ذلك بالدرجة الأولى إلي تلك الرشاقة العجيبة التي يطالعك بها في كل حركة، فتريك اياه كتلة من النشاط الفائق لاتكاد تجد له مثيلا حتى في أوساط أقرانه من البحارة والصيادين.. إنك لتراه يقذف بنفسه في زورق الصيد بمثل خفة النمر، ثم يأخذ في دفعه بكلا المجذافين وحيداً، يوازن سيره، وينظم سرعته وهو مع ذلك يراقب أعماق الماء، حتى يستقر بصره علي المكان الملائم، فيلقي مرساته في أناة، ثم يبدأ عمله في الصيد، وهو غارق في التدخين الذي لا ينفك عنه منذ اللفافة الأولي...

لقد ورث أبو جهاد حرفة الصيد عن أبيه، الذي قضى حياته الطويلة مقصوراً علي صيد الشص والقصبة والفانوس... ولكن نشاطه أبي عليه أن يقف عند موضع أبيه، فما برح يسعى سعيه حتى صار اليه هذا الزورق، وفيه مختلف أدوات الصيد، من القصبة، إلى (الماطريان) إلي الشبكة، إلي (اللوكس).. وعلي الرغم من كرهه لأستعمال المتفجرات فهو يحتفظ في مكان ما من الزورق بعدة أصابع معدة للعمل.. وقد كان لهذا الزورق طالعه الموفق إذ استطاع أن يوفر من دخله حتي الآن ما مكنه من شراء دار صغيرة تتسع لأكثر من أسرته التي لم تزد عن خمس أنفس... فضلا عن عدد من الشباك الحريرية التي كلفته مالا يقل عن ألف ليرة...

ونجاح كهذا من شأنه أن يقابل بالقناعة الراضية عند غير أبي جهاد.. ذلك لأن طموح الرجل كان وراء هذه الحدود، وما كان للسنين

أن تنهنه من هذا الطموح في صدره... ولعل شعوره بسلامة جسمه، وحدة نشاطه قد ساعده علي استبقاء جذوة الأمل حية متقدة كعهدها في صدور الأقلين من الشبان، وربما كانت هذه الميزة النفسية هي التي أكسبته كنية (أبي جهاد) في الوسط الذيّ يعيش فيه... وبخاصة عندما نعلم أن له ثلاثة أبناء ليس بينهم واحد باسم جهاد..!

ولقد كان أبو جهاد صياداً عادياً لم يدخل كُتاباً قط... ولم يتعلم حرفاً من أي كتاب.. ولكنه كان إلي ذلك ذا نظر ثاقب يدرك به ما يعجز الكثيرين من أبناء حرفته... وقد ركز الطموح في نفسه آراء كثيراً ما يطرحها علي رفاقه عندما تجمعهم حلقة النرجيلة في زاوية المقهي الذي ألفوا التلاقي فيه..

إنه موقن ألا ثبات لشيء في هذه الحياة.. كل شيء يتحرك ويتبدل. الفقر لا يدوم... والغني كذلك... والناس عابرون إلي الفناء، وفي طريقهم يمرون بمختلف الحظوظ.. فرخاء وشقاء.. وضيق وانفراج...وصعود ونزول... والمهم ألا ينظر الذين هم تحت الي وضعهم كشيء نهائي غير قابل للتغيير.. وكثيراً ما يمثل لأفكاره بهذه الدور التي تشرف من بعيد علي المقهي...أنها في خلال أيامه هو قد تداولها عدد من المالكين، كالكرة التي يعبث بها الأطفال... وما دام الأمر كذلك في كل شيء فلماذا يقنع هؤلاء الفقراء بواقعهم المزري ويسمونه النصيب، إن نصيب الانسان هو كل ما يجده في الحياة، فاذا كان نصيبه اليوم هذا الحرمان الذي يكدحون فيه فبقليل من الجد قد يتغير فيصبح نصيبهم شيئاً آخر...!

وبديهي أن أولئك الرفاق مع اعجابهم البالغ بأفكار أبي جهاد هذه لم يكونوا متفقين معه في كل ما يذهب إليه، ولعل مرد ذلك إلي الاختلاف الطبعي بينهم وبينه في مجال النشاط، الذي لا يخجلهم أن يقروا له بالسبق في حلبته..

***

وكان الوقت قبيل العصر عندما أخذ أبو جهاد يفرش شباكه فوق المنبسط المطل على الشاطيء.. وبعد جولة تفتيشية قصيرة عليها هنا وهناك ألقي بنفسه في ظل أحد البيوت القريبة، وأخذ يعمل في ترميم بعض العري الممزقة من إحدى هذه الشباك...

وكان الجو فاتراً ندياً كأي وقت مماثل من أيلول، تمر نسائمه في بطء كأنها تثاؤبة مكدود أكره علي النهوض من نوم غير كاف. وكانت هينمات صارخة تتصاعد بين اللحظة والأخري، كالقهقهة المحبوسة، يطلقها انطراح بعض الموجات الخفيفة علي أضلاع الزورق المشدود إلي الصخر القريب... ومن بعيد ارتفع أنين سلسلة حديدية فك رباطها عامل في سيارة شحن.. ثم تلا ذلك دوي التراب يتهاوي من صندوق الشاحنة إلي أسفل التجويف البحري. وهنا أمسك أبو جهاد عن حبك الخيوط، وراح يدير عينيه في أنحاء هذا الأفق الشاسع.. وسرعان ما شغل عن شباكه بأشياء وأشياء..

ووجد نفسه موزع الخواطر بين أشتات التصورات.. ويذكر في أثناء ذلك ماضيه القديم أيام كان يزرع هذا الشاطيء وراء أبيه باحثين عن طعوم للشص، أو ساعيين بقصبتيهما خلف الأسماك..

لقد ولد وفي يده الشص والقصبة... وها هو ذا يدلف نحو الثمانين ولا يزال حيث كان من الحياة، لم يختلف عن أمسه البعيد إلا قليلاً.. وقد بات شديد الخشية أن يترك أبناءه الثلاثة علي مثل ماتركه أبوه، يضربون في أكناف هذا الشط باحثين عن القوت إلي قيام الساعة!.. وفجأة تذكر أن هذا الشاطيء نفسه سوف يغلق في وجهه بعد قليل، لأن مرفأ كبيراً يوشك أن ينشأ مكانه، فلا يتاح له ولا لأبنائه من بعد متابعة السعي في هذه البقعة..

وهنا وقف بفكره كمن اصطدم بحاجز مباغت. ثم أخذ يتساءل: انه لعمل ضخم يستوعب مئات الأيدى وعشرات السفن.. فلماذا لا أفكر بإيجاد منفذ إليه!؟...

وغير مكان جلسته، واشرأب بعنقه ناحية الفجوة الهائلة التي اختيرت للمرفأ.. وطالعه من بعيد مشهد عشرات العمال يتحركون في اتجاهات مختلفة، وبينهم عدد من المتبرنطين، أحدهم يحدق في منظار وآخر يشرف علي تثبيت أوتادِه..وعلي رأس الطرف الأقصي من الفجوة اثنان منهم أو أكثر يحصرون إشاراتهم في امتداد البحر..

ولم يعد أبو جهاد قادراً علي ضبط أفكاره في حدود هذه المرئيات من حركات العمال والمهندسين.. وأحس بحاجة لا تدفع إلي الاستلقاء، فوضع حذاءه علي حجر، ثم جعل رأسه فوقه، وأطلق لعينيه عنان التأمل تجوبان خلال عالم غير منظور.

***

.. وكان الشاطيء الصخري يعج بالخلق علي مدي الإنحناء الذي أحدثه مئات العمال والخبراء، وهنا وهناك عشرات الجرافات والحفارات تناطح الصخور، أو تشق الأخاديد، أو ترفع الأنقاض، لتقذف بها فوق الثلم الذي أخذ يمتد وينبسط في قلب البحر، ليؤلف الذراع الجبارة التي يراد منها أن تحيط بحمايتها عشرات البواخر..

وعلي مبعدة ميلين من الشط باخرة من عابرات المحيط تتحرك روافعها دائبة، لتنقل إلي سفينتي (التجريم) محتوياتها من أجهزة المرفأ...

وفي مقدمة إحدي السفينتين انتصب أبو جهاد كالوتد الراسخ يعض لفافته ويراقب حركة عماله، وهو يصيحُ بين الحين والحين: الله مع الشباب... الله مع الجدعان... من هذه الجهة ياأبو حمود..

وكثيراً ما يأخذه الغضب فإذا هو يبصق الشتائم دون تقييد: دين..سماء..رب.. ياأخو ال...! ولكن العمال غارقون في حركتهم، لا يلتفتون إلي شيء غير أذرع الروافع، يدفعون هذه إلي مكانها المنشود، ويحلون تلك ليرفعوا قبضتها عن حمولتها من الأجهزة الحديدية..

ولا يغفل أبو جهاد عن مراقبة السفينة الأخري، فهو من مكانه يوزع مثل هاتيك المقذوفات علي عمالها يحمسهم مرة ويشتمهم مرات..

وقد كان في وسع أبي جهاد أن يريح نفسه من بعض هذا العناء لو شاء الاعتماد علي ولديه اللذين بدآ يساعدانه في الاشراف علي السفينتين، فهما لا يقلان عن أبيهما يقظة وارتفاع صوت.. ولكن طبيعة أبي جهاد التي عودته أبداً الاعتماد علي نفسه تأبي عليه نشدان الراحة في مثل هذا الجو المشحون بالحركة..

وتضطرب السفينتان بين الباخرة والشط.. كأنهما رئتان لا عمل لهما سوي الفراغ والامتلاء.. وينتقل أبو جهاد بينهما قافزاً من هذه إلي تلك في عرض البحر كالسمكة الطائرة أو كالسنجاب الواثب بين الأشجار..!

وكاد أبو جهاد ينسي في هذه الغمرة الصاخبة أيام الصيد، فلا تمر بخياله إلا طيوفاً عابرة.. وأين للزورق والشبكة وما إليهما أن يجدا سبيلاً إلي رأسه، بعد أن أصبح بأجمعه ملكاً خالصاً لهذا العمل الذي أوشك أن يصرفه عن كل شيء..!

إن خمسين عاملا يتحركون بين يديه من قبل مطلع الشمس إلي ما بعد غروبها، وعليه أن يلاحظ كلا منهم فلا يضيع دقيقة بغير فائدة.. وهناك السفينتان اللتان تتطلبان رعاية دائبة من إصلاح ودهان.. ثم هناك الحساب، وهو وحده يستغرق الجهود الكبار: أوزان المنقولات، وعدد الساعات والأيام، ثم استيفاء الأجور علي ذلك، وتوزيع الحصص الأسبوعية علي أصحابها من العمال..

وتبعاً لتطور العمل في المرفأ بات عليه أن يستعد لزيادة عماله ووسائل (تجريمه) فسيستقبل الميناء بعد قليل أكثر من باخرة في اليوم، وهذا يقتضي أن يكون لديه عدد آخر من السفن.. ثم تأتي ظروف المواسم حيث تفرغ البواخر تملأ حبوباً وقطناً، وفي هذه الحالة ستكون

الحاجة إلي أسطول من سفن التجريم ومئات من العمال..!

لقد دخل أبو جهاد منطقة المرفأ بسفينة واحدة لم يحصل عليها إلا بعد أن باع كل مايملك من دار وزورق وأدوات صيد.. وكانت هناك سفينة أخري قد سبقته إلي هذا العمل.. فما هو ألا أن ألف جوه الجديد وأحاط بملابساته حتي أدراك أن المجال — علي سعته — لا يصلح له أكثر من مالك واحد، فإما أن يبيع سفينته لذلك المتنافس، أو يشتري هو سفينته..! ولم يكن أمر المال بالشيء الهام بعد أن انفتح له هذا الباب الواسع من الموارد اليومية المتزايدة، وما كان ليخطر في باله أن يغادر هذا المرفأ بعد أن دخله، فما عليه إذن إلا اختراع الوسيلة التي تمكنه من إدخال السفينة الأخري في ملكيته بأي ثمن.. ولم يعدم أبو جهاد القدرة علي تنفيذ خطته... فما هي سوي أيام معدودة حتي خلا له وجه المرفأ وأصبح المالك الوحيد للسفينتين الوحيدتين فيه...

***

لم يفاجأ أبو جهاد بشيء.. وصح ماتوقعه من ازدياد حركة المرفأ أضعافاً مضاعفة، فكان مستعداً لذلك، وها هوذا الآن يملك عشراً من سفن التجريم.. عليها مئتان وخمسون من أنشط عمال البحر، وقد عرف كيف ينظم هذا العمل الكبير، فحشد فيه كل فتي من أقربائه الأدنين والأبعدين، وجعل لهم علاوات لا ينالها سائر العمال.. ومن بوادر التوفيق أن شيئا من ذلك علي كثرة تكاليفه، لم يثقل كاهله بما لا يطيق، فهو قد خصص كل فائض من دخله الضخم لبناء السفن، فإذا هي تتابع وفق الحاجة واحدة إثر أخرى، وبذلك كانت كل واحدة وليدة سابقتها، بدخلها تقوم وعلي مددها تعتمد... وكان أول الأمر يشتري السفينة مصنوعة تامة، ولكن ذلك قد انتهي من السفينة الخامسة، إذ أحدث مصنعاً خاصاً لاصلاح السفن القديمة وإنشاء الحديثة..

وفي مصنعه اليوم استعداد مستمر لبناء عشر أخري من السفن ينتظر أن توافي البحر خلال شهر.. وهكذا تجلت النعمة علي أبي جهاد دفاقة مدهشة.. وما هي إلا سنوات ثلاث فقط حتي احتل ذكره

المركز الأول بين رجال المال في البلد... وبدأت مظاهر الثراء تطل باسمه دوراً هنا، وحقولا هناك، وعشرات السيارات للركوب والشحن، لا يكاد هو يعرف عددها ولا أسماء سائقيها إلا حين يأتونه لقبض مرتباتهم!... وشاعت قصص كرمه علي الشفاه والألسن بشكل لا تعرف له نظيراً إلا في نوادر (ألف ليلة وليلة)...

ولو أصغيت إلي هؤلاء المتحدثين بأخبار الرجل لسمعت الأعاجيب: فكم من أرملة أنشأ لها ولأيتامها داراً آوتهم بعد تشرد... وكم من مريض كاد يغتاله المرض والفقر لولا نجدة أبي جهاد الذي حمله إلي أرقي المستشفيات، حيث أجريت له الجراحة المنقذة، ثم عاد إلي أهله يرفل بالصحة وينعم بالمال...!

وكم من قرية لا مسجد لها، فوجئت بمال أبي جهاد ينشيء لها المسجد، ويؤمن لمسجدها الأوقاف وإن كان هو لا يعرف ما يصنع الناس داخل المسجد!..

وصحيح أن أخبار العامة كثيرة الأكاذيب... إلا أن الواقع يؤكد أن أخبار الرجل لم تكن لغواً كلها، ذلك لأنه موقن بالمثل القائل: (أطعم التسعة لتأكل العشرة) وقد أطعم بالفعل، ومد بالعون الكثيرين من المعوزين، وحسبه فضلاً أنه أغني أقرباءه حتي لا تكاد تجد بينهم — علي كثرتهم — ذا حاجة، ومكن لأكثر من واحد من هؤلاء أن ينفق ويتصدق ويفعل الخير...

يضاف إلي ذلك كله أن أبا جهاد قد ظل حتي الساعة محتفظا بطابعه الشعبي، لم يغير طراز ثوبه، ولا وضع طربوشة الذى اعتاد أن يلقيه فوق شعره دون ترجيل، فيطل من حوله علي غير نظام.. وكثيراً ما تراه بين العشرات من عماله مقعيا علي الأرض لا يحول بينها وبين ثيابه شيء. وقد عجزت الملايين عن أن تبعث فيه الزهو، أو أن تنسيه نشأته الأولي، ومن أجل ذلك تسمعه في كثير من الأحيان يحدث عماله أو سواهم عن أيام الفقر، إذ كان رزقه يقطر من ثقب فلا يتجاوز قوت

يومه.. ولقد بلغ من إلحاحه علي إبراز ذلك الماضي أنه لم يستنكف عن الاشادة بذلك البيت الكريم الذي كان لا يفتأ يتعهده بالمآكل الشهية في أكثر الأماسي، التي اعتاد أن يفرش شباكه في ظله.

ومن هنا جاء تقدير الناس لأبي جهاد، إذ جعلوا يقصون عن تواضعه القصص التي تشبه الأساطير، ومن حقهم أن يفعلوا، لأن الذي يرونه ويسمعونه من أعمال الرجل تخالف كل ما ألفوه من أصحاب المال، أبناء الطبقات التي ورثت الجاه والثراء في هذا البلد.

إن الواحد من هؤلاء ليشمخ بانفه الي السماء، فإذا اضطر إلي مواجهة أحد العمال أو الصناع من أوساط الناس أو فقرائهم نظر إليه من فوق في اشمئزاز وتقزز كأنه حشرة حقيرة، ثم لا يرضي حتي يشعره بمكانه من الهوان في نفسه!.. وقد احتكر هؤلاء لأبناء طبقتهم الممتازة أمكنة القيادة في المجتمع، فهم يتقاسمونها فيما بينهم، ثم لا يسمحون لأي من أولئك (المنبوذين) أن يتطلع إليها أياً كان موضعه من النبوغ أو التفوق.

وإنه لوضع مزر من شأنه أن يشحن صدور الناس بالنقمة الخفية، فإذا أتاح القدر لواحد من غمارهم أن يزحم هذه الطبقة المتسلطة بالمال أو الجاه وجدوا في ظهوره نوعاً من الثأر لكرامتهم المجروحة، فوجهوا نظرهم إليه، وراحوا يتحدثون عن حسناته، ويخلقون له مالا يملك من الحسنات!.. ولعل القوم، بدافع من هذا الإعجاب بانتصارات أبي جهاد، قد سمحوا لأنفسهم بالإغضاء عن بعض نواحي قسوته التي ذاق منها الكثير من عماله الأمين:

إن الذين شهدوا كل تلك المظاهر الجميلة من تواضعه قد رأوا كذلك غير قليل من مظاهر العنف التي يذلل بها عماله.. إن أبا جهاد الذي يجالس هؤلاء علي الأرض، ويطرفهم بأنباء ماضية المتواضع، هو نفسه الذي يثور بأحدهم لأتفه الأسباب، فيصب عليه سيول الشتائم، حتي إذا جرؤ علي كلمة احتجاج صرخ به علي مسمع الجميع: براً.. لقد قطعت رزقك! وهي كلمة توازي الحكم بإعدام

العامل المغضوب عليه، لأنها تقضي بإلقائه خارج العمل دون شفقة..

ولقد لقي هذا المصير عدد غير قليل من أولئك العمال الذين ساقهم سوء الطالع إلي مجابهة أبي جهاد بأي احتجاج أو جدال، مما أعقب في صدور بقيتهم هيبة شديدة، جعلت كلا منهم يعمل المستحيل لتجنب مثل تلك النهاية، دون أن يخطر في بالهم أن في الدنيا وسيلة أخرى لرد هذا البلاء الذي يتهدد الجميع..!

ولقد رأوا عدداً من هؤلاء المطرودين يتجمعون للدفاع عما يسمونه حقوقهم في العمل، فكانت العاقبة معركة أوقد أبو جهاد نارها في قلبْ المدينة، إذ زحف علي رأس طائفة من عماله وأقربائه لتأديب هؤلاء العصاة، فأطلقوا الرصاص، وحطموا الأبواب، ثم انقلبوا سالمين لم يمسهم سوء.. وكانت النتيجة اندحار العصاة، ثم خفوت صوتهم نهائياً.. ولم تكلف المعركة كلها أبا جهاد سوي بضع مئات من الليرات، دفع بعضها تعويضاً لأصحاب المقاهي، وقطع ببقيتها ألسنة يجب أن تخرس!

وهكذا أصبح أبو جهاد ملء السمع والبصر.. مهابة وثراء، وبهما بات محط أنظار الجميع وإعجابهم.. وكان لذكائه الفطري، وشجاعته المغامرة، وتحقيقه لقانون (أطعم التسعة لتأكل العشرة) اليد الطولي في كل ذلك المجد.

***

والنعمة جالبة الحسد.. فما برزت في مكان من الأرض إلا تبعها ذلك الغول يحاول طمسها أو التهامها.. وما دامت ميازيب النعمة قد انهمرت اليوم علي أبي جهاد، فلا بد من أن ترافقها ضربات الحاسدين.

وكان حساد أبي جهاد أشتاتاً من الناس: الفقراء والأغنياء ورجال السياسة، وقادة الأحزاب ... وكثيرون غير هؤلاء وأولئك..

وقد استطاع أن يصمد لأكثرهم ويهزمهم.،. ولكن الحساد كانوا أشبة بخلايا السرطان تسبق بالنمو فاعلية العلاج، فإذا هو عن قهرها عاجز!.

لقد بدأت خصومة الحساد ضمن نطاق المرفأ ثم وصلت إلي الشارع، والآن قد بلغت من الاتساع حداً فات طاقة الرجل، لأنها أمْست مشكلة الدولة.. يتحدث بها النواب في البرلمان، وتملأ أخبارها أعمدة الصحف، وتهتز بأنبائها أسلاك البرق، تنقلها إلي الدنيا وكالات الأنباء العالمية.. وفي هذا الجو برز الكلام عن تأميم أعمال التجريم..

والتأميم بالنسبة إلي أبي جهاد نكبة لاتحتمل.. إنه استيلاء الدولة علي أسطوله، ثم قطع علاقته نهائياً بالمرفأ!.. وكانت قوانين العمل قد أخذت تشق الطريق لحماية العمال وضمان رزقهم عند التسريح.. ومعني هذا أنه لن يقبض درهماً واحداً من ثمن المراكب الذي قد لا يفي بتعويضات التسريح وحدها!..

أجل إن الضربة ليست من النوع المميت، ومهما تأخذ من ماله فسيظل له ما يعجزه حسبانه، ثم أن في هذه الأبنية والحقول والسيارات ما يضمن له مورداً لا تحرقة النار.. ولكن القضية قضية معركة لا ينبغي أن يهزم فيها ولو كلفته كل شيء..

وجاءه بعض السياسين يؤكدون له أن السبيل الوحيدة لدفع الكارثة هي إنجاح عدد من النواب يتولون المعارضة لمبدأ التأميم في المجلس القادم، الذي سيكون من شأنه وحده البت في الأمر.. وكان عرضاً معقولاً لم يعي بفهمه، ولم يتردد في قبوله..

وكان موعد الانتخابات علي الأبواب.. فإذا هناك سوق تزاحم فيها السماسرة وحمي المزاد، وبيعت الأصوات بالمئات والآلاف..

وفتحت خزائن أبي جهاد لتصب المالِ صباً ..ولم يبق شيء من ذلك في طي الخفاء .. ولِمَ التخفي .. وحماة القانون في خدمة المعركة يتلقون قسمتهم حلالاً زلالاً . !

وفي قلب المعركة جاءت سيارة رسمية فحملت أبا جهاد لمواجهة صاحبها ، الذي بادره بالإنكار الشديد لتصرفه الذي تحرمه القوانين .. وانذره بما لا تحمد عقباه ! ولكن أبا جهاد كان أملك لزمام المنطق .. فإذا هو يتنصل من كل تهمة ترميه بشراء الأصوات .. وكل ما هنالك صدقة يوزعها علي المحتاجين .. وأكبر دليل علي ذلك أنه غير مرشح ، ولا قرابة بينه وبين المرشحين ! . وقبل أن يسمع رد المسئول وضع علي مكتبه كيساً منتفخاً من الورق وهو يقول : وهذه هبة أرجو أن تتكرموا بتوزيعها علي من ترون من المعوزين . !

وبذلك انتهت كل محاولة لعرقلة المعركة التي سار كل شيء منها في طريقه المرسوم ..

علي أن المعركة لم تنته بفوز نواب أبي جهاد هنا وهناك ، بل واصلت طريقها إلي قلب البرلمان نفسه .. وسرعان ما تألفت جبهة باسم الدفاع عن حرية العمل ، وقفت نفسها لمهاجمة كل سياسة تستهدف التأميم . ولم تعدم هذه الجبهة أنصاراً لها في أوساط الصحافة ، فإذا ساحة المعركة تتجاوز البرلمان إلي كل مكان ، وما هي إلا مناورات معدودة حتي طغت أنباؤها علي السياسة الدولية .. وأصبح أبو جهاد بطلاً شعبيا يقصد السواح إلي بلده ، لينظروا عن كثب إلي الرجل الذي استطاع أن يشغل الدولة ، ويقيم لنفسه جنوداً حتي تحت قبة البرلمان ! .

***

والمعارك دائماً لا بد فيها من التضحيات والتكاليف .. ولقد كبرت تكاليف هذه المعركة وجلت ، فلم تكتف بالملايين تلتهمها من مال أبى جهاد حتى راحت تنهش أعصابه فى ضراوة .

إن جسمه الذى لم يعرف المرض قط إلا بعض السعال ينشأ عن جمعه بين اللفافة والنرجيلة، قد شرع منذ معركة المرفأ يتعرف أنواعاً من الأوجاع ما كان له بمثلها عهد من قبل.. ولقد بدأت طلائع هذه الأوجاع بالأرق، ثم أعقبه صداع شبه دائم، عجزت عقاقير الأطبة عن مداواته.. ومنذ عامين يعاني الأمرين من هذا الدوار المحموم الذي يسمونه ضغط الدم..

وها هو ذا اليوم يضيق ذرعاً بأكداس الأدوية منثورة علي مقربة من فراشه، فلا يكاد يلمحها حتي يشعر بانقباض في معدته وقرف يقتل منه كل رغبة في طعام الصباح. وهو مع ذلك مضطر إلي استعمالها جميعاً، بل مضطر إلي تغيير الكثير منها بين يوم وآخر، حتي أصبح وكأنه مخبر عقاقير.. وخيل إليه أن جسده قد بات من الضعف بحيث لا يمكنه الحركة الا متوكئاً على المحاقن وأصناف الأدوية.. وقد تجلي هذا التغيير أوضح ما يكون فى شعر رأسه الذي بدأ يتساقط بكثرة، بعد أن غلب عليه البياض وهو الذي لم يتسرب إليه المثيب من قبل.. الا شعيرات انتثرت هنا وهناك، كخيوط الفجر الكاذب في ثنايا ليلة حالكة..

وظهر كذلك في شاربيه، إذ بدا عليهما الإهمال فتهدلا في انكسار حزين، بعد تلك العناية التي طالما تعهدهما بها، أيام كانا مرتع أصابعه تعمل بهما فتلا وتوجيهاً نحو الأعالي..

وقد انطفأ معظم ذلك البريق الذي كان أول ما يطالع الرائي من خلال الحمرة الخفيفة التي تغشي بياض عينيه الواسعتين، فيوحي إليه بما خلفه من فطنة فطرية نفاذة.. وانتشرت التجاعيد في جميع أنحاء وجهه بعد ما كانت محصورة من قبل في بعض جبهته المسطحة.

حتي هندامه الأنيق، الذي اعتاد الظهور به في أوقات الفراغ، قد فارقته تلك العناية القديمة، فلم يعد له ذلك الإيحاء الذي يرسم للناظر معاني الاعتداد والقوة..

إن سراويله اليوناني الطراز لا يزال كعهده القديم يترنح بين ساقيه سرجه، وتتجمع في الأعلي طياته بشكل يؤكد أنه مستهلك مقداراً غير يسير من القماش.

والصدار المخملي لا يبرح مستريحاً فوق ذلك السروال، يعرض ذوق جيله بذينك الخطين المتوازيين من العري المصنوعة من البريم الحريري.. وكذلك سترته لاتزال تبدو علي منكبيه في شكلها المألوف قصيرة مشقوقة الأسفل من خلف بشكل يحفظ لها امتيازها الأصيل عن الطراز الغربي..

ولكن ذلك كله قد فقد سحره المعهود.. فإذا هو مشعث كشعر صاحبه، مضطرب الأوضاع كذهنه المشوش، ليس له من إيحاء سوي أنه رداء يؤدي وظيفته في ستر الجسم علي أي حال..

أجل.. لقد كانت معركة المرفأ تأكل من أعصاب أبي جهاد ،فتغير معالم حياته، وتلتهم صحته في غير رحمة.. وهو مع ذلك مضطر إلي أن يخوضها مبتسماً ،يتصنع عدم المبالاة، خشية أن يقع عدو منه علي ظاهرة ضعف تهدم في لحظة كل ماتظاهر به من تحد حتي اليوم.

ولقد كان هذا الكبت سبباً هاماً في مضاعفة متاعبه النفسية، إذ مايكاد يخلو إلي فراشه بعد نصف الليل حتي تنبسط أمامه مشاكل النهار متعاقبة الواحدة تلو الأخرى.. فإذا ماأمكن للكرى بعد هذا أن يتسلل إلي جفونه تبعته أشباح المشاكل إلي عالم الأحلام، حتي ليسمع أهل بيته من هذيانه وسبابه أثناء ذلك مايسلبهم القدرة علي مواصلة النوم..

ويالها أعباء لم يكن في وسع مثله أن يتصور بعضها قبل دخوله هذا المرفأ، فكأنما كتب عليه أن يكون همه وشقاؤه علي نسبة محصوله من المال، فكلما أحرز منه دفعة كان عليه أن يواجه محنة!.

وفي مثل هذا الجو المشحون بالإرهاق كان طبيعياً أن تقفز إلي خياله صور الأمس.. الأمس الذي طالما شغلته عن تذكره طلائع النجاح

الكبير، فظنه قد انطوي في غياهب الزمن إلي غير رجعة، فإذا بهذه الصور اليوم سلوته الوحيدة في ركام هذا البلاء...

لقد ذهبت الشبكة بخيوطها القانية، وغاب هيكل المجذاف في ثنايا الفناء.. وفارق الشص والقصبة و(المطريان) يديه وعينيه.. ولكنها جميعاً لاتزال حية تختلج في أعماق قلبه.. لقد استحالت إلي أرواح خفية تجيش في خاطره وتهمس في مشاعره، فترده إلي ذكريات أكبر من حقيقة الماضي.. الذي ماكان ليصدق أن فيه أثارة من جمال..

على أن ذلك كان ممكن الاحتمال لو جاءت النتائج حاملة إلى قلب أبي جهاد بعض العزاء.. ولكن مما يضاعف الأسي أن كل نتيجة جاءت أشد إيلاما من مقدمتها، وها هو ذا أخيراً يشهد نهاية الفاجعة بتأميم أعمال المرفأ، وحجز جميع المراكب التي بذل في إنشائها عرق جبينة ودم فؤاده.

وكان عليه بعد ذلك أن يهجر المرفأ إلي الأبد، كي لايقع بصره على منشاته المغصوبة، تعمل لغير مصلحته، وتحت غير قيادته.. وحاول تحقيق هذا الهجر بكل ما بقي لديه من قوة.. ولكن عبثاً.. لأنه كان أعجز من أن يصرف قلبه عن قرب هذا البحر الذي استقبل طفولته واحتضن شبابه، وشهد مراحل شيخوخته..

وتحت ضغط هذا الهوي القديم جعل يجر قدميه كل صباح إلى المقهى المطل علي المرفأ ليقضي معظم أوقاته.. ولكنه ماكان ليطيق رؤية مراكبه المحجوزة.. فهو يتخذ مقعده مدابراً البحر، مواجهاً صدر المقهى الذي طالما تزاحم رواده حول أبي جهاد، يصغون إلى حديثه وينتظرون إشارته.. فأصبح اليوم كالمنسي لا يكاد يجد فيه أنيساً سوى أفراد قلائل من زملاء الشيخوخة!..

ويتمالك أبو جهاد بإزاء ذلك ضاغطاً علي عواطفه، يحاول إغراق همومه في ذلك الضباب الذي ينفثه من ذخان النرجيلة.. فإذا خياله ينطلق من جديد وراء الماضي البعيد الذي دفنه ذات يوم في البقعة الزائلة

من هذا المرفأ، كما ينطلق خيال الغريق يستحضر طيف ليلة سعيدة.

***

وجلجلت فى سمع أبى جهاد قعقعة سيارةٍ شاحنةٍ تصبُ محتوياتها من الأتربة في الفجوة البحرية القريبة، فانخلع من غفوته، وراح يحدق بما حوله وما بين يديه، فيري البحر الممتد إلي أبعاد الأفق الذهبي.. ويري الشبكة التي شرع برتقها منذ عصر اليوم لايزال منشباً بها أصابعه..

ولما استوثق من أن مرئياته الذهبية لم تكن سوي حلمٍ طويل ثقيل هدأت أعصابه وفتح صدره عن زفرة مديدة أودعها كل ما في قلبه من حبيس القلق..

وفي حركة عاطفية مؤثرة أكب على شبكته يقبلها في حنان عميق، وهو يتمتم: «الحمد لله.. الحمد لله»!

الـــــــراعي...

عرفته لأول مرة في (الشيخ بدر) وذلك قبل اثنتي عشرة سنة.. وكنت أتخذ من تلك القرية مصطافاً في بعض السنين.. ولا أزال أذكر اللحظة التي فاجأني فيها، يقتحم فناء الدار دون استئذان ودون أي معرفة سابقة، وفي حياء بالغ حيًّا، وفتح كيس الزاد المعلق تحت إبطه، ليستخرج من خلال محتوياته من البصل والخبز، كتاباً مغلفاً بعناية، وقال لي وهو يشير إلى بيت من شعر ابن الرومي في إحدي الصفحات: هل تتكرم علي بإيضاح صغير؟.. ثم بين أن مراده معنى البيت وإعرابه، ولم أر بأساً في إجابة طلبه فشرحت البيت، ثم أعربت مفرداته وجمله في إيجاز ووضوح، ولم أعجل في ذلك، أذ رأيته مهتماً بإثبات ما أقوله على هامش الصفحة.. ثم لم يلبث أن طوى الكتاب ثم شد على يدي يصافحها في حرارة، ويتمتم بكلمة مهذبة عبر بها عن صادق شكره...

ونظرت إليه وهو يغادر الفناء، لِسوق غنيماته إلى رأس الهضبة، وقد عاد إلى الكتاب يوزع بصره بينه وبين دوابه.

ولم أحتج آنذاك إلى كبير جهد لأعلم أنه واحد من أولئك الأحداث، الذين قطعهم أهلوهم للعمل في الرعي، لا من أولئك التلاميذ الذين يقبلون على المدرسة أكثر أيام السنة، حتي إذا وفد الصيف بفسحتة الواسعة تفرغوا لمساعدة أسرهم في عمل عابر كهذا..

وكان في ثوبه البالي، وسرواله القروي ذي الألوان المتعددة الحائلة، ثم كوفيتة الملفوفة حول رأسه في غير عناية.. وبخاصة تلك البقية المفتتة

من مداس المطاط الذي كان يطأ به الشناخيب والبلان.. كان في كل ذلك مايدل على أن الفتى من الذين يستمتعون بالحظ الوافر من قسوة الفقر..

وقبل أن يغيب عن بصري تركت الفناء إلى داخل البيت، وفي أنفي غير قليل من تلك الرائحة التي نشرها حولي بخار جسمه الناضح بالعرق.. ولم أزد على أن تساءلت في نفسي: وما حاجة مثل هذا الراعي المعدم إلى الشعر والإعراب!..

وكدت أنسي ذلك الوجه الذي لم أعرف اسم صاحبه لولا أنه أبى إلا أن يذكرني بنفسه ظهر اليوم التالي،وكنا مجموع الأسرة على المصطبة الخارجية ننتظر الغداء، عندما فوجئنا بهذا الفتى يلقي علينا تحيته، ولم ينتظر الأذن بل جلس لفوره على حافة المدخل، قريباً من غسان، وفي أدب حيًا ثم قال له: هل تتكرم بإيضاح صغير؟..ولم يكن في حاجة إلى جواب، بل فتح كتاباً في يده، وجعل يشير إلى خطوط هناك قائلا: هذه الأقواس لاأستيطع فهمها دون مرشد.. فعلام تدل هذه الأقواس الداخلية الصغيرة؟.. وعلام تدل هذه الخارجية الكبيرة؟..

وكذلك أرجو أن ترى فهمي لهذه الإشارات المختلفة: هذا الخط الأفقي هو علامة الناقص.. وأما هذا الصليب فبعكسه.. انه أشارة للزائد.. أليس كذلك؟..

وكانت لهجة السؤال مغرية بالإجابة لاتدع مجالاً للتردد.. والأسئلة صغيرة، ولايكلف إيضاحها أي مجهود.. ثم آن على غسان أن يتخلص منه على أي حال، فقد أحدث دخوله علينا بهذه الصورة وفي هذا الوقت خاصة، مفاجأة غير سارة، فالمجلس أسري، والبنات لم يكنَّ على أهبة لاستقبال غريب.. فما ان بوغتن برؤيته حتي هرعن إلى داخل البيت..

وعمل غسان بوحي البديهة فبادره بالجواب المطلوب، في بساطة لاتدع حاجة للإعادة. ولم يبق مايقتضي بقاءه، فقدم شكره وانسحب..

ووجدتني مدفوعاً إلى الإعراب عن امتعاضي من هذه السماجة المرهقة، وقلت: هذه المرة الثانية التي يقتحم فيها علينا الدار. ليلقى مثل هذه الأسئلة التي هي أبعد ماتكون عن حاجة الرعيان.. ولا أشك أن في الفتى شذوذاً يحسن أن نتخلص منه بوسيلة مناسبة.

ويبدو أن غسان كان أوسع علماً مني بأمره فقال: إنه لايخلو من شذوذ.. ومن أجل هذا يتحمل الضرب من أبيه معظم الأيام.. إن أباه يقتضيه أن يتفرغ لرعاية غنيماتة حتى المساء، وأن يختم عمله اليومي بغرارة من العشب يحملها على عاتقه عند العودة من المرعي، ليوفر للأغنام والبقرة الأخري طعامها الليلي. ولكن (م غ) قلما يكمل عمله المطلوب لأنه مشغول عنه بالقراءة والكتابة التي لايدعها أبداً.. فهو مصر على أن ينال الشهادة المتوسطة مهما تكلفه من جهد وعذاب، ومضطر إلى مرضاة أبيه الذي يفرض عليه سلطانه بالعصا، وهكذا يوزع نهاره بين الدرس والرعي وتعبئة الغرارة.. وطبيعي أن ينحصر تقصيره في موضوع الغرارة، التي قلما جاء بها ملأي.. ومن هنا كانت العقوبة أبدا تلاحقه، لأن أباه لايري مثل هذا القصور في أترابه من الرعاة، الذين يحبون الإيقاع به، فيشكونه إلي أبيه، ويقارنون بين عملهم وعمله، ويؤكدون له أن ابنه شديد الإهمال لدوابه، حتى أنه قلما يعطيها حقها من الماء خلال النهار.. وقد اشتهر أمره في ذلك، حتى بات الناس يرمونه بالجنون، وقد رآه أحدهم يستوقفني في الطريق ليسألني عن مشكلة فيزيائية، فنصح لي أن أهمله لأنه مجنون، ولأن أباه لايرضى أن يشغله شيء عن مهمته في رعاية الدواب التى هي وسيلتهم الأولى إلى الحياة..

وأطرقت ملياً أفكر في هذا الوصف.. وقد كشف لي من أمره مالم أتوقع، وقلت تعليقاً على ماسمعت: «وما الذي يمنع هذا الفتى من الجمع بين الرعي والدرس! بل إنني لأرى من الخير تقدير طموحه».

ومنذ ذلك اليوم بدأ يلقى لدينا بعض التشجيع الذي يعوزه.. وألقي هو بثقله فأصبح كثير التردد علينا، لايكاد يرى أحدنا حتى

يبادره بقوله: من فضلك.. إيضاح صغير..

ولكن الاستيضاحات أخذت تكبر حتى كدنا نضيق بها وبما تحمله من تلك الروائح التي اعتادت أن تترك بقاياها طويلاً فى أنوفنا وما حولنا..

وقد ضاعف ثقل العبء أن الفتى لم يكن على حظ من الذكاء يتناسب مع طموحه، بل كان التباين بين النوعين غير قصير، ولهذا كثيراً ماوجدتني أبرم به، وأعلن ضجري من بطء إدراكه في دروس القواعد والأدب، وما أحسبه في الرياضيات والعلوم كان أحسن حالا.. ولولا جهوده المتواصلة، ومغالبته لنفسه لاستحال على وعلى ابني أن نصبر عليه طوال تلك الأيام

***

ومر من الزمن على ذلك الصيف ما كان جديراً بأن يمحو من ذهني كل أثر لذلك الفتي.. فليست ثماني السنوات بالشيء اليسير في حياة الأفراد. لقد تبدلت بطرطوس اللاذقية، وانقطعت كل صلة لنا بالشيخ بدر إلا بعض الوجوه من معارفنا القدامى تطل علينا بين عام وعام، كاطلالة الحلم من خلال ذكرياته البعيدة..

وكنت على وشك الإغفاء بعد ظهر أحد الأيام عندما دق جرس المدخل في دفقة طويلة، واضطررت إلي الإسراع نحو الباب، لأرفع اليد المزعجة عن فاصمته، وشد مادهشت حين رأيتني بغتة أمام الوجه القديم الذي عرفته في راعي الشيخ بدر!..

لقد تغير الكثير من مظاهره، فهو اليوم في هندام مدني لم يهمل حتى ربطة العنق، وقد خلص رأسه من تلك الكوفية العتيقة ليأخذ ماوسعه من الضياء والهواء. وحل مكان المداس المفتت حذاء ذو شريط أنيق، وقد ترك الزمن أثره في هيكله فهو اليوم أكثر امتداداً، وأوفر لحماً.. غير أن هذا وذاك لم يحولا بيني وبين حقيقته التي كانت أشد

بروزاً من كل تغُير.. ولعل أشد الظواهر الثابتة دلالة على شخصه عيناه.. تانك اللتان لاتبرحان على سمتهما وعمقهما المعهودين، ثم هاتيك الوضاءة التي لم تفارق بياض وجهه، وقد لوحه حر الهجير، كعهده أيام كان يتلقى أشعة الشمس مع غنيماته في هضاب الشيخ بدر.. وحتى رائحته القديمة كانت أول شيء لامس حواسي عند مواجهته، فساعدت على بعث الماضي كله حياً في خيالي..

وقلت في نفسي وأنا أفتح له حجرة الاستقبال، أرجو أن لايكون ثمة إيضاح صغير!..

ولا أنسى أنه كان جد مهذب في تحيته واعتذاره، فهو يعلم أن وقت القيلولة غير موافق للزيارة ولكنه، كما قال، خشي أن لايجدني في غير هذا الوقت.

وأنسته ماوسعني.. وسألته عن القرية والأصدقاء، وعن دراسته، وهل لايزال مقبلاً عليها؟.. وفي هدوئه المعتاد أجاب: منذ ثمانية أشهر لم أر الشيخ بدر قلت: وأين كنت كل هذه الأشهر؟ قال: في قرية من أقصى هذا الجبل.. فلم أفهم مقصده وتابعت: وهل لك من عمل هناك!.. قال: بلى.. إنني معلم.. معلم في مدرسة هناك!؟.. ولم أستطع كتمان دهشتي! أنت الآن معلم!! وكأنه سرَّ لتعجبي فقال: أنا معلم منذ ست سنوات، قضيت أربعاً منها في منطقة الجزيرة واثنتين في هذا الجبل..

وهنا تذكرت طموح الشاب، وحرصه القديم على إحراز الشهادة.. فقلت: إذن فقد نلت الكفاءة، وتركت رعي الماشية إلي رعاية الأطفال!..

وفي حماسة لم أعهدها منه أجاب: وتقدمت في العام الماضي لامتحان الثانوية، فلم يكتب لي النجاح فيها، وأنا اليوم أزورك لأتدارك على يديك النقص الذي لابد من استكماله لتحقيق النجاح..

ولم يشأ أن يدعني للتردد: انني اليوم ذو دخل، ومن حقي الا أضيع جهدك بغير مقابل.. لقد كتبت أجوبة الأدب على طريقة المحفوظات ولم أتعلم بعد كيف أكتب شرحاً لنص في مستوي الثانوية.. وكذلك لاأكاد أعلم شيئاً عن العروض.. وقد قدرت أن عشرين حصة دراسية لديك تكفي لتزويدي بما يدفعني شوطاً أبعد.. وها أنا ذا أضع بين يديك المقدار الذي تفرضه مقدماً..

وكنت أتلقى سرده الغريب في مزيج من الإعجاب والحيرة.. ولم أستطع وعده بشيء لأن أعمالي أكبر من أوقاتي، وقد سبق أن اعتذرت لغيره من طالبي الدروس الخاصة بسبب ذلك.. وفكرت أن أفضل خدمة أقدمها له هو أن أصله بمدرس من زملائي يحقق له هذه الرغبة..

وعرضت عليه فكرتي.. إلا أنه أبى الإصغاء إلي تفصيلاتها، وشرع يؤكد أنه لن يقبل هذه الدروس إلا من قبلي.. ومن أجل أن ييسر على الأمر جعل يحاول إقناعي بأنه اليوم غيره بالأمس، وأن ذهنه أصبح أكثر فهماً مما عهدت، وهذا يعني أنني لن أجد عسراً في تعليمه..

وتغلبت عاطفة الإعجاب بالفتى في نفسي على كل عائق، ورضيت أن أعطيه الدروس المطلوبة، على أن يساعدني بجهد لايفتر.. واتفقنا على أن تكون الحصص ثلاثا في كل أسبوع، إحداهن بعد ظهر الخميس والأخريان بعد صلاة الجمعة. وقد اخترنا هذين اليومين مراعاة لعمله الذي لايستطيع عنه انفكاكا في سواهما..

وبدأنا درس الخميس الأول، ثم أتبعناه بدرسي الجمعة، وزودته بوظائف أسبوعية مساعدة.. ومنذ ذلك اليوم بدأت اسفاره الأسبوعية بين الجبل واللاذقية، ليتلقى الدروس في مواعيدها..

وبذل الفتى جهداً مشكوراً، فكتب وأستظهر وأعرب وقطَّع.. ولكن مجهوده الذهني ظل دون مستوى نشاطه، كأيامه القديمة تماماً. وجاء موعد الإمتحان، وخاض معركته في صبر واستماتة.. ورحنا نترقب النتيجة، وقرأ في قائمة الناجحين اسمه ناقصاً، فلم يشأ أن يطمئن

نفسه، فقصد مصلحة الامتحانات ليتبين الحقيقة، فإذا الناجح غيره!.. وهكذا استقبل سقوطه الثاني في غير تذمر. وجاءني يقول: لم يكن بيني وبين النجاح سوى بضع علامات.. وهذا مايضاعف رغبتي في مواصلة الجهاد حتي النصر، وإني لأعتبر مجهوداتي السابقة وما قرأته من كتب وتلقيته من دروس زاداً ثقافياً، أمدني بالكثير من الخير.. وأحب أن تعدني بدروس أخري ترتب لي مواعيدها منذ الآن..

وواعدته.. ومنذ مطلع العام الدارسي التالي طفق يستأنف أسفاره الأولى، ليحضر الدروس في مواعيدها المقررة، وأضاف إلي دروسه في العربية دروساً أخري في الأجنبية رتبتها له مع أحد الزملاء..

وحين حان الامتحـان الثالث كان أوفر أستعداداً له، ولهذا لم يفاجأ بخبر نجاحه عند إذاعة النتائج.

***

وكنت ظهر أمس عائداً إلي الدار، عندما فوجئت بيديه النديتين أبداً تهزان يميني.. وفي حرارة يحييني ثم يقول: سألت عنك في الدار فقيل لي انك في النادى ...

قلت: مرحباً بك.. هل ثمة إيضاح صغير؟؟.

وأدرك ماأريد فابتسم وقال: أجل.. إنه إيضاح وتوجيه.. وأخذ يشرح لي قصده: إنني أستعد لإمتحان أهلية التعليم في العام القادم، وفي وسعي الأعتماد على نفسي في دراسة موادها جميعاً،إلا الموسيقى وبعض تطبيقات عملية في التشريح.. فأرجو أن تصلني بمدرسين لهما وتوصيهما بي خيراً..

وفعلت ماأراد.. ولم أنس أن أذكر للمدرسين طرفاً من سيرته..

وبعد أيام لقيت مدرس الموسيقى، وسألته عما صار إليه تلميذه المعلم، فقال: انه ذو فهم مخيف.. يريد التهام منهاج العام في بضعة أيام..!

قلت: وبهذا النهم استطاع التغلب على ظروفه القاهرة فتحول من راع إلى معلم.. ولا استغرب أن تقرأ اسمه في الصيف القادم بين الناجحين في أهلية التعليم.. على أنني واثق أنه لن يكتفي بهذه الشهادة، بل لن يقف اندفاعه دون الشهادة الجامعية..!

قال صديقي مدرس الموسيقى: حقاً إن الذي لمسته فيه من قوة الطموح ليستحق الإعجاب..

قلت: ولكن عبرة هذا الطموح هي ما يؤكده لنا من أن الذكاء لايشكل سوى عنصر محدود الأثر في حياة الإنسان، أما التصميم والإرادة فهما الأداة الأولى في كل تفوق من شأن الجهد البشرى أن يحققه..

***

المشاهد الثلاثة

الرجل الذي أكتب الآن قصته معروف .. لاأستطيع حجب شخصيته عن معظم القراء، ولو ألبسته غير اسمه ... ولو جعلته يعيش في جزيرة واق الواق ...

إن كثيرين من قرائي سيقولون فور اطلاعهم على وصفه: إنه (طالب) صاحب المسمكة المشهورة ...

ولست أريد في هذه القصة عرض حياته وأحداثه من جميع جوانبها ... لأنها متشابهة لاطريف فيها، وحسب المرء أن يعرف بعضها ليعلم بسائرها ...

إنه واحد من هذا القطيع الكبير الضارب وراء المال وما يحققه المال من زائل الحطام .. لايستطيع أن يتجاوز ذلك بتفكير ولا تصور ... وهو في سبيله مستعد لأن يدوس كل الفضائل، ويكفر بكل المقدسات.

لم يملك موهبة قط .. ولكن العوامل غير المنظورة، التي تفرق وتجمع، وتسخر القوى المختلفة لتحقيق غاياتها الكبرى، هي التي يسرت له عبور عشرات الدهاليز للوصول إلى مركزه المرموق كصاحب مسمكة .. ! وطبيعي أنني أصفه بالمرموق تصويراً لواقعه في مفهوم الذين

هم فى مثل مستواه العقلى والنفسى ذلك لأن كثيرين يتمنون بجدع الأنوف لو يحتلون مكانه ... ويتوفر لهم مثل امتيازاته المغرية من المال والقدرة على الإساءة .. والجرأة فى السباب والوقاحة المتناحية فى التجديف على الخالق .. وهى امتيازات مكنت لطالب أن يكون مرهوب

الجانب، مسئول الخاطر لدى الكثيرين من عبيد القوة ... وأتاحت له فضلا عن ذلك أن يكون مالكا لسيارة خاصة يسوقها بنفسه وإن كانت مهلهلة من الطراز القديم.

وبالنظر لتشابه حياة طالب ... فسأقف من قصته على فصل واحد ذي ثلاثة مشاهد، حدث أول هذه المشاهد في مقهى بلدي ... حيث كان طالب هذا ينازل بعض الرفاق بلعبة الورق، وكانت المعركة حامية كما يبدو، إذ غلبت ضجتهم على صخب المقهي كله ... وامتاز صوته خلال ذلك بالقذائف الضخمة تنصب بأسوأ الشتائم على اسم الله!...

وطبيعي أن السامعين لم يكونوا سواء في تقبل هذه الوقاحة، ولكن حتى المنكرون لها وهم قلة لم يكونوا مستعدين للدخول في معركة من أجل ربهم ودينهم،فاكتفى بعضهم بالتسلل من المقهى، وتجاهل الآخرون مايسمعون، وغرق الباقون في شئونهم الخاصة من ثرثرة اللعب ... ورشف القهوة ... ومص أطراف السجائر أو النراجيل ... إلا أن واحداً من لاعبي المنضدة المجاورة لم يستطع كف لسانه، فالتفت إلى طالب يقول: «.. لاتنس ياسيد طالب أن الله ليس ملكك فتوجه إليه شتائمك ... إنه ربنا جميعاً ..»

ودون أن يرفع طالب عينيه عن الورق، وفي لهجة مشحونة بالإستهتار قال: «.. ومع ذلك فأنا أشتمه الآن إكراماً لغيرتك عليه ..» وراح يتقيأ دفقة من الألفاظ القذرة ... تجاوزت هذه المرة كل حد ...!

في هذه اللحظة كان رجل غريب الأطوار يعبر الشارع ... فما أن لأمس هذا السيل من السفه سمعه حتى اقتحم مدخل المقهى إلى مقابلة طالب، وبلا مقدمة أهوى براحتيه على جانبي الوجه الوقح، يغسله بصفعات متتالية، تجاوز صداها المدى الذي وصلت إليه أصداء شتائمه ...

وألجمت المفاجأة لسان طالب ... فلم يفه بكلمة ... ونظر عشرات الحضور في دهشة عميقة إلى هذا المشهد العجيب غير

المتكافيء... محمد الطويل... الذي لايزن جسمه الخمسين كيلا، والذي لايكاد الناس يسمعون له صوتاً، يتجرأ على هذا البغل البشري بمثل هذه الصفعات المهينات...!

حقاً إنه لمشهد غير مألوف... من العسير على العادي من الناس أن يجد له تفسيراً...

واستمرت المفاجأة ثواني طويلة... لم تتحرك خلالها يد ولا لسان... وقبل أن يسترد الحضور أنفاسهم رأوا طالباً نفسه ينهض متراجعاً إلى الوراء قليلاً، وقد ارتسم الجزع على جميع وجهه، وبدت شفتاه ترتعشان، وفي كثير من الانكسار أخذ يقول: الحق بيدك...

. ويلعلع صوت (محمد) في لهجة خطابية تتفجر: مثلك لايفهم معني الحق... ولا راحة من لسانك إلا بقطعه... وسأرفع ضدك دعوي تؤدب أمثالك أيها الوقح..!»

ويتوجه إلى الحضور ببقية كلامه ليقول: لو كان هذا السباب موجهاً إلى آبائكم لأخذتكم النخوة، ولكن مقدساتكم الإلهية آخر شيء تهتمون به... ياللأسف!...

وغادر المقهى ليأخذ طريقه إلى دار القضاء... والعيون تلاحقه... وكأنّ على السنة الجميع أغلالاً تمنعها الكلام...

***

وكان لحادث المقهي أثره البعيد في مختلف الأوساط... صدم السفهاء الكثيرين، الذين اعتادوا إطلاق شتائمهم على قوارع الطرق، وشجع أولي البقية من الحياء والأخلاق على الجهر بكلمة الحق، يهدون بها الضالين، وينبهون الغافلين... وكثيرون من هؤلاء وأولئك أخذوا يتتبعون ذيوله في الدعوى التي رفعها محمد الطويل ضد ذلك السفيه المستهتر...

وحدد موعد النظر في الدعوي... وتوسط طالب الناس ممن يحسبهم ذوي جاه وتأثير إجتماعي ليقنعوا خصمه بسحب دعواه... ولم يتورع حتى بعض المنتسبين للدين من أصحاب العمائم أن يراجعوا هذا الخصم العنيد في القضية، راغبين إليه أن يطويها، كما يطوون هم أمثالها كل يوم... غير أن عناده كان أقوي من حجتهم وتمنياتهم... فأبي إلا أن يمضي بالدعوي إلى غايتها، وليجعل منها وسيلة إلى تطهير اللاذقية من هذه السفاهات التي أوشكت أن تصبح من طوابعها المميزة..

وجاء اليوم المقرر... واكتظت باحة المحكمة بالنظارة على اختلاف أصنافهم... ولما تبين محمد الطويل شخصية الرئيس. لم يكن في حاجة إلى كبير ذكاء حتى يحرز مصير دعواه... ذلك لأن الرجل كان من النزاهة في المقام الذي تعرفه جيداً البيوت السرية، والمقامر الأرستقراطية...!

وخرجت (الحرية) يومئذ منتصرة شامخة الأنف تتحدى...

وعلى مدخل دار القضاء عقيب ذلك التقي (محمد) بطالب ممسكاً بمقود سيارته التي أعدها للانطلاق... وسمعه يقول في تهكم جارح: سأنسى أهانتك إذا سمحت لي بأن العن...

وأتم شتيمته الشنيعة وهو يبتعد بسيارته المسرعة عن متناول يده... ولكن (محمد) استطاع أن يسمعه قوله: خسئت... وإذا عجز القضاء عن قطع لسانك فسترى كيف يقطعه الله...!

***

لم تكن براءة طالب يوم المحاكمة نصراً لشخصه، ولكنها كانت من حيث النتيجة إلهاباً لنزوات السفه التي يتكاثر أنصارها في كل مكان... وقد بلغ من أثر هذه التبرئة في نفوس هؤلاء أنهم جعلوا يتحدون دعاة الخير بكل الوسائل، حتى لا يتورعون عن إسماعهم

تجديفاتهم على قوارع الطرق ، دون أن يستطيع هؤلاء شيئاً سوى الشكو إلى الله ...

وكان رد الفعل في نفس طالب أشد ... إذ أخذته العزة بالإثم ، فراح يطلق حماقاته بمناسبة ودون مناسبة ، فكانه ينتقم بذلك من كل مخالف لطريقته ، ومن كل شامت به يوم صفعات المقهى !...

وما أدري في أي الأيام التي تلت تبرئته كان موعد السكرة التي أحياها مع آخس الرفاق ، تخليدا لذلك الانتصار الباهر ! ولكن الذي أذكره وسيظل الكثيرون يذكرونه جيداً هو ماحدث أثر ذلك ... لقد إنطلق طالب يومئذ يقود سيارته المهلهلة في طريق أحد المصايف ، وعلى رأس أحد المنعطفات غلبه السكر فأفلت المقود من يده ثم انتهى ... ومنذ تلك اللحظة انقطع لسانه إلى الأبد ... ولعل تجديفة منكرة كانت آخر مانطق به ذلك اللسان ...!



إجـــــازة..

لقد أحببته كثيراً.. بل أكثر مما أحببت أي إنسان لقيته في حياتي.. ولقد أشفقت عليه بمقدار ما أحببته!..

عرفته لأول مرة في بحث قرأته له عن بعض البدع الوافدة على المسلمين.. فاستهوتني جرأته وحماسته لفكرته، وإخلاصه الحار في الدفاع عن جوهر الإسلام..

ثم جمعتنى وإياه حفلة أدبية في طرابلس ــ لبنان ــ كنا هو وأنا بعض المتحدثين فيها، فكان تقارب الهدفين بينى وبينه سبباً لتعارف لم ولن ينفصم..

وكنت كل يوم ألقاه فيه أزداد به إعجاباً وله حباً.. لقد تمثل في قلبي كواحد من بقية شباب الإسلام في عهد النبوة: إيماناً واعياً نقياً يسعف صاحبه بأفضل الحلول لأعقد المشكلات لا يعتريه فتور ولا كلل في خدمة العقيدة التي ملأت شغاف قلبه، فأصبحت له الهواء الذي يتنفس، والنور الذي به يبصر.. ثم حباً للحق والخير لايطمئن بصاحبه إلا أن يندفع للجهاد في سبيل هداية الناس جميعاً إلى كل حق وخير. وقد ساقته هذه الدوافع لتوسيع مجالات عمله إلى مختلف ميادين الحياة، تحقيقاً لما يفهمه عن الإسلام، من كونه الدين الذي يشمل بنظامه الإلّهي جوانب النشاط البشري كافة، فكان طبيعياً أن يلاقي في طريقه المؤيدين الذين يسترخصون كل غال في سبيل الإسلام، والمعارضين الذين لايتورعون عن ارتكاب كل كبيرة للوقوف بوجهه.

وكان خصومه ضروباً مختلفة من الناس، فيهم الملاحدة الذين يرون في كل نشاط ديني عدواناً على أفكارهم وتهديداً لوجودهم، فهم يحاربون

حركته بكل سلاح وفي كل ميدان..

وبينهم شيوخ يزعمون التخصص في خدمة الإسلام، فلا يرضيهم أن يتصدى لهذه المهمة سواهم، وبدافع من الخشية على نفوذهم القائم على الأوهام يثيرون الغبار في وجهه، ولا يتورعون حتى عن التواطؤ مع أعداء الإسلام للكيد له، والدس على دعوته...

ولعل أشد الخصوم إيذاء له أولئك الذين كانوا إلى وقت قريب ألصق الناس به، ثم واجهتهم المحنة فلم يثبتوا، وبدلاً من أن ينطووا على أنفسهم معترفين بالعجز، أخذوا يهاجمونه لتعويق سيره، وللتظاهر ببطولات لاحقيقة لها...

والعجيب في أمر هذا الرجل أن أياً من هؤلاء المخاصمين لم يستطع التأثير في طريقته التي اختطها منذ الخطوة الأولى، فهو يؤمن بأن الإسلام الذى يعمل لتحقيق أهدافه في تحقيق الأخوة الإنسانية وتأمين العدالة الاجتماعية لايسمح لدعاته أن يشوهوا اسمه بسلوك المسارب المتلوية، والوسائل غير النظيفة، ولهذا كثيراً ماكنت اختلف واياه في الحديث عن هؤلاء، إذ كان يأبى إلا أن يقدر لهم الظروف المخففة من سلامة النية، وخطأ الاجتهاد... وربما عمد إلى الدفاع عنهم بذكر ماوسعه ذكره من حسناتهم، أو يمكن اعتباره حسنات لهم، حتى بت على يقين أنه من طراز تسمو به أخلاقه فوق الأحقاد، فهو ينظر إلى خصومه من خلال طبيعتهم الإنسانية، وعلى ضوء مقاييسة الإسلامية الصافية، فلا يميل به الهوي عن الإنصاف، ولا تغلبه العاطفة على واجب العدالة...

والرجل إلى ذلك ذو مواهب عجيبة من شأنها أن تجعل له أثراً غير عادى في مجتمعه، وأكثر ماتتجلى مواهبه في خطابته، فقد يخطب في وسط من ذوي الاتجاه المخالف، فما يكاد يمضي في حديثه إليهم حتى تتحطم الحواجز بينهم وبين أفكاره فإذا هم أقرب مايكونون إليها، لايمنعهم من إيثارها إلا استكبار الهوى، وعدم الألفة للحق... ونبرته الخطابية تذكر السامع بما قرأه عن رسول الله (ﷺ) إذ يقف ليخطب القوم فيبدأ هادئاً ثم يغيب في موضوعه، فإذا هو الفكرة نفسها تتجسم

في كلمات كأنها مقدمات معركة... ومع كل انفعاله مع الموضوع لا يكاد يفوته شيء مما يؤكده، مثلاً أو قصة أو نكتة... فكأنه يقرأ في كتاب لا يخطيء منه فكرة، ولا يخرم حرفاً، ولا يقترف لحناً... ...

ولعل لمواهبه هذه أثرها في إلهاب بعض الخصومات ضده، إذ يحاول أصحابها التهوين من شأنه، بإبراز أنفسهم فيسقطون في الامتحان، ولا يجدون سبيلا إلى تلافي نقائصهم إلا أن يخلقوا له النقائص!... ومهما أنس لا أنسي يوم كنا على مائدة أثر حفلة خطابية، فشاء أحد المدعوين من المخربين أن ينتقم لنقصه فقال: لم نسمع خيراً من محاضرة فلان ـــ يريدني ـــ فقلت: ومع ذلك فخير ما فيها أنها قبسة من أفكار هذا المغوار...!

وبهذه المواهب، وبهاتيك الخصائص الخلقيه استطاع الرجل أن يشق للمفهوم الإسلامي الصحيح طريقه في عقول الجيل الجديد، ليس في بلاد العرب وحدها، بل حيث تصل لغة القرآن من بلاد الإسلام. ولقد قال فيه خصومه الكثير والكثير، اتهموه في دينه، ورموه في خلقه، وأثاروا الشبهات في أغراضه، ولكن ردود الفعل لذلك كله كانت تعميق أثره في النشيء الإسلامي، إذ كان واقعه الملموس فوق كل هذه المحاولات. كان سلوكه العملي صورة تامة من دعوته لفكرته. تجلى ذلك في حياته السياسية إذ كان في البرلمان الصوت الإسلامي الذي ركز مفهوم الحرية والعدالة الاجتماعية في صلب الدستور، وفي حياته النضالية من أجل فلسطين، إذ قاد معركتها في الشارع وفي خطوط النار، فكان مثل المجاهد الذي باع نفسه لله، فلم يعرف المساومة، ولم يقبل المهادنة... وفي ميدان الإصلاح الاجتماعي حيث كان مثل العالم الناظر بنور الله، فهو يعمل لتحقيق معاني الإسلام، تحريراً من الجهل، وتحريراً من الخرافة، وتحريراً من الفقر، وأخيراً تحريراً من الطائفية التى تجعل من الدين وسيلة لطغيان المغتصبين، ولهضم حقوق المخالفين...

وشاء الله أن تكون معركة فلسطين نقطة التحول في خط السير السياسي والاجتماعي في سورية، بدأت انقلاباً في نظام الحكم، ثم

أخذت طريقها في تحطيم النظام الاجتماعي وتغيير القيم الأصيلة، ثم جاء السلاح من الشرق لتحصين البلد ضد الخطر الطارىء.. ولكن الأيدي التي استقدمته لم تشأ له أن يدخل البلاد إلا في موكب من أمواج الدعايات لأفكار غريبة، لم تلبث أن استهوت الغافلين، فراحوا يفتحون لها بيوتهم وصدورهم... وسرعان ما انقلبت مقاييس الناس، وإذا البلد يمتلىء بالشعارات الوافدة، وإذا الشكوك تثار في كل شيء، وتكاد التيارات الإصلاحية في الميادين الاجتماعية والسياسية والدينية تتحول إلى صراع طبقي يمزق وحدة المجتمع، ويجعل منه معسكرات لا هدف لبعضها إلا القضاء على بعض...

وكانت أحداث، وكان وراء الأحداث قوى تخطط للتطور الجديد، فما لبثت أن دفعته إلى البرلمان نفسه فإذا هناك (تجمع قومي) يسخر كل شيء من أجل توطيد الحكم لأقلية لم تستطع تحقيق أهدافها عن طريق طبيعي، فراحت تستغل بساطة الجماهير بإثارة المخاوف، وخلق الإشاعات.. لتجعل منها ستاراً كثيفاً تحقق وراءه وفي غفلة الأعين، كل ما استعصى عليها من الأغراض...

وخلا أحد مقاعد البرلمان فكان على كل من الجماعات السياسية أن تركز هجومها عليه... وأجمعت كلمة المعارضة علي ترشيح صاحبنا لذلك المقعد، لأن الموقف كان في مسيس الحاجة إلي مثله في صف المعارضة، ولما وراءه من رصيد شعبي جدير بأن يتغلب علي القوة التي تختبيء وراء التجّمع.. ولم يستطع خلاصاً من هذا الترشيح فخاض المعركة، وهو يعلم أنه يغالب السلطة الفعلية كلها. بما فيها من أسلحة ودسائس ووسائل نشر وإعلام...

ثم انكشفت المعركة عن النتيجة المقررة وهى نجاح مرشح القلة، لأن سلاح الإرهاب قد نجح فى عزل ثلثى الناخبين عن الميدان، فخلا بذلك لأضعف الخصمين.

وتحقق لصاحبنا هناك مالم يكن يجهله من النتائج، واستيقن من جديد أن المحنة الجديدة التي منيت بها الحرية في سورية قد أصبحت

تتطلب كفاحاً من نوع آخر، يكافىء بقوته وتنظيمه ذلك التخطيط الغريب الجديد...

***

قلت: إني كنت شديد الإشفاق على هذا الرجل، لا من حيث كثرة خصومه وافتنانهم في ابتكار ضروب الإيذاء له فحسب، فذلك أمر قد وطن نفسه علي قبوله منذ اختار أو إختار له القدر هذا الطريق، ولكن إشفاقي عليه إنما كان بسبب ماأعلمه من مرضه الخطر.. الذي كان يعاوده بين الحين والحين...

كان مصاباً بمرض العباقرة... الذين أعدهم الله للنهوض بأعباء الواجب، فجعلهم بذلك أشد من الناس الآخرين حاجة لاستهلاك وقود الحياة...

كان عقله — كأبي تمام — يأكل من جسده كما يأكل السيف من غمده.. فهو أبداً في تفكير في حياة الناس، ومستقبل أمته، يحمل في قلبه هموم المسلمين كلهم في كشمير وأندونوسيا وتركيا والحبشة وبقية المناطق الأفريقية التي أحالها الاستعمار مسلخاً ومطبقاً لشعوبها الإسلامية.. هذا فضلاً عن هموم إخوته فى الشرق والغرب من البشر الذين يعيشون من خوف الفقر في فقر، ومن خوف الحرب في حرب..

وطبيعي أن يكون أثر هذه الهموم أكثر مايكون في القلب، والدماغ وفي أوعية الدم المتصلة بهما... ومن هنا كان صاحبي يعاني نوبات من ضغط الدم تكاد تكون متصلة، وطالما سمعته يشكو الإرهاق، ويرغب إلينا — أنا ورفاقه الآخرين — في إعفائه من العمل ليتاح له أن يسترد بعض العافية... ولكننا نأبى عليه... وأقول له أنا: إنك ميت على كل حال، وأوثر لك أن تسقط في معركة الإسلام على أن يموت في فراشك...

وفي ذلك الجو الخانق الذي كانت تعانيه الحرية في سورية كان مرض الضغط أحق الأمراض بالانتشار، ولعل مؤسسات الإحصاء الصحي لو عمدت إلى تحقيق فيما يرافق عهود الفوضى والقلق السياسي من أمراض لما وجدت أكثر ملازمة لها من ضغط الدم. وإلي جانب ذلك كله كان من الطبيعي أن تترك الانتخابات الموجهة أثرها البالغ في صحة صاحبي، فإذا هو مضطر إلى مبارحة دمشق ليوفر لنفسه فرصة للاستجمام في أحد المصايف اللبنانية...

وصمم علي إخفاء هذه الرحلة حتى عن أقرب الناس إليه، فلم يعلم بوجهته سوى أهل بيته. وفي فندق مكرزل من ضهور الشوير. اختار غرفة منعزلة في الجناح الجنوبي... وقد سره أن تكون خالية من الهاتف... ويستطيع أن يغلقها عليه إذا شاء فلا يدخلها حتي خادم الفندق، إلا إذا ضغط علي جرسها الكهربائي الذي يكاد يكون صلته الوحيدة بالعالم... بل إن الخادم نفسه سيحتاج في هذه الحالة إلى أكثر من عشر دقائق ريثما يصل إليه...

إنها لصومعة رائعة... طالما هفا إلى مثلها وحالت دون رغبته المقادير...

من نافذتها الشرقية سيمتع عينه بأروع مناظر الصباح، حين ترسل الشمس تحيتها الأولى إلى هذه الغابة الواسعة الحالمة من أحراج الصنوبر ومن على هذه الشرفة العريضة سيشاهد موكب الغروب، إذ تهبط الشمس نحو خدرها بين ذراعي الأفق... ومن هنا في أحضان الليل الحافل بالأسرار سيفرغ لمناجاة ربه فينعم بتلك النشوة العليا التي كادت تصرفه عنها المشاغل التي لأول لها ولا آخر...

أنه لم يكن قط في مثل حاجته اليوم إلى هذه الخلوة، فهو يرجو أن تتيح له عزلة تامة عن كل مشكلات الحياة، وستكون منفاه الاختياري الذي سيقطعه عن كل البشر بما فيهم من الخير والشر... ومن أجل ذلك رفض أن يصحب من الكتب سوي كتاب الله، وبعض كتب الحديث الشريف... واستبعد حتي المذياع، وصمم علي الا يتصل

أثناء خلوته بأية صحيفة ... وقرر أن يظل في منفاه هذا شهراً كاملاً فلا يغادره قبل استكماله ...

ومما حبب إليه هذه العزلة يقينه بأن للنفس أمراضا لاشفاء منها إلا بالاعتكاف في مثل هذه الخلوات ، فهو لها كالصوم بالنسبة إلى الجسد حين يسرف هذا في التهام الطعام والشراب ، فتبلد أحاسيسة ثم لايستطيع استعادة صفائها إلا بالصوم ...

ونقد الخادم بعض الليرات كدفعة أولي من إكراميته وهو يقول له : إني بحاجة إلى راحة تامة ... فأرجو أن لايعلم أحد مكاني إلا بعد أن آذن لك ...

وسعد صاحبنا أياماً بهذه المتعة على النحو الذي قدر .. وخيل إليه أنه يستكشف كل يوم جديداً من معاني القرآن ، كما لو كان يتلقي وحيه من معينه النبوي مباشرة ... وأحس أن شعوره بالحياة قد بدأ يتوهج على نحو لم يكن له به عهد من قبل ...

لم يعد يحس بشيء من الإرهاق الذي كاد ينوء به قبل أيامه هذه ... وتوقع الا يغادر هذه العزلة إلا وقد استعاد كل صحته ونشاطه كأفضل ماعرف من صحة ونشاط ...

وأستيقظ ذات صباح .. ليجد نفسه علي غير ماألف .. وخيل إليه أنه يصحو من حلم مزعج ولكنه لم يذكر شيئاً من تفاصيله .. بل لايذكر منه شيئاً البتة ، إلا أن أثره لايزال حاداً يحسه ضيقاً في الصدر ، وجفافاً في الفم .. وضجراً لايحتمل ...

يالله ! ... أين تلك النشوة الغامرة التي سعد بها طوال العشرة الأيام تتنزل على قلبه من وراء هذه المادة فتنسيه كل هموم الحياة ، وترفعة إلى الذري الموشاة بآلاف الألوان من عالم غير منظور ! ...

لقد انطوى ذلك كله ، كما يمحى خيال الحلم البهيج في لحظة صحو مفاجئة .

وأطرق يفكر في أسباب هذا الضجر الطارىء... ويتساءل: هل من حادث في الأولاد! لقد تركت والدي متعباً بعض الشيء... فهل حدث من شيء!

وما كاد يذكر أباه حتى ارتفع نبضه وأسرعت دقات قلبه... وأحس بحرقة في صدره تكاد تدفعه إلي البكاء...

ولم يعد قادراً علي البقاء مع هذه الهواجس، فإذا هو يجمع ثيابه، ويضم كتبه إلى مكانها من الحقيبة... ثم يضغط على زر الجرس... ولم يستطع انتظار الخادم داخل الغرفة فغادرها إلى الشرفة ليراه وهو في الطريق إليه... وما ان أطل وجهه من خلال شجرات الصفصاف حتى ناداه يقول: أي فؤاد!... سيارة إلي بيروت حالاً...

وفي بيروت كان يريد مراجعة الأطباء ليجدد فحوصه، ثم يعود إلى دمشق في اليوم نفسه... ولكنه لم يجد لديه القدرة علي الانتظار كل هذه الساعات، لأن الضجر قد استبد به إلى حد لم يعد يطاق... وعلى الرغم من اتصاله الهاتفي بالبيت، والجواب المطمئن الذي تلقاه... لم يستطع احتمال البقاء... وكان حر بيروت قد أسهم بدوره في توتره العصبي ذاك فلم يقر له قراراً حتي كان في طريقه إلي دمشق...

وما ان وطىء صاحبنا... عتبة داره حتي عاوده الشعور بالارتياح وكاد يستعيد اطمئنانه الروحي الذي فقده منذ الصباح.

لقد وجد أهله على أفضل مايرجى من السلامة والهناءة... وزال قلقه على أبيه بما انتهي إليه من أخباره الحسنة... ولكنه مع ذلك لم يزل يتساءل في سره عن أسباب ذلك القلق الذي هاجمه مطلع اليوم دون أن يهتدى إلي جواب!... ومن ثم لم يستطع أن ينتزع من قلبه شعور التوقع لشيء مجهول على الرغم من كل المحاولات التي بذلها للفرار من ذلك...

ورأى أن يفعل شيئاً للتخلص من هذه الحالة فمشى إلى الحمام يريد أن يعالج جسده بشيء من الماء الفاتر، ولكنه ماكاد يمضي بضع خطوات حتي أحس بصدمة هائلة نزلت بشقه الأيسر جميعاً، فأخلت

توازنه فأهوى وهو يردد اسم الله...

وكانت السقطة سليمة بفضل الله، إذ حدثت وهو بجانب الباب، فتلقاه بيمينه، وأسعفته بقية من قوة كان لمشقات الجهاد ولتدريبات الفتوة فضل كبير في صيانتها حتى اليوم، فلم يصل إلى الأرض إلا بعد مقاومة دفعت عنه الكثير من الأذى...

وغرق البيت في غمرة الكارثة، حتي أوشك الهلع أن يطير بالقلوب، ولكن الرجل لم يفقد شيئاً من وعيه، وإن عطل الشلل الطارىء حركته أو كاد وأدار في وجوه من حوله نظرة هادئة مطمئنة... ثم أسعفه لسانه بالكلام فجعل يذكرهم بما يجب من الصبر والتسليم لقدر الله...

***

وكنت أنا في الطريق إلى زيارته، أخشى أن يغلبني الأسى أمامه، أو يخونني لساني فأنطلق بما يضاعف آلامه... ولكن قلقي هذا قد بدأ يستقر منذ رأيته ينهض لاستقبالي، ويسعى نحوي بكثير من النشاط الذي لم يستطع الشلل الظاهر أن يطغى عليه... وعانقته، وفي قلبي غصة محرقة كادت تتفجر دموعاً في مقلتي لولا الضبط الذي فرضته على نفسي...

ونظر إلي بعينيه الخضراوين، فراعني منهما عمقهما الآسر الذي طالما استشرفت من خلاله صفاء قلبه وسرني أن أطالع في بياض وجهه المشرب بحمرة الحياء تلك النضارة نفسها التي عهدتها من قبل كأصدق ترجمان عما وراءها من جمال اليقين وصدق الطوية...

وكان لتلك الابتسامة المطمئنة التي رافقت نظره إليّ أثرها العميق في مشاعري، فزايلني كثير من الجزع الذي كنت أحسه، وبخاصة حين سمعته يرد علي آخر أسئلتي بهذه الكلمات العجيبة:

«... ولقد جعل الله من هذه المحنة القاسية منحة لايكافئها شكر... كانت مشاغل السياسة ومشاكل التدريس الجامعي تستهلك وقتي كله، فلا أجد فرصة لأي شيء سواهما... وقد طالما تلهفت لاجازة طويلة أخلو فيها إلى نفسي لأسجل آلاف الخواطر التي تعلمتها من الحياة... ولأعيش مع مكتبتي هذه... ولكن عبثاً... حتى شاءت حكمة الله فجعلت من إصابتي هذه اجازة واسعة تتيح لي أن أقرأ مالم أجد فرصة لقراءته، وأن أكتب ماكان متعذراً بل مستحيلاً أن أكتبه...»

وسكت قليلاً... ورأيته يرسل بصره فيما لاأدري مما هو وراء هذه الأكداس المكومة من الكتب... ثم استأنف يقول: لو تقدم موعد الإصابة ساعة لاستحال علي أن أجد مسعفاً، لأن الجرس، وهو صلتي الوحيدة بالفندق، سيكون بعيداً عن متناولي، والخادم لايأتي إلا بالطلب... ولو تأخرت في بيروت أو في الطريق وقتاً ما لكان ممكناً أن تقع الكارثة في عيادة الطبيب أو في السيارة... فالضجر الذي اعتراني حتي أحرجني ثم أخرجني إلي دمشق، لم يكن إذن إلا حافزاً من وراء الغيب يسوقني بقوة خفية لأستقبل قدر الله في بيتي وبين أهلي...

ألا ترى ياصاحبي أن وراء ذلك كله عناية الله... وحكمته!!

ومرة أخري أتعلم من هذا... الرجل العظيم كيف يجب أن يتلقي المؤمن قدر الله... ثم جاءت الوقائع مؤكدة بصورة عجيبة ماذهب إليه من تفسير لهذه المحنة... فلقد أخرج للناس أثناء مرضه هذا عدداً من المؤلفات كانت خير ماكتب هو عن الإسلام، بل في طليعة ماألف المؤلفون عن الإسلام منذ مطلع هذا القرن...

ولعل في هذا تفسيراً عملياً للقانون الإلهي الذي يقول:

(وعسي أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً.)

بعض آثار المؤلف

المطبوع

- نار ونور ــ شعر الديوان الأول
- همسات قلب ــ شعر الديوان الثاني
- مشكلات الجيل في ضوء الإسلام
- دروس من الوحي
- نظرات تحليلية في القصة القرآنية
- أفكار إسلامية
- تأملات في المرأة والمجتمع
- كلمات من القلب
- كلمات مضيئة
- أضواء على حقائق
- مشاهد من حياة الصديق
- علماء ومفكرون عرفتهم
- تحفة اللبيب من ثقافة الأديب
- مجموعات قصصية
- من أجل الإسلام وحواريات أخرى
- الآيات الثلاث
- بطل إلى النار وقصص أخرى
- قصص لاتنسى ــ من تاريخنا
- دماء وأشلاء وقصص أخرى
- بطل من الصعيد وقصص أخرى
- قصص من سورية
- قصص لاتنسى ــ للشباب والطلاب
- الألغام المتفجرة وقصص أخرى
- اللقاء السعيد وقصص أخرى
- صور من حياتنا
- قصص لاتنسى ــ من مجتمعنا
- قصتان من الماضى
- علماء ومفكرون عرفتهم جـ ٢ .

يظهر قريباً إن شاء الله

- خواطر ومشاعر .
- أدب ونقد .
- ردود ومناقشات .
- فى ظلال الإيمان .
- آلام وأحلام ــ شعر .
- من القصص التمثيلى .
- من الأعماق .
- فصول من الحياة .
- علماء ومفكرون عرفتهم جـ ٣ .

فهرس الكتاب

القصة	الصفحة

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ ش نشاطي - شبرا مصر -